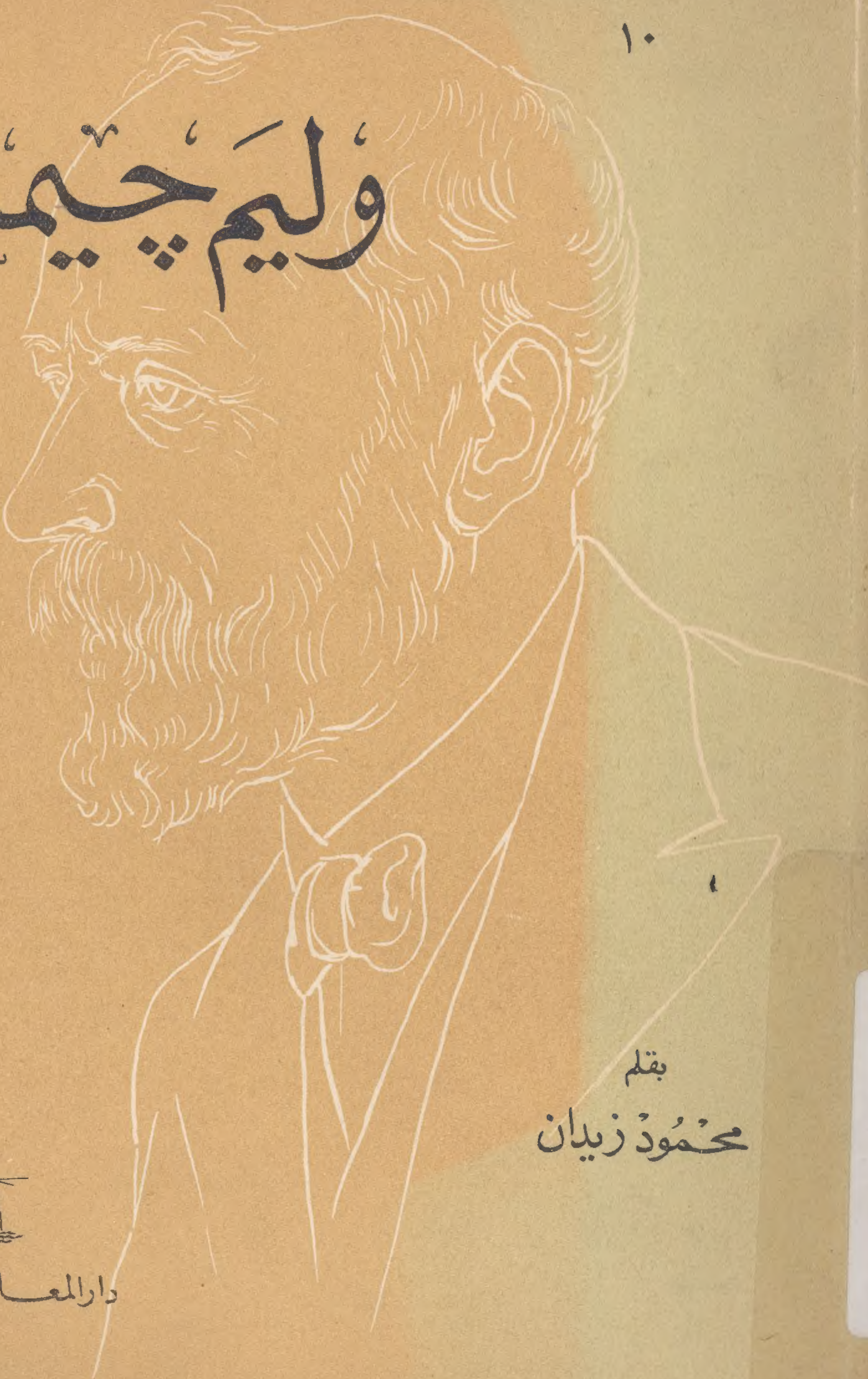


نوابغ الفكر الغربي

١٠

# وليم جيمس



بقلم

محمود زيدان



دار المعارف بمصر





ولیم چیمس



نوابغ الفكر الغربي

١٠

وليم جيمس

بقلم محمود زيدان

استوحى رسم الغلاف من صورة لأليس بوطون  
بتصريح من جامعة هارفارد

# الإهداء

إلى أستاذي الجليل

الدكتور زكي نجيب محمود

. . . الذي لقني درساً - كما لقن الكثيرين من شباب الجليل - في أن  
أبتغي الوضوح ، والإيضاح : وضوح العبارات ، وإيضاح المعاني .  
وأن أتوخى الدقة فيما أعبر به ، وما أعبر عنه .

محمود زيدان





## محتويات الكتاب

صفحة		تصدير
٩	.	الفصل الأول
١٣	(أ) حياة ولیم جیمس . . . . .	
١٦	(ب) التطور العقلي لولیم جیمس . . . . .	
١٨	١ - الاتجاه التجريبي . . . . .	
٢٥	٢ - نظرية التطور . . . . .	
٢٨	٣ - الاتجاه الروحي . . . . .	
٣٤	٤ - الاتجاه المثالي الألماني . . . . .	
٣٧	(ج) مصادر الحركة البرجماتية . . . . .	
٣٨	١ - البيئة في هارفارد . . . . .	
٤٠	٢ - تشارلز پيرس . . . . .	
٤٥	الفصل الثاني : المنهج البرجماتي . . . . .	
٤٧	المنهج - سبب اتجاه جيمس نحو المنهج . . . . .	
٥٠	تطبيق المنهج على الجوهر ، التدبير ، الخلاص . . . . .	
٥٦	الفصل الثالث : نظرية المعرفة . . . . .	
٥٧	إمكان المعرفة - مصادرهما والفهم المشترك . . . . .	
٦١	الصدق : معناه - تطبيق المنهج على الصدق - . . . . .	
٧٣	اعتراضات وردودها - نقد النظرية - مكانة النظرية . . . . .	
٨٩	الفصل الرابع : المذهب التجريبي الأصيل . . . . .	
٨٩	(أ) مقدمة . . . . .	
٩٥	(ب) هل للشعور وجود . . . . .	
١٠٥	(ج) نظرية جديدة في العلاقات . . . . .	

صفحة	
١٢٩	( د ) مذهب التعدد . . . . .
١٣٣	( هـ ) تعقيب . . . . .
١٣٧	الفصل الخامس : الدين والأخلاق . . . . .
١٣٧	( ا ) مقدمه . . . . .
١٣٨	( ب ) للإنسان حق مشروع في الاعتقاد بالدين
١٤٢	( ج ) الوجدان لا الذهن يثبت الاعتقاد بالدين .
١٥١	( د ) هجوم جيمس على اللاهوت والفلسفة الدينية
١٥٢	( هـ ) الاعتقاد بعالم غير منظور . . . . .
١٥٧	( و ) الشعور وما وراء الشعور . . . . .
١٧٢	( ز ) علم الدين . . . . .
١٨١	( ح ) علم الأخلاق . . . . .
١٨٢	١ - الإلزام الخلقى . . . . .
١٨٣	٢ - التفاؤل . . . . .
١٨٧	٣ - حرية الإرادة . . . . .
١٩٤	الفصل السادس : التيار البرجمائى بعد جيمس . . . . .
١٩٤	( ا ) فرديناند شلر والمذهب الإنسانى
٢٠٥	( ب ) چون ديوى والمذهب الوسلى . . . . .
٢١٣	منتخبات من مؤلفات وليم جيمس . . . . .
٢٣٩	معجم بأهم المصطلحات . . . . .
٢٤٣	مراجع الكتاب . . . . .

## تصدير

يعتبر ولیم جیمس فی نظر الأوساط السیکولوجية المعاصرة علماً من أعلام علم النفس الكلاسیکی ولم يعد من رجال الصف الأول فی علم النفس التجريبي ورغم ذلك فالمعروف أنه لا يزال يحتل مكانه من الفلسفة المعاصرة . إن ولیم جیمس أبحاثه الجديرة بالاعتبار فی علم النفس والفلسفة معاً . فهو الذي أقام أول معمل لعلم النفس التجريبي فی الولايات المتحدة عام ١٨٧٦ حيث كان يدرس فيه علم النفس الفسيولوجی ، وله نظرياته النفسية الجديدة التي سجلها فی كتابه المشهور « مبادئ علم النفس » . وكان أولها من الأهمية نظريته الجديدة فی مجرى الشعور ، وأبحاثه فی العلاقة بين العقل والجسم إذ شغلته هذه العلاقة طول حياته العلمية والفلسفية ، وقد كان مؤمناً أول أمره بالنظرية الآلية Automaton Theory ، ثم عدل عنها إلى نظرية التفاعل Interactionism — وله نظرياته الجديدة فی الإحساس والإدراك الحسی والانفعال والانتباه والإرادة والتفكير والعادة وقوانينها وطبيعة العقل ووظيفته وتحليل النفس وصلة ذلك بالشعور وما تحت الشعور . وله بعد ذلك أبحاثه ونتائجه التي وصل إليها من دراسته لعلم النفس المرضی .

ولولیم جیمس جانب آخر — وهو موضوع هذا الكتاب — هو جانبه الفلسفی ، فقد كان مهتماً بالمشكلات الفلسفية الهامة سواء ما كان منها فی المنهج ونظرية المعرفة أو الميتافيزيقا أو النظريات الخلقية والدينية ، وهو لا يزال فی العشرين من عمره ، وظل متعلقاً بها حتى مات . كانت فی نفس ولیم جیمس رغبة أصیل للتفلسف إذ قال : « الفلسفة صناعة غريبة قد تكون أشرف الصناعات وقد تكون أتفهها . وأياً ما كان أمرها فهي بناء لا هدم ، وهي فی ذلك كالفن تماماً . يحاول الإنسان دائماً أن يفكر ويتأمل ، كما يحاول دائماً أن يجعل منزله أجمل مما هو . يتفلسف الفيلسوف كما يحب المحب ، وقد لا تكون نتائج فلسفته



نافعة له ؛ ومع ذلك فهو يشبع رغبة أصيلة فيه .

ولا يزال يرتبط اسم وليم جيمس بالمذهب البرجماتي وهو مذهب كثيراً ما لاكتنه الألسن ، وكثيراً ما أسىء فهمه ، واستخدم استخدماً شعبياً بغيضاً . وهدفنا من هذا الكتاب إبراز هذا المذهب الذي نادى به جيمس على حقيقته فهو مذهب له قيمته بين المذاهب الفلسفية : إنه منهج فلسفي مستقل يسميه أصحابه المنهج البرجماتي ، وله رأيه في المناهج الفلسفية . وإنه نظرية مستقاة في المعرفة يسميها أصحابها النظرية البرجماتية في الصدق . وإنه نظرية كذلك ميتافيزيقية ، وأخرى خلقية ودينية . فالمذهب البرجماتي إذن مذهب فلسفي متسق ، خلاف ما ادعى الكثيرون . إن المذهب البرجماتي عند جيمس وجهة نظر شاملة يفسر في ضوءها الإنسان والكون حيث هو منهج ونظرية معرفية وميتافيزيقية وخلقية ودينية . ولم يرض وليم جيمس أن يكون له مذهب فلسفي بمعنى ذلك البناء الشامخ الذي يقيمه الفيلسوف مترابط الأجزاء متشابك التفاصيل ذلك الترابط المنطقي والتشابك الضروري . فقد رأى جيمس أن المنطق ليس ضرورياً دائماً وفي كل شيء فليس هو كل شيء في طبيعة الإنسان : إذ للإنسان إدراك ووجدان وإرادة وليس إدراكاً فحسب .

ولعل هنري برجسون عبر أصدق تعبير عن فلسفة وليم جيمس حين قال : « إن الواقع — كما يراه جيمس — كثرة وفيضان من الأشياء . إن الفرق بين هذا الواقع ، والواقع الذي يبنيه الفلاسفة كالذي بين الحياة التي نعيشها كل يوم ، والحياة التي يعرضها علينا الممثلون في رواية مسرحية ، حيث لا يقول أحدهم شيئاً سوى ما يجب عليه أن يقول ، ولا يفعل سوى ما ينبغي أن يفعل ؛ وحيث توجد فصول ومناظر مقسمة ، وللفصل بداية ووسط ونهاية . أما في الحياة فلن نجد من هذا شيئاً : نجد حشداً من الكلام وقد تؤدي مجموعة من الحركات والإرشادات لا جدوى منها . ليس هنالك شيء يمر كاملاً ، خلوا ، كما نريد ، كما أنه لا توجد خاتمة مرضية تقف عندها ، ولا حركة أو إشارة جد حاسمة .

تلك هي الحياة الإنسانية ، وهي الواقع عند جيمس . . .

وإن كان بعض علماء النفس المعاصر قد نحوا ولیم جیمس عن مكان الصدارة كعلم من أعلامهم إلا أنه لا يزال يحتل مكانته الكبيرة بين الفلاسفة المعاصرين ، ولا زال الرائد الأول بجانب من الحركة الفلسفية في إنجلترا والولايات المتحدة — بل لا زال نقطة الارتكاز التي بدأ منها وبني عليها الفلاسفة الأمريكيون المعاصرون أبحاثهم الجديدة في الواقعية الجديدة والواقعية النقدية .

\* \* \*

أما عن سر هذه المكانة الفلسفية لولیم جیمس فهو أنه جمع بين الثقافات العلمية التجريبية والفاسفية النظرية والدينية الخلقية معا . كان معول هدم للفلسفات التأملية مثالية كانت أو عقلية وللمذاهب المطلقة التي كان يسميها المجردة والقبلية والمغلقة . هل كان رائداً للمذاهب التجريبية ؟ نعم ولا . كان تجريبياً مخلصاً للوقائع والحوادث الجزئية لكنه كان يعلم أن التجريبية الإنجليزىة التقليدية التي بدأت من بيكون أولوك إلى هيوم ومل كانت ناقصة ، وكان يسميها أنصاف التجريبيات : إذ رأى بها ثغرات يلزم ملؤها ومثالب يجب التغلب عليها . فأضاف إذن إضافات أصيلة قيمة للمذهب التجريبي وأراد أن يجمع بين الحسينين : إخلاص للعلم وإخلاص للدين والأخلاق حتى يرفع عن المذهب التجريبي تهمة الإنكار والزيف عن الاعتقاد . فبحث بحثاً تجريبياً في ميدان التصوف والتدين ووصل إلى نتائج قيمها لا زالت موضع تقدير الكثيرين لأنها أقيمت على تجارب وخبرات وأقيمت على تحليل نقلى لتلك التجارب والخبرات دون أن تستند إلى عقائد ثابتة أو تحيز راسخ .

القاهرة في يناير سنة ١٩٥٨ .





## الفصل الأول

### ( ١ ) تاريخ حياة جيمس

ولد وليم جيمس في ١١ يناير سنة ١٨٤٢ بنيويورك ، وكان أكبر خمسة من الإخوة . وكان لأبيه هنري جيمس أثر كبير في تربيته : كان الأب متديناً من أتباع كالفن . ولم يكن في حاجة لوظيفة ليرتزق منها ، بل كان له دخل كبير ولذا صرف وقته في القراءة والاطلاع والسفر والرحلات . وأبرز شيء يلاحظ في تاريخ حياة هذه الأسرة هو كثرة الرحلات مما أثر في شخصية وليم جيمس ومما يدل على أن تعليمه لم يكن منظماً بل تنقل في مدارس وكليات عديدة ، ويقال إن أول رحلة لوليم كانت وعمره سنتان ، كما يقال إن أطول مدة قضها وليم جيمس في الولايات المتحدة كانت ست سنوات .

سافرت أسرة هنري إلى أوروبا في سنة ١٨٤٤ وعادت في سنة ١٨٤٥ . ودخل وليم مدارس نيويورك وهو في التاسعة ولم تعجبه تلك المدارس فسافرت الأسرة إلى أوروبا وتنقل وليم في مدارس لندن وباريس وجنيف . ودخل وليم الكلية المحلية في بولونيا سنة ١٨٥٦ ، وبعد ذلك بستين غادرت الأسرة بولونيا متجهة إلى نيويورك بجزيرة رودس ، وقضت هناك خمسة عشر شهراً عادت بعدها إلى جنيف . حيث دخل وليم الكلية هناك . وفي سنة ١٨٦٠ ذهبت الأسرة إلى بون بألمانيا وكانت هذه الرحلة أول فرصة لوليم لأن يتعلم اللغة الألمانية ، وكان قد أتقن وقتئذ اللغة الفرنسية واللاتينية وبعض العلوم الطبيعية . لكنه كشف في هذه المرحلة كراهيته للرياضة والمنطق وشعر أنه ضعيف فيهما .

وعادت الأسرة في سنة ١٨٦١ إلى نيويورك . وتبدأ حياة وليم العلمية في مرحلة مستقرة نوعاً ما في تلك السنة . إذ دخل مدرسة لورنس العلمية قسم الكيمياء بهارفارد ، وكانت سنة التاسعة عشرة ، ولم ير أستاذه في الكيمياء تشارل إليوت Ch. Eliot فيه تفوقاً وامتيازاً ، فتنبه وليم لذلك ، فترك قسم الكيمياء في

السنة التالية واتجه نحو قسم التشريح وعلم وظائف الأعضاء بالمدرسة .  
وقد واجه وليم وهو في الحادية والعشرين مشكلة اختيار أحد طريقين :  
التاريخ الطبيعى أو الطب ، واستقر رأيه على الاستمرار في دراسة الطب . ولذا  
دخل القسم الطبى بجامعة هارفارد في سنة ١٨٦٤ . واختاره أستاذه في الجيولوجيا  
لويس أجازيس Agaziss ضمن جماعة من الطلبة ليصاحبه في رحلة كشفية  
إلى نهر الأمزون بالبرازيل في سنة ١٨٦٥ . وما إن وصل وليم إلى الأمزون حتى  
سئم الرحلة وقال في خطاب لأبيه : إذا كنتُ أكره شيئاً فهو الجمع وأعتقد أن  
هذا العمل ليس مناسباً لقدراتى العقلية . ولقد أحسَّ وليم في هذه الرحلة بمتاعب  
صحية كثيرة فشكا من مرض الجدري وشعر بإعياء شديد ؛ وعاد بعد سنة ليواصل  
دراساته الطبية .

وفي سنة ١٨٦٧ عين وليم جيمس طبيباً بالمستشفى العام لمساتشوستش . ولكنه  
شعر وقتئذ ببعض الأمراض فلازمه الأرق واضطراب الهضم وأوجاع العين وآلام  
في الظهر وانحطاط في روحه المعنوية . وأشارت عليه أسرته أن يسافر إلى أوروبا  
للاستشفاء . ولقد شجعه على السفر أنه وجد فيه فرصة لمتابعة تطورات علم  
وظائف الأعضاء والاتصال بعلماء النفس هناك .

وعاد وليم جيمس من أوروبا في سنة ١٨٦٨ ليتم دراسة الطبية وانقطع لها  
حتى نال شهادة الدكتوراه في الطب في السنة التالية .

ولكن المرض ظل ملازماً لوليم بل اشتدت وطأته في سنة ١٨٧٠ وتذكر هذه  
السنة بأزمات صحية لجيمس أتبتها أزمات نفسية حادة . أصيب في هذه السنة  
بالتخليط ( الوسوسة ) كما أصيب بالوهم من المرض . وحامت حوله شكوك  
فكرية مثل عدم تخلصه من الرغبة في رد كل شيء في الإنسان إلى عوامل عضوية ،  
ومثل الخوف من سلطان الجبرية والخشية من ألا يكون للإنسان إرادة فلم يستطع  
أن يهرب من وساوسه . وسأعود إلى هذه الحالة المرضية بعد ذلك .

ومن حسن حظ وليم أن خلت وظيفة مدرس في علم وظائف الأعضاء في  
هارفارد فعرض تشارل إليوت على وليم هذه الوظيفة فقبل ؛ وقد كانت فرصة  
ليشفي من أمراضه .

ولقد أصبح وليم جيمس مدرّساً للتاريخ الطبيعي في سنة ١٨٧٤ ثم مدرّساً للتشريح المقارن وفسولوجية الحيوانات الفقرية ، وألقى محاضرات كثيرة عن صلة علم وظائف الأعضاء بعلم النفس . وظل يدرس هذه المواد والموضوعات خمس سنين . وفي سنة ١٨٧٦ أعطى دروساً في علم النفس الفسيولوجي حيث أسس أول بعمل لعلم النفس التجريبي في الولايات المتحدة .

وقد التقى في هذه السنة بالآنسة أليس Miss Alice التي أصبحت زوجة له من سنة ١٨٧٨ . ولقد زالت أمراض جيمس بعد الزواج إذ كانت زوجته تقدر ميوله العقلية والشخصية وكانت تشاركه في كل ما يهتم به .

وكان قد تعاقد جيمس قبل زواجه بسنة مع الناشر هنري هولت على أن يخرج له كتاباً في علم النفس . ونشر جيمس كتاب مبادئ علم النفس في جزعين بعد ذلك بإحدى عشرة سنة . ومن الطريف أن جيمس كتب مقدمة كتابه هذا وهو في شهر العسل .

ولقد أصبح جيمس أستاذاً مساعداً للفسيولوجيا في سنة ١٨٨٠ ثم أستاذاً مساعداً للفلسفة بهارفارد . وفي سنة ١٨٨٥ أصبح وليم جيمس أستاذاً للفلسفة .

وأعجب العالم أجمع بكتاب المبادئ فألح عليه الناشرون أن يكتب موجزاً للكتاب الكبير ليناسب الطلبة فنشر في سنة ١٨٩٢ موجزاً لمبادئ علم النفس كان عنوانه Psychology : A Briefer Course<sup>(١)</sup> وأشار عليه تلاميذه أن يكتب كتاباً في علم النفس ينفع الآباء والمدرسين في التربية فكتب « أحاديث سيكولوجية إلى المدرسين » في سنة ١٨٩٩ . Talks to Teachers on psych .

وشعر جيمس بعد ذلك أنه خدم علم النفس بما فيه الكفاية ، فاتجه نحو الفلسفة وكان قد أخرج قبل ذلك « إرادة الاعتقاد ومقالات أخرى » The Will to Believe & Other Essays وفي سنة ١٩٠١ دعت جامعة أدنبرة إلى إلقاء محاضرات تحت سلسلة « الدين الطبيعي » وألقى عشرين محاضرة استغرقت سنة كاملة نشرها في السنة التالية بعنوان « صنوف التجربة الدينية » Varieties of



Rebgius Experience وفي سنة ١٩٠٦ ألقى ثمانية محاضرات في معهد لويل Lowell Institute في بوسطن . وهذه المحاضرات هي التي نشرت في السنة التالية تحت عنوان «براجماتزم» Pragmatism وأعيد إلقاء هذه المحاضرات البرجماتية نفسها في جامعة كولومبيا سنة ١٩٠٧ .

وفي سنة ١٩٠٧ اعتزل التدريس في الجامعات ليتفرغ للبحث الفلسفي : ويقال إنه عكف - أول ما عكف - على تأليف كتاب مات قبل أن ينشره وكان وضع عنوانه بعض مشاكل الفلسفة . Some Problems of Philos ونشره رالف بيرى سنة ١٩١٢ ، كما نشر في نفس السنة كتاب جيمس المشهور «مقالات في التجريبية الأصيلة» .

وفي سنة ١٩٠٨ ألقى جيمس سلسلة من المحاضرات في كلية مانشستر في أكسفورد نشرها في العام التالي تحت عنوان «الكون المتعدد» Pluralistic Univ. وفي سنة ١٩٠٩ نفسها نشر مجموعة الاعتراضات التي وجهت إليه في نظرية في الصديق الموجودة في كتابه براجماتزم ومجموعة ردوده على هذه الاعتراضات في كتاب مستقل تحت عنوان «معنى الصديق» Meaning of Truth . ومات جيمس في سنة ١٩١٠ .

## (ب) التطور العقلي لفلسفة وليم جيمس

قال وليم جيمس بمنهج فلسفي أو أداة لحل المشكلات الفلسفية هو المنهج البرجماتي ، ويمتاز بخاصيتين :

الأولى : أنه ثورة على مناهج العقلين والتأملين قائلًا إن بعض مشاكلهم ليست مشاكل بالمعنى الدقيق ، وإن حلولهم للمشاكل لفظية لا قيمة لها أو غامضة لا وضوح فيها . والخاصة الثانية أنه منهج تجريبي من نوع جديد - أي يرى أن قيمة النظرية كائنة في نتائجها وآثارها على الفكر والسلوك .

ولقد قال جيمس بنظرية جديدة في الصديق ينكر فيها نظريتي المطابقة

والاتساق التقليديتين وينكر أية معارف فطرية أو قبلية أو ضرورية ثابتة ، ويرى فيها أن المعرفة مكتسبة وتجريبية وجزئية ويفسر الصديق تفسيراً جديداً ، ويرى رأياً جديداً في طبيعة العقل ووظيفة المعرفة ويرى أن المعرفة ليست غاية وإنما هي وسيلة لتحقيق أغراض الإنسان النظرية منها والعملية .

ولجيمس نظرية جديدة يفسر بها العلاقة بين الذات والموضوع في مجال المعرفة إذ ينكر الثنائية الحاسمة ويعلن أن الشعور الإنساني والموضوعات الفيزيائية ليسا من طبيعتين متميزتين وإنما يصدران عن منبع واحد هو التجربة الأصلية . وله نظرية جديدة في العلاقات يسميها النظرية الخارجية في العلاقات يهاجم بها النظرية الداخلية للعلاقات ، يثور فيها على التأملين في قولهم بالوحدة المطلقة الضرورية بين أجزاء العالم ، ويثور على التجريبيين في قولهم بالتعدد المطلق . ينكر جيمس العلاقة الضرورية والانفصال المطلق بين أجزاء العالم ويصطنع موقفاً وسطاً بين العقليين والتجريبيين .

وله نظرية في تصور الإنسان للعالم يرى فيه أنه ناقص غير كامل ولم يتم بعد ، وإنما يحتاج لجهود الإنسان فيه لكي يكون كاملاً . وإكماله موكول بنا وعلى عاتقنا .

وله نظريات في الاعتقاد الديني يثور فيها على المسيحية الكنسية ، وعلى الفلسفات اللاهوتية ، وعلى الفلسفات الرنسندنتيالية وعلى الفلسفات التجريبية على السواء . يهاجم الشكاك والمحايدين ويعتبرهم جميعاً منكرين ويدعم سلطان الوجدان والإرادة ، وأن لهما دوراً رئيسياً في إقرار الإيمان حين يفشل الذهن فيه . ويستند في كل ذلك إلى أبحاث سيكولوجية عن التصوف وأبحاث نفسانية وتحليلات في طبيعة النفس ومدى اتصالها بأكوان غير منظورة .

هذه عناوين فلسفة وليم جيمس . وأريد أن أبحث التيارات الفكرية المختلفة التي ما كانت فلسفة جيمس ، والمذهب البرجماتي على وجه الخصوص إلا نتيجة ضرورية لها . وبمعنى آخر ما هي الأطوار العقلية التي يمر بها جيمس حتى وصل إلى تكوين مذهبه ؟

أرى أن أتحدث — لأجيب عن السؤال — عن تيارات فكرية ثلاثة متعارضة كانت معاصرة لجيمس هي: الاتجاه التجريبي، والاتجاه الروحي، والاتجاه العقلي .  
الاتجاه. التجريبي :

ويتناول نقطتين : المدرسة التجريبية الإنجليزية ، ونظرية التطور البيولوجية .

المدرسة التجريبية الإنجليزية : وسأتناول فيها كلمة عن كل من لوك ، وبركلي ، وهيوم ، وچون مل .

جون لوك : من الثابت أن جيمس قرأ فلسفة لوك وأعجب بها إذ كان يسميه « لوك العظيم » ، « الكتاب العزيز القديم »<sup>(١)</sup> . ولم يكن مجرد تابع له ، ولكنه قرأه قراءة تحليلية نقدية : أخذ عنه بعض أفكاره وأنكر منه بعضها الآخر . أخذ جيمس أن المعرفة تستمد أساسها من التجربة ، وأنه لا توجد معرفة قبلية ، وأن الوجود الحقيقي وجود الجزئيات وأن الكلّيات ما هي إلا تجريدات ذهنية ولا بد أن تلي الجزئيات في المرتبة ، وأخذ عن لوك أيضاً فكرة أصبحت مفتاح نظريته الأساسية في الصدق البرجماتي — لقد قال لوك إن التجربة الجزئية إحساس جزئي في مكان معين وزمان محدد ، وينبغي أن يكون الإحساس هو الحد الذي نقف عنده وتنتهي إليه

وأنكر جيمس<sup>(٢)</sup> من لوك ثلاثة أشياء هامة : العقل صحيفة بيضاء ، عدم عبور الهوة بين الأفكار والأشياء ، ليس للكلّيات أهمية بالغة .

فاعلية العقل : لم يقبل جيمس القول بأن العقل صحيفة بيضاء Tabula Rasa ليس به شيء فطري وأن التجربة هي التي تهيه الأفكار ، ولم ير أن العقل مجرد مستقبل للانطباعات الحسية ، وإنما اعتقد جيمس أن للعقل فاعلية وتلقائية ونشاطاً ذاتياً في عملية المعرفة . يخلق العقل أفكاره ، ووظيفة التجربة أن تحقق تلك الأفكار فتؤيدها أو تنكرها . ولكن العقل يقترح والبيئة تؤيد أو تنكر . ولكن



كيف يرى جيمس أن للعقل أفكاراً غير تجريبية وهو منكر للأفكار الفطرية ؟  
 جواب جيمس هو أن العقل لم يعد سرّاً إلهياً وجوهراً خارقاً للطبيعة ، ولكنه عضو  
 بيولوجي . يخضع لقوانين الفيزياء . كأي عنصر طبيعي . وأول تلك القوانين التكيف  
 أي تكيف الكائن الحي مع البيئة الخارجية . وكان يرى جيمس أن في الإنسان  
 ميولا وحاجات وأن العقل وسيلة تبقيتها في عالم التجربة بما يقدم من مقترحات  
 تستلزم التحقيق <sup>(١)</sup> .

هذه الفاعلية العقلية طرف من رأى جيمس في طبيعة العقل . وتوجد آراء  
 أخرى يراها في العقل سأذكرها في حينها .

العالم الخارجي : قال جيمس إن فلسفة لوك منصبه على الأفكار ولا تلقى  
 ضوءاً على الوجود المادي . إن معرفتنا لفكرة ما ومعرفة علاقات المشابهة والتباين  
 بين الأفكار لا يثبت أن تلك الأفكار تمثل وجوداً خارجاً عن الذهن . إن  
 الإدراك الحسي لا يكشف طبيعة الوجود الواقعي وإنما يكتفي بأن يقول إن لدى  
 العقل أفكاراً معينة . وبهذا المعنى وصل لوك - أو كاد - إلى مثاليه أطاحت  
 به إلى صف العقليين . يرى جيمس أنه واقعي أي قائل بوجود فيزيائي مستقل .  
 ويبدو أن جيمس لم يرد أو لم يستطع أن يبرر الفلسفة الواقعية بأدلة دقيقة .  
 ولذا نجد يصادر على وجود العالم الخارجي ويعتبر أن إدراك عالم مادي خارجي  
 أمر يدركه الفهم المشترك إدراكاً مباشراً ولا يحتاج إلى برهنة .

الجزئيات والكليات : إن مزاج وليم جيمس مزاج تجريبي خالص ، وكانت  
 تقتضيه اتجاهاته الذهنية أن يتابع لوك في مسألة الكلّيات وهي « الفلسفة الاسمية »  
 ولكن جيمس كانت تجذبه تيارات أخرى في زمانه غير التيارات التجريبية هي  
 التيارات الذهنية والتي كان من أبرز المتحمسين لها تشارلز بيرس . « كان  
 جيمس متجهاً نحو المحسوسات والجزئيات . كارهاً التصورات المجردة والكلّيات  
 المستقلة عن عالم الحس ولكن إصرار بيرس على حقوق الفكر في مقابل حقوق  
 الإحساس وجه جيمس نحو الكلّيات بالرغم من احتقاره الطبيعي لها » <sup>(٢)</sup> .

Perry, Thoughts and Characters of W. James. Vol. I, p. 454.

(١)

Op. Cit., Vol. II, p. 421.

(٢)

لذلك تحول جيمس عن رأى لوك في أن الجزئيات هي كل شىء — لا إلى فلسفة عقلية وإنما إلى أساس تجريبي معدل . ما زال جيمس يعتبر أن التجربة الجزئية أصل المعرفة وأن التصورات ثانوية ولكنه أراد أن يخفف من تلك الهوة التى يعقلها التجريبيون بين المدرك الحسى والتصور العقلى . يرى جيمس أن المدرك الحسى والتصور لا ينفصلان . حقاً تستخلص الكليات من المدركات الحسية لكنها يمكن أن تغوص فيها وتختلط بها من جديد . ويوجد حقاً فرق بينهما هو أن المدركات متصلة ، وأن التصورات منفصلة . إن المدركات كالنهر الجارى المتصل وجود مباشر ينطوى على الديمومة ، ولا توجد حدود فاصلة بينها كما أنه لا توجد حدود فاصلة في مجال الرؤية .

أما التصورات فهي منفصلة ، وليست منفصلة في وجودها لأن فعل التصور من تدفق الوجدان ، ولكنها منفصلة بمعنى أن لكل منها معنى مستقلاً ودلالة خاصة تميزه عن سائر التصورات . ومن لا يستطيع التمييز بين تصور وآخر فإن التصورات لم تتكون بعد في ذهنه بوضوح .

ثم يرى جيمس بعد هذه الملاحظة أن التصور والمدرك متداخلان متشابكان بالرغم من أنهما مختلفان : ولا ينتفع الإنسان بواحد منهما دون الآخر وإنما يحتاج إليهما معا كما يحتاج لرجليه ليمشى بهما معاً .

يقول جيمس ليعلن انفصاله عن لوك في الخط من قدر الكليات : « مثل الإنسان في العالم المحسوس كمثل السمكة في البحر ، والهواء من فوق سطح هذا البحر . يعيش السمك في البحر ولا حياة له بدونه ؛ يأكل منه ويغتذى . ولكنه يصعد إلى سطح البحر من وقت لآخر ليستنشق الهواء ثم يعود ثانية لبيئته المائية — وهو لا يستنشق كل الهواء بل يستخرج منه العنصر الصالح له والمفيد لحياته وهو الأوكسيجين ، ويترك ما في الهواء من عناصر أخرى . يستنشق الأوكسيجين ثم يعود إلى عالمه المائى ليستعيد حياته فقد أفاده ذلك وأعانه على بقاءه .

مثل الإنسان مع الكليات وحاجته إليها كحاجة السمك إلى هواء البحر فالمجردات ضرورية من حيث إن الإنسان يفيد منها في فهم المحسوس (١).

### جورج باركلي :

لقد أعجب ولم يهجم جيمس بفلسفة باركلي وقال عنه إنه برجماتي دقيق قبل أن ينشأ المذهب البرجماتي في النادي الميتافيزيقي . ولم ينس جيمس رأى باركلي في تعريف المادة والجوهر المادي . بل استشهد به وهو يطبق بعض المشاكل الفلسفية على المنهج البرجماتي . أشاد بباركلي حين رأى عدم وجود شيء اسمه الجوهر المادي وراء مجموعة الإدراكات الحسية ، وحين اعتقد أننا لا نعرف غير إحساساتنا باللون والشكل والصلابة وما إليها ، وأن الفرق بين وجود المادة وعدم وجودها هو وجود هذه الإحساسات . وانتهى جيمس من ذلك إلى توضيح فكرة باركلي بقوله إن باركلي لم ينكر وجود المادة ولكنه قال لنا هم تتركب (٢) ؟

### ديفيد هيوم :

رأى جيمس — كما يرى تاريخ الفلسفة حتى اليوم — أن هيوم وصل بالمذهب التجريبي إلى قمته . وأعجب جيمس به كل الإعجاب ؛ ولكنه لم يجد مانعاً أن يثور عليه في بعض المواضع بل كان يحس جيمس أن عليه رسالة هي أن يصحح فلسفة هيوم لكي يحفظ المذهب التجريبي من الضياع فقد كانت فلسفة الشك والتشكك مهدده بالثورة على موجة الإنكار .

لقد أعجب جيمس برأى هيوم في العلية واستغله في كثير من مواضع فلسفته الخاصة وأخذ غنة اعتداده الحاسم بالتجربة والمعرفة الجزئية المحدودة بالحواس كما أخذ عنه إنكاره للمبادئ العقلية الفطرية ، وأشاد إشادة كبرى بإنكاره للمعرفة الكلية الضرورية وأخذها منه واستغله في فلسفته ، وإنكاره للجوهر الروحي . وأنكر جيمس من هيوم ثلاث مسائل رئيسية : موقف الشك ، طبيعة العقل ، رأيه في العلاقات .

W. James, Pragmatism, p. 129.

(١)

Ibid., p.p. 89-90.

(٢)



إنكار الشك : . كان جيمس مخلصاً شديداً التمسك بالتجربة مثل هيوم .  
والخلاف بينهما هو أن هيوم حين يعجز عن استجواب التجربة في فكرة ما ينكرها  
بينما حين تعجز التجربة - وحتى العقل - عن إجابة جيمس لأسئلته لا يئأس .  
ولا يبدأ يشك أو ينكر ، وإنما يتحايل على التجربة : ينتظر التجربة المستقبلية  
إن لم تسعفه التجربة الراهنة ، أو يكشف نوعاً جديداً من التجربة أغفلها  
التجريبيون هو التجربة الدينية أو التجربة السيكلوجية وأنه لا فرق بينها وبين  
التجربة الفيزيائية ونحو ذلك . حين أصر هيوم على إنكار « عقل » أو « نفس »  
أو « روح » وأنه لا يوجد غير الآثار الحسية والأفكار يستعين جيمس على إثبات  
شعور إنسانى موحد بالإدراك المباشر للفهم المشترك وبنفس الطريقة يثبت أن  
عالمًا ماديًا مستقلاً لا بد أن يكون موجوداً .

ويرى جيمس أن التجربة أو العقل حين لا يسعفانى بأجوبة شافية عن:  
الإيمان والاعتقاد فلا بد من البحث عن مصدر ثالث للمعرفة فيوجد في الوجدان  
والإرادة .

ورأى جيمس في وظيفة الوجدان والإرادة كمصدر لبعض المعارف يؤدي  
بنا إلى رأى آخر .

طبيعة العقل : كان جيمس قد اعترض على لوك في قوله إن العقل مجرد  
مستقبل للانطباعات الحسية وقال إن في العقل فاعليه وتلقائية . وليست هذه  
هى الصفة الوحيدة المميزة لطبيعة العقل ، بل يرى جيمس أيضاً أن العقل مهم  
بمعرفة ما حوله ومشغول بفهم التجربة . واستعان بهذه الفكرة ليرفع الشك ويقر  
الاعتقاد . قال جيمس إن العقل يحاول ما يأمل أن يكون صادقاً وذلك أمر  
مبشروع لا يمكن تجنبه . من طبيعة العقل أن يحاول شيئاً ؛ ومحاولاته أن يقترح  
أفكاراً تتلاءم مع ما للكائن الحى من ميول وحاجات وأهداف يود أن يحققها  
في البيئة . إن لم يحاول العقل شيئاً فلن يكون شيئاً . وحين يحاول محاولاته الفكرية  
فإن المرجح الأخير للصدق هو تأييد التجربة أو إنكارها . كيف يحاول العقل  
محاولاته ؟ جواب جيمس : أنها الإرادة . فلم تعد الإرادة عند جيمس ذلك

الجهد الذى يدفع الجسم إلى تنفيذ حركات معينة ، ولكنها ذلك الجهد الذى يحفز العقل على إبراز فكرة وتقديرها وإعلائها على بقية الأفكار . هذه هى فكرة جيمس الجديدة فى الأخلاق والى حلّها بها مشكلة حرية الإرادة الإنسانية . وجوهرها إعلاء سلطان الإرادة على سلطان العقل خاصة فى مسائل الدين والأخلاق<sup>(١)</sup> .

العلاقات الخارجية : ولم يعجب جيمس برأى هيوم فى العلاقات . كما لم يعجبه رأيه فى موقف الشك وموقفه من طبيعة العقل . لقد تصور هيوم العالم منفصل الأجزاء مستقل بعضها عن بعض وأن العالم عبارة عن وقائع متباينة وحوادث مختلفة متعددة قد لا يربط بينها رباط .

ورد جيمس على ذلك برأيه المسمى « بالتجريبية الأصيلة » قال فيه إن الانفصال المطلق بين أجزاء العالم ليس القاعدة الأساسية . والحق أن الاتصال والانفصال موجودان وتدعمهما التجربة . وافق جيمس على قول هيوم إن الاتصال المطلق الضرورى غير موجود ، ولكنه زاد عليه قوله إن الانفصال المطلق غير موجود أيضاً . العالم منفصل الأجزاء لكن قد يرتبط بعضها ببعض يوماً ما بل يوجد ما يؤكد وجود وحدة من نوع ما وجوداً تجريبياً .

ويعلن جيمس نظرية جديدة أخرى يرى فيها أن العلاقات بين الوقائع إنما هى وقائع ويمكن أن تدرك إدراكاً حسيّاً كما تدرك الوقائع الجزئية تماماً .

چون مل :

شعر ولیم جیمس بمشاركة وجدانية عميقة لچون مل إذ رأى أن يتفق معه فى ميوله واتجاهاته ، أو قد يكون لچون مل أثر كبير فى توجيه جيمس لهذه الاتجاهات . كان چون مل مهتماً بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ومعتقداً بالأثر الضخم الذى تحدثه تربية النشء وبأن الأفكار كفيّلة بتغيير طباع الناس : ولكى يصل مل إلى الإصلاح يهتم بالمعرفة فرأى أن بحثها أمر ضرورى : تلك

المعرفة التي تنطوي على معرفة الغايات الصحيحة ووسائل بلوغها . وكان اتجاه مل علمياً خالصاً فقد دافع عن المنهج العلمي ، ودعم المنهج الاستقرائي بكل قواه ، واعتقد أن العمل الرئيسي هو تطبيق تطورات العلوم الطبيعية على العلوم العقلية والخلقية : علم النفس والأخلاق والاقتصاد والسياسة والتاريخ .

كانت هذه الميول والاتجاهات هي نفسها ميول جيمس التي تلقاها في صباه وجاء مل ليدعمها ويؤكددها . وليس من قبيل المصادفة أن يهدي وليم جيمس أضخم كتاب فلسفي نشره إلى جون ستوارت مل — هو كتاب (براجماتزم) .

وأجد فكرتين أصيلتين في فلسفة جيمس هما ما يقابلها عند ميل — هما : إنكار مل للحقائق القبلية ، وتصور مل للجبرية والحرية في الأخلاق .

إنكار الحقائق القبلية : أرى أن جيمس استعان برأى جون مل في إنكار بعض آراء كنط في المعرفة القبلية أو الضرورية الكلية .

رأى مل أنه لا توجد حقائق فطرية في العقل أو حقائق قبلية مستقلة عن التجربة . وأن كل المعارف مستمدة من التجربة . وأن القوانين العامة ( مثل اطراد الحوادث في الطبيعة والعلية ) نتائج تجريبية أو تعميمات استقرائية وليست قوانين ضرورية بحال . وكذلك كل مبادئ المنطق والرياضة مشتقة من التجربة .

وحين نقول إن نتائج العلوم الاستنباطية ضرورية نقصد بذلك أن النتائج ناتجة بالضرورة عن طائفة من التعريفات والبديهيات . ولكن هذه التعريفات أفكار تجريبية وهذه البديهيات تعميمات وصلنا إليها بإحساساتنا وشعورنا الداخلي .

ويرى مل أن نتائج العلوم — استنباطية واستقرائية — شرطية لا مطلقة إذ تقوم كلها على مجموعة من الفروض ؛ وهي أمور تقريبية لا مؤكدة .

وسرى أن فلسفة جيمس هجوم على المذاهب العقلية والترنسندنالية وإنكار للمعارف الثابتة المطلقة ودفاع عن المذاهب التجريبية الجزئية . ولقد قال جيمس « . . . لا شيء في الذهن ليس مديناً في دلالة أو إشارته للوجود أو في صدقه للتجربة » .

ويقول جيمس أيضاً : « يدير البرجماتي ظهوره للتجريد والحلول الكلامية والأسباب القبلية والمبادئ الثابتة والمذاهب المغلقة ، ويلتفت إلى المحسوس والدقيق والوقائع وإلى العمل »<sup>(١)</sup> .

حرية الإرادة : لحن مل نظرية كاملة في الأخلاق سأجتزئ منها رأيي في الجبرية والحرية لصلتها بتفكير جيمس . يرى مل أن من الخطأ أن نعرف الجبرية بأنها الإجبار أو الاضطرار ، وأن من الخطأ أيضاً أن نعرف الضرورة بأنها تنطوي على أن سلطة خارجية على الإنسان تحتم عليه نوعاً معيناً من السلوك . إن المعنى الدقيق للجبرية تتابع ثابت مطلق للحوادث لا يتغير ولا يتوقف على شرط معين ، أو أنه إذا توفرت دوافع معينة وظروف معينة أمكن التنبؤ بالسلوك . واستطاع مل أن يصل من هذا التعريف للجبرية إلى القول بأن الإنسان مجبر حر في وقت واحد . إن الإنسان مجبر في سلوكه بمعنى أن السلوك ينشأ عن سلسلة منظمة من العلل هي دوافعه الطبيعية وظروفه المحيطة به ، إذ لا توجد أفعال بلا علل . والإنسان مختار في سلوكه بمعنى أن ميوله ورغباته هو — لا سلطة خارجية عليه — هي التي توجه أعماله ؛ فإذا رغب الإنسان في تغيير سلوكه استطاع . ولكن مل يختم رأيه بقوله إن هذه الرغبة خاضعة لعلية داخلية .

أنكر جيمس طرفاً من هذه الرأي وقبل الطرف الآخر منه : أنكر الجبرية السيكلوجية من مل ، ولكنه قبل تعريفه للجبرية وأخذ عنه واستطاع أن يضيف إليه أن الإنسان حر مختار ذلك لأن الصدفة — لا الحتمية — هي المقولة الأساسية في الطبيعة ، ويمكن للإنسان أن يخلق في البيئة من الظروف والدوافع التي تهيج له فعل ما يرغب فيه .

### نظرية التطور البيولوجي :

لنظرية التطور أثر لا يمكن إغفاله لظهور الحركة البرجماتية كلها وليس لحركة جيمس وحده . ولقد ظهرت النظرية في منتصف القرن الماضي فأحدثت آثارها الكبرى في علم الحياة وتصور الإنسان وتصور الكون وتصور القيم الروحية



ولقد أثرت النظرية — فيمن أثرت — على بيرس مؤسس المذهب البرجماتي وجيمس وديوى على السواء .

ويمكن القول بأن تأثير التطور كان أعم وأشمل من تأثير التجريبية الإنجليزية في الفلسفة البرجماتية ذلك أن جيمس تأثر بالمدرسة الإنجليزية دون بيرس أو ديوى ، فهذان المفكران تأثرا بالفلسفة الألمانية ، أما نظرية التطور فقد أثرت في الثلاثة جميعاً .

ونظرية التطور التي عرفها وليم جيمس هي نظرية دارون<sup>(١)</sup> لا نظرية لامارك أو سبنسر . ولقد قلت في تاريخ حياته إنه دخل جامعة هارفارد سنة ١٨٦١ ؛ ولم يكن قد مرّ على نشر (أصل الأنواع) إلا سنتان لكنه كان قد أحدث هزات عنيفة في كل الأوساط الفكرية — علمية كانت أو فلسفية . وأبرز ما تضمنته هذه الهزات الاعتقاد بأن الإنسان لم ينزل من أصل إلهي وأنه لا يرتفع عن المستوى الحيواني ، والاعتقاد بأن الدين والعقائد أمور ينبغي ألا تحتل جانباً من تقدير الإنسان .

ومن الميسور أن أجد آراء برجماتية لدى جيمس لها أصول ومصادر عند دارون . قال دارون مثلاً إن القانون الأساسي في العالم هو التغير والصيرورة والانتقال المستمر لكي يتلاءم الكائن الحي مع البيئة . وإن الثبات في الأنواع أمر يجب القضاء على تصوره .

فجاء جيمس ليقول في نظرية المعرفة إن الحقيقة ليست بخالدة ولا ثابتة وليست بالشئ الذي ينبغي علينا تأمله ولكنها شئ محسوس جزئي وموجود في عالمنا الأرضي وإنها في تغير وتطور حسب إفادتنا منها وإن الإنسان هو الذي يصف الفكرة بالصدق بجهده وبحته وليست صفة لازمة فيها .

نجد عند دارون فكرة التغير العرضي ، والاختلافات التي تطرأ على الأنواع ولا علة لذلك ؛ وإنما حدثت تلك التغيرات بالصدفة ، وإنه لا تدبير ولا غاية في

(١) أظهر جيمس إعجابه بدارون وقال إنه النموذج للعالم التجريبي الدقيق . ويقال إنه كتب مقالات كثيرة سنة ٦٨ يمتدح فيها دارون .

هذا التطور ، وإن الأمن عنصر هام في إتمام تلك التغيرات .  
فجاء جيمس لينكر ما هو خالد بل لينكر الخلود في الله — أقصد اعتقاد  
جيمس بأن الله ذاته خاضع للزمن وأن أى إنسان يصير على أن العقل الخالق  
لا اعتبار عنده للزمن لن أجيب عليه . . . أليس العقل الذى لا يعرف حدوداً  
للزمن خرافة ألقيت على عواهنها ؟ « (١) .

ولقد استغل جيمس رأى دارون في الغاية والتدبير حين أراد تطبيق المنهج  
البرجمائى على مسأله التدبير في الكون . يقول جيمس بعد أن ردد القول التقليدى  
بأن الغائية قائمة في الطبيعة :

« . . . ولكن نظرية دارون في التطور زعزعت هذا القول إذ رأى دارون  
أن الصدفة موجودة في الحوادث وأنها نتائج مناسبة إذا توفر الزمن الكافى . ورأى  
دارون أيضاً أن أشياء كثيرة في الطبيعة تنقرض نتيجة عدم مناسبتها للوجود .  
ثم أحصى عدداً من الأشياء التى لو صح أنها خاضعة لتدبير لكان تدبير  
شيطان لا تدبير إله « (٢) .

ولفكرة التكيف والملاءمة للبيئة أثر هائل على فلسفة جيمس الستمولوجية  
فاعتقد جيمس أن الصدق متطور وأن وظيفة الفكر هى تحقيق تكيف الإنسان  
مع العالم الذى لا يظل على حال واحدة أبداً ، كما اعتقد أن النظرية لا بد أن  
تتطور معناها ويختلف تبعاً لتطور وظائفها ولكى تكون النظرية صادقة ينبغى  
أن تجد مجال تطبيقها في عالم التجربة . ولا بد أن يتغير التطبيق ما دام تغيير التجربة  
أمراً محققاً .

ولا نزاع في أن النظرة البيولوجية إلى الإنسان ولاستبعاد الخفاء والقداسة التى  
أضيفت إلى العقل أثر في نظرية جيمس في الشعور حين قال إن الشعور  
ككائن مستقل أو وجود جوهري أمر منكور فما الشعور إلا وظيفة .

W. James, Will to Believe, p, 63 (١)

W. James, pragmatism, p. 111. (٢)

## الاتجاه الروحي عند جيمس

إذا أريد فهم التطور العقلي لجيمس فهماً دقيقاً فينبغي ألا نقف عند تأثيره بالمدرسة التجريبية الإنجليزية أو التيار التجريبي بوجه عام ، بل يجب أن نضيف تياراً آخر هو التيار الروحي أو الديني . كان جيمس يحكم نشأته ميالاً إلى الإيمان والاعتقاد واتجه إلى تبرير ذلك تبريراً فلسفياً . وشعر أن تلك رسالته وأراد تحقيقها وظل ساعياً حتى مات . ولم يعتقد جيمس أنه انحرف عن الاتجاه التجريبي بالخوض في الدين وإنما اعتقد أنه يوسع من نطاق التجربة ، ويعدل من مفهوم الاتجاه حتى لا يكون إنكاره للدين ثغرة وفساداً . رأى أن الاعتقاد الديني يمكن أن يقوم على التجربة — يقصد التجربة السيكولوجية والتجربة الدينية وهما نوعان من التجربة أغفلتهما المدرسة التقليدية .

ويمكن فهم التيارات الروحية التي سيطرت على ذهن جيمس إذا تناولت نقطاً أربعة :

أثر هنري جيمس ، ومدرسة الفهم المشترك ، والأبحاث النفسانية ، وفلسفة رينوفييه .

هنري جيمس : تأثر وليم بتدين أبيه هنري تأثيراً كبيراً . ولقد كانت نشأة هنري دينية ويقال إن أعدى أعدائه الشك أو الإنكار وأحب الأشياء إلى نفسه الإيمان والاعتقاد . ولم يكن هنري تابعاً للعقيدة البيوريتانية السائدة في نيوانجلند في ذلك الوقت ، وإنما كان متأثراً بنزعة روحية سادت العصر كله وكانت تسمى هذه النزعة بالمذهب الترنسندنتالي — ولقد وصل هذا المذهب إلى نيوانجلند من ألمانيا ممزوجاً بالاتجاه الرومانتيكي في الأدب والفن ، وأول من عبر عن هذا المذهب أو ذاك الاتجاه كبار الأدباء مثل جوته وكارلايل ، ووردزورث وإمرسون<sup>(١)</sup> .

( ١ ) ينبغي عدم الخلط بين المذهب الترنسندنتالي ذي الصبغة العاطفية والروحية وبين المذهب الترنسندنتالي ذي الصبغة المنطقية والميتافيزيقية . فالمذهب وصل إلى أمريكا بالصبغة الأولى قبل أن تصل آراء كمنط وهجل وبرادلي .

والمذهب الترنسندنثالى دعوة إلى الدين الحر ينكر ربوبية المسيح وفكرة الخلاص عن طريق مساعدة الله للعباد ؛ وإنما يدعو إلى الإصلاح الاجتماعى والخدمات الاجتماعية ويقدر قيمة العواطف الإنسانية ويرى أن فى تركيب الإنسان عنصراً خارقاً للطبيعة ويؤمن الإنسان بفضل هذا العنصر بوجود قوى روحية فى الكون . ولا يتحتم أن يكون المقصود بالقوى الروحية وجود الله وإنما قد يكون المقصود بها إدراك قوى غير مادية تفعل فى الطبيعة ؛ ومظهر ذلك ما نراه من جلال الحياة ، وعظمة ما فى العالم من نظام ، وإدراك ما بالعقل من قانون خلقى .

تأثر هنرى بذلك المذهب بل كان صديقاً لحامل دعوته فى نيويانجلند — وهو إمرسون<sup>(١)</sup> .

وكان إمرسون أديباً وفيلسوفاً وله آراء تجدها بذور الفكر البرجمائى ؛ فلا شك أن هنرى لقنها لابنه وليم . كان يعتقد إمرسون بالمعجزات وأن فى مقدور العقل الإنسانى أن يصل إلى مجال خارق للطبيعة يجد فيه الوحي والإلهام . وكان يرى أن الشرط الأول لتحصيل الحقيقة هو استخدامهما إذ لا بد أن يُردَّ علم الإنسان إلى عمل وأن العمل كمال الفكر . وكان يقول إن العالم مكون من أجزاء متباينة ومع ذلك يضمها نوع من الوحدة . ولقد قدر إمرسون المعرفة الحسية وقال إنها معرفة صحيحة — قد تكون معرضة للشك أحياناً ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتقاد بأن العالم الطبيعى موجود وليس وهماً .

وكان يرى أن الذهن مفتاح لفهم أسرار الكون وأن لقوانين الطبيعة ما يقابلها فى الذهن أى توجد موازاة كاملة بين قوانين الطبيعة وقوانين الفكر . ولقد وصل من ذلك إلى الاعتقاد بوجود عقل كلى أو روح خالقة كائنة وراء ظواهر الطبيعة قال إن الطبيعة تنطق بالروح بل تفترض المطلق وما العالم المادى سوى تعبير رمزى عن عالم روحى حقيقى .

(١) تعرف هنرى بإمرسون فى نفس السنة التى ولد فيها وليم فقد دعاه هنرى مرة لزيارته فى منزله فتصادف أن يصل إلى المنزل وقت ولادة وليم .



ولم يكتف جيمس بأن عرف فلسفة إمرسون عن أبيه ولكنه درسه دراسة خاصة وهو يؤلف صنوف التجربة الدينية مما يدفع إلى القول بالتأثير الكبير الذى أحدثه إمرسون فى نفس جيمس .

سويدنبرج ( ١٦٨٨ - ١٧٧٢ ) :

يقال إن هنرى - إلى جانب صداقته لإمرسون - تأثر بمفكر لاهوتى آخر نشرت كتبه فى سنة ١٨٣٦ هو عمانوئيل سويدنبرج .

كان سويدنبرج من علماء اللاهوت وأصحاب الرؤى وقال عن نفسه إن الله أغرقه فى حالات طاف فى أثنائها بالسموات والنار ورأى ما لم يره الناس . وكان مذهبه أفلاطونياً محدثاً : يعتقد أن الإنسان عاجز عن بلوغ الحقيقة بوسائله الحسية وأنه لا يتم بلوغها إلا بكشف أو بالهام صوفى . ويؤدى هذا الإلهام بالإنسان إلى عوالم أخرى غير هذا العالم ويدرك أن هذا العالم ما هو إلا نقطة مادية فى محيط روحى هائل أنشأه الله ويمجرى فيه الملائكة والشياعلمين والناس .

ومن تحصل الحاصل أن نقول إن دوافع جيمس إلى التدين والتصوف ناشئة عن هذه البيئة الروحية التى عاشت فيها أسرة هنرى .

مدرسة الفهم المشترك<sup>(١)</sup> : حين دخل جيمس جامعة هارفارد سنة ١٨٦١

وجد تيارين متعارضين من التيارات الفكرية : التيار التجريبي العلمى وكان أقوى نفوذاً وتأثيراً وسلطاناً على العقول ، خاصة وقد مضى سنتان على نشر أصل الأنواع ، وانطوى هذا التيار على إنكار الدين والإيمان وإهمال العقائد الروحية . أما التيار الفكرى الآخر فهو مذاهب عقلية تنقذ الدين . ولاحظ جيمس أن المدارس التى دافعت عن الدين كانت ضعيفة الأثر لا خطورة لها . وأبرز تلك

( ١ ) مؤسسو هذه المدرسة هم توماس ريد ، ودوجلاس ستوارت ، وتوماس براون . وأهم أتباعهم فى سكوتلاند ولين هاملتون الذى انحرف عنهم قليلاً ووقع فى حبال كنت : الأمر الذى أدى بـجون مل إلى الثورة عليه ووضع كتاباً يتضمن اعتراضاته عليه ؛ وفكتور كوزان فى فرنسا ؛ وجيمس ماكوش McCosh فى أمريكا .

المدارس في أيام جيمس مدرستان : مدرسة الفهم المشترك والمثالية الألمانية .  
وسرى موقف جيمس من المثالية الألمانية في الفقرة التالية .

جاءت مدرسة الفهم المشترك رد فعل لتجريبية هيوم وموجة الشك التي  
انطوى عليها مذهبه . ولكنها لم تكن بذات مذهب مستقل وكانت انتخابية  
أكثر منها مجددة .

ويمكن تلخيص فكرتهم العامة في كلمات : يحمل الإحساس في طياته  
اعتقاداً مباشراً بوجود مستقل للعالم المادى وإن هذا اليقين المباشر يمدنا بمقياس  
الصدق . وتقوم كل البراهين على هذه المعرفة المباشرة - وأساس هذه المعرفة  
المباشرة طائفة من المبادئ البينة بذاتها وليست محتاجة لتحليل . والسبب في  
ذلك أنها مقبولة لدى الفهم المشترك .

ويمكن إثبات النفس الإنسانية والذاتية الشخصية والعالم الخارجى على أساس  
اقتناع الفهم المشترك بها اقتناعاً بديهياً مباشراً .

ولم يوجه زعماء هذه المدرسة اهتماماً خاصاً بالدين وإنما اهتموا بالقضاء على  
الشك وعلى زعزعة العقائد بوجه عام - ولذلك نظر جيمس إليها نظرة هزيلة  
وشعر أن عليه واجباً هو إقرار العقيدة الدينية بطريقة مقنعة .

جمعية البحوث النفسانية : جمعية نشأت في إنجلترا سنة ١٨٨٢ ضمت  
بعض كبار علماء النفس<sup>(١)</sup> وكان غرضهم القيام بتجارب علمية لاختبار  
التنويم وفكرة الوسطاء والقدرة على رؤية الأشياء غير المنظورة . وكان غرضهم  
كذلك جمع شواهد تتعلق بظهور العفاريات والمنازل المأهولة بالجن . وانضم  
جيمس إلى تلك الجمعية سنة إنشائها وأصبح عضواً فيها وأسس لها فرعاً في أمريكا  
سنة ١٨٨٤ وظل عضواً عاملاً بها حتى مات . ولقد أفادته بحوثه مع زملائه إفادة  
جمة في الوصول إلى نتائج علمية تخدم أغراضه في التوفيق بين العلم والدين .  
ولعل هذه الجمعية كانت الأساس المتين الذى جعل لجيمس شهرة في الموضوعات  
الصوفية . وصلت الجمعية فيما وصلت إليه إلى وجود النفس المستورة Subliminal

(١) أهم أعضاء الجمعية بيندجنريك ، هودجسون ، ميرز وغيرهم .

فجعل منها قاعدة لوجود عنصر غير فسيولوجى فى الطبيعة الإنسانية يمكن أن يؤدى إلى اتجاه الإنسان نحو الله .

واكتشف جيمس — كعضو عامل فى الجمعية — وجود مناطق خفية من الشعور يمكن للإنسان عن طريقها معرفة عالم غير منظور . وأصبح هذا العالم جوهر الدين فى فلسفته الدينية كما سترى .

### جيمس ورينفوييه :

يذكر كثيراً أن رينوفوييه هو الطبيب الذى عالج جيمس من مرضه ، ولم يكن رينوفوييه محترفاً لمهنة الطب ولكنه كان فيلسوفاً . وترجع قصة العلاقة بينهما إلى أحوال جيمس المرضية . لقد عنى جيمس بالتصوف وبعلم النفس المرضى . ومن دوافع عنايته بهما أنه كان مريضاً أمراضاً مستعصية ولم يجد علاجه إلا بطريق التصوف وحين تعمق فى دراسات علم النفس المرضى .

يقال إن جيمس كان ضعيف البنية أصابته علل كثيرة فى حياته ؛ فقد أصيب بمرض فى عينيه مرتين فى حياته ، وشكا فى سنة ١٨٦٧ من الأرق وآلام الظهر وعسر الهضم ، وظل يعالج نفسه منها مدة خمس سنين ، كما أصيب بمرض فى القلب فى سنة ١٨٩٨ وبمتاعب عصبية ظلت ملازمة له حتى آخر حياته . ويقال أيضاً إنه كان مصاباً بالنوراستانيا كما أنه كان عنده استعداد وراثى للملانخوليا ومع أنه حاربه وانتصر عليه إلا أنه لم يقض عليه تماماً .

والواضح أن السبب الأساسى فى معظم هذه الأمراض هو إسرافه الشديد فى الجهد العقلى العنيف الذى كان يبذله فى تأملاته واطلاعاته وكتابات للمحاضرات والمقالات والكتب .

ويهمنا أن نقف وقفة عند مرض أصابه سنة ١٨٧٠ فله دلالاته الفلسفية كما سترى . أصيب جيمس فى هذه السنة بمرض الخوف من المرض من كثرة ما حل به من متاعب : وهذا المرض أقعده عن العمل حيناً ، وأورثه التشاؤم حيناً آخر ، فاضطرته هذه الحالة إلى الوحدة والعزلة عن الناس مما زاد فى إغراقه

في التأمل النفسي والتفكير في أمراضه ، الأمر الذي ضاعف من عله .  
ويقال إنه في غمرة هذه التأملات فكر في مشاكل خلقية ، إذ أدى به  
اضطرابه وعدم استطاعته التخلص من الخوف والتخليط أن فكر في الجبرية  
والحرية . تساءل عما إذا كانت ميولنا تساعدنا على فعل أفعال خلقية وعما إذا  
كانت تقف في سبيل إيماننا بالأخلاق عوائق وأهمها وجود الشر في العالم .  
وكان يعتقد — وهو في هذه الحالة المرضية — أن العالم كله شرفهـل يستطيع  
الإنسان أن ينتصر عليه ؛ وإذا كان الجواب بالإيجاب فلا بد من قوة الإرادة .  
ولكن هل لنا إرادات حرة وينبغي ملاحظة أن التيار العلمي السائد كان الجبرية  
والحتمية في الفيزياء والفسيوأوجيا مما زاد في أزمة جيمس .

ويقول لنا جيمس نفسه إنه لم يستطع التخلص من أزماته إلا عن طريق  
قراءته لشارل رينوفييه . الحقيقة أن لهذا الفيلسوف الفرنسي أثراً لا ينكر على  
جيمس فقد أرشده إلى آراء في الدين والأخلاق أبلّته من مرضه بل واستغلها  
في « نظريته الإرادية » ؛ كما أن له أثراً على توجيه جيمس في فلسفة التعدد .

شارل رينوفييه Renouvier ( ١٨١٨ — ١٩٠٣ ) :

قرأ جيمس عن رينوفييه رأياً في الاعتقاد يرى فيه أن الاعتقاد ليس شيئاً إذا  
لم يكن مدعماً ، وليس العقل هو الذي يدعم الاعتقاد . ولكن لا بد أن يأتي  
الاعتقاد لإرادة فيه . وحين لا يسعفنا المنطق أو التجربة في تبرير الاعتقاد .

( ١ ) سمي رينوفييه مذهبه « بالنقدية الجديدة » Neo. Criticism ؛ وهو تابع لكنط في  
بعض الآراء وذاقد له في بعض الآراء ، لكنه منكر للمذاهب الوضعية والروحية التقليدية . رأى  
رينوفييه أننا لا نعرف سوى الظواهر ، وأنه لا يوجد شيء في ذاته ؛ لكنه لم ير رأى الإنجليز في أن  
الظواهر منفصلة بعضها عن بعض انفصالا مطلقاً وإنما توجد قوانين عقلية لتوحد بين الظواهر . إن  
العالم متعدد الأجزاء لكن تشمله وحدة في نهاية الأمر . ولقد أنكر رينوفييه التصور اللانهائي للعالم :  
فرأى أن اللانهاية فكرة متناقضة من الناحيتين المنطقية والتجريبية . ويجب أن يكون العالم محدوداً يجرى  
عليه العد والحساب — وهو محدود بالزمان والمكان والعلية .

ويرى أيضاً أن الانفصال مبدأ ضروري وليس الاتصال كما يرى الرياضيون ودارون معاً .  
ومعنى ذلك في رأيه وجود بدايات بدون علل في العالم لأن ذلك يمهد له الطريق لحرية الإرادة .



وحين نرى حاجة عملية ملحة للاعتقاد يجب علينا أن نعتقد لاعتبارات دينية وخلقية . لكي تكون لنا أخلاق لا بد أن نصادر على عقائد ولكي تكون لنا عقائد يجب أن نصادر على قيام أخلاق ، وما يخلصنا من هذا الدور هو اعتبار الإرادة — في هذا المجال — فوق العقل — فالإرادة هي التي تخلق الاعتقاد . وليست الإرادة فعلا يوجه البدن إلى سلوك معين وإنما هي فعل — يظهر في صورة انتباه — يؤثر على الأفكار : حين تبقى فكرة في الذهن بتأثير الإرادة فقد استبعدت الأفكار الأخرى المعارضة لها . وحينئذ تعبر هذه الفكرة — التي ثبتها الإرادة — عن نفسها في صورة فعل .

هذه هي نظرية رينوفييه في الاعتقاد التي صدرت في كتاب « مقالات في النقد العام » سنة ١٨٥٩ ، وقرأها جيمس في سنة ١٨٧٠ وشفى من مرضه ؛ واعتقد بحرية الإرادة بل إنه آمن بالنظرية واستغلها في فلسفته .

## الاتجاه المثالي الألماني

كانت توجد تيارات في إنجلترا والولايات المتحدة قبل أن ينتصف القرن التاسع عشر غير التيار التجريبي وأعني بها المثالية الترنسندننتالية في صورتها الفلسفية والمنطقية والميتافيزيقية .

ويقصد بالمثالية الترنسندننتالية فلسفة كنط وفشته وهجل .

ولقد انتقلت هذه المثالية إلى إنجلترا بعد أن نشر « سترلنج » كتابه « سرّ هيجل » في سنة ١٨٦٥ . وانتقلت إلى أمريكا بعد أن نشر « هاريس » فلسفة هيجل في مجلة الفلسفة التأملية سنة ١٨٦٨ وتبع هذين المفكرين فلاسفة آخرون نذكر في إنجلترا كيرد وجرين وبرادلي ، وفي الولايات المتحدة هوسن Howison وبالرورويس .

وكان موقف جيمس من الفلسفة المثالية لم يكن موقف الأخذ عنها بل موقف الصراع معها . ولم يأخذ جيمس من هذه الفلسفة سوى القليل النادر .  
لقد أنكر جيمس من كنط آراءه في الأفكار القبلية وفي القانون الخلقى وفي المعرفة الكلية الضرورية .

« لم ير جيمس بأساً من أن تكون المعرفة احتمالية أو شرطية . . لم ينكر أن للعقل فاعلية في المعرفة ، ولكن فاعليته في التجربة يسندها شيء من التجربة نفسها لا أن يكون شيئاً ترسندنتالياً فإن ذلك مناقض لميل جيمس العميق وهو المذهب التجريبي <sup>(١)</sup> .»

ومن الحق أن أقول إن جيمس أخذ عن كنط فكرة أساسية واحدة وجهته في فلسفته البرجماتية — هي حق العقل العملى في تقرير مصير بعض الحقائق كالحقائق الخلقية والدينية .

وكان موقف جيمس من هيغل وأتباعه المعاصرين له في إنجلترا والولايات المتحدة موقف النقد والهجوم والصراع ، أكثر منه موقف الأخذ عنهم . لقد كرس جيمس أكثر حياته الفلسفية للهجوم على فكرتين قالت بهما الفلسفة التأملية هما فكرة الوحدة المطلقة كتصور للكون ، وفكرة العلاقات الداخلية الضرورية بين أجزاء ما فى الكون . واستعان على ذلك بنظرية التعدد التى لقنها له رينوفييه وعلمها له فيلسوف ألماني آخر سأحدث عنه بعد قليل هو لوطزة Lotze .  
نادي بالمذهب التعددى وبنظرية تجريبية أصيلة فى العلاقات يصلح بهما التجريبية ويهاجم بها فلسفة برادلى ورويس .

ولم يمنع هذا جيمس من أن يتأثر بالفكر الألماني تأثيراً كبيراً — ولست أعنى بذلك فكر كنط وهيغل . ويتمثل الفكر الألماني الذى أخذ عنه جيمس فى فشر ولوطزة .

فشنر Fechner<sup>(١)</sup> (١٨٠١ - ١٨٨٧) :

قرأ وليم جيمس للعالم السيكولوجي الألماني فشنر رأياً ميتافيزيقياً لا أقول إنه أخذ عنه ، وإنما أقول إنه أرشده إلى جواز بحث العالم التجريبي في أمور روحية . أراد فشنر إثبات وجود الله من مجرد ملاحظاته الفيزيائية في العالم المادى . دلّ الفهم المشترك فشنر على أن لكل شىء صانعا : فلا بد من صانع صنع منزلى ولا بد أن يكون للعالم كله صانع كبير . ويتحرك الإنسان بفعل شعوره وإرادته وتتحرك الشمس والقمر والبحر والرياح بفعل شعور قوى وإرادة قوية . ولما كان للإنسان شعور فلا مانع من أن يكون للأرض شعور جمعى بل لا مانع من أن يكون للمجموعة الشمسية كلها شعور واسع فسيح . ومن هنا نصل إلى شعور عام مطلق للكون كله يسع كل ما فيه من قوى ويمكن أن نسميه الله<sup>(٢)</sup> .

لوطة Lotze<sup>(٣)</sup> (١٨١٧ - ١٨٨١) :

عند جيمس أفكار ثلاثة وجهه فيها لوطة هي : فاعلية العقل ، وتصور نقدى لفلسفة الظواهر ، ونظرية التعدد .

كان يعتقد لوطة أن الإنسان ليس مجرد مرآة للوقائع وليس العالم الخارجى كما يصلنا عن طريق الإدراك الحسى نسخة من الواقع وإنما فى عقولنا عنصر يضيف جديداً إلى إدراكنا للوقائع الحسية . ولعل توجيه هذه الفكرة من لوطة

(١) عرف جيمس فشنر لأول مرة حين قرأ كتابه عناصر علم النفس الفيزيائى الذى نشر سنة ١٨٦٠ ، ثم قرأ بعد ذلك نظريته فى العلاقة بين شدة المنبه وشدة الإحساس وله نقد على قانون فيبر - فشنر سجله فى مبادئ علم النفس ويفرد جيمس فصلا كاملا فى كتابه « الكون المتعدد » يعرض رأى فشنر فى الميتافيزيقا .

(٢) James, Pluralistic Universe pp. 150-153.

(٣) لوطة عالم فى الطب والفيزياء والفسولوجيا ومهتم بالفلسفة بل ودرسها فى جامعة ليهزج . سمي مذهبه ( الكنتية الجديدة ) وسماه أيضاً المثالية الغائية Teleological Idealism وفق بين مواندات ليبنتز ووحدة وجود سبنوزا ، وبين الواجدية والتعددية ، وبين الآلية والغائية . وله نظريات فى الآلية والغائية ووحدة الوجود والتعدد والعلاقات بين العقل والبدن ووجود أشياء فى ذاتها .

أثر في جيمس ودفعه إلى نقد لوك في طبيعة العقل وإلى نقد نظرية المطابقة التقليدية : مما استغله في نظرية المعرفة البرجماتية .

وكان يعتقد لوطزة أنه يوجد — وراء الظاهرات البدنية فينا — مبدأ الوحدة — ذلك المبدأ الذى يجبرنا على افتراض وجود روح غير مرئية وراء الحس متميزة عن البدن . ونجد في هذه الوحدة مبدأ الثبات في التغير والوحدة في الكثرة . وكان يعتقد لوطزة بأن صلة الروح بالبدن صلة تفاعل ولكنه رأى أن تفسير هذا التفاعل أمر عسير .

ورأى لوطزة رأياً في تصور الكون فهو تعددى على طريقة ليبنت : لا توجد وحدة مطلقة ، ولكن الأجزاء والعناصر المادية — في ماهيتها — قوى روحية .

قد يكون لهذه الآراء أثر في جيمس . ويذكر جيمس نفسه هذا الأثر ويعترف به — لقد أخذ من لوطزة ما تناسب مع الميل التجريبية فنبهه إلى أن العلاقات — مع انفصالها — قد تكون واصله بين الأشياء ، ونبهه إلى أن نظرية التفاعل بين العقل والبدن نظرية صحيحة . ونبهه أخيراً إلى الاعتقاد بعناصر روحية في هذا العالم أو وراءه .

### ( د ) مصادر الحركة البرجماتية

نريد أن نشير هنا إلى أن الحركة البرجماتية التي نادى بها وليم جيمس ليست كل الحركة البرجماتية ، وليس هو الواضع الأول ولا المؤسس الحقيقي لها ، كان المؤسس الحقيقي للمذهب البرجماتي هو تشارلز ساندرز بيرس C.S. Peirce ( ١٨٣٩ — ١٩١٤ ) أحد الفلاسفة الأمريكيين ولعله عملاقهم في الفلسفة المعاصرة .

كان الواضع الأول لكلمة براجماتزم ، وأول من أعلن البرجماتزم كمنهج فلسفى ، وجاء جيمس فأخذ عنه ، وجاء من ورائه جون ديوى وأدلى برأيه في



الحركة البرجماتية . كأن تلك الحركة — إذا أردنا أن نلتمس أصلها ومصدرها — ينبغي أن ترد إلى پيرس .

سندكر كلمة عن فلسفة پيرس البرجماتية ، ولكننا نسبق تلك الكلمة بموجز للتيارات الفكرية التي سادت دوائر هارفارد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ونوجز هذه التيارات في كلمات عن المنطق البرجماتي ، والحاجة إلى الاعتقاد ، والنادى الميتافيزيقي .

المنطق البرجماتي : لعل من تحصيل الحاصل أن نشير إلى أن الفكر الأمريكي تأثر بالمذهب التجريبي الإنجليزى وتعلق به . ونهج على أساسه . لكن خرج لنا في جامعة هارفارد فلاسفة نقديون وعلماء مثل پيرس العالم في الرياضة والكيمياء . أدرك ما في المنهج التجريبي التقليدى من عيوب ونقص ، وآلى على نفسه أن يصححه فاشتغل بالمنطق أما منطق أرسطو فقد قبل أقله واعترض على أكثره ، وكذلك منطق مل . وأما المنطق المثالى الذى وفد على القارة من ألمانيا — منطق كنت وهيجل — فإن پيرس انتهى فيه إلى عدم فائدته لإهماله التجربة والوقائع الجزئية ، وعجزه عبور الهوة بين مبادئ العقل الخالص وحوادث الطبيعة . فبدأ يشعر پيرس بحاجة إلى منهج يوضح الأفكار ويلقى ضوءاً على المشكلات الفلسفية ، دعامة التجربة الحسية ، وهامته أسس فكرية تضمن له البقاء . فكان المنهج البرجماتي — ومهد له بوضع أسس المنطق الرمزي ، أو ما سماه هو منطق العلامات .

الحاجة إلى الاعتقاد : حين وفدت على هارفارد تيارات هيوم ودارون وسبينسر ، وفدت بصورة قوامها الشك والإنكار — إنكار المعرفة ، وإنكار ما درج عليه الذوق الفطري من عقائد — فأحس الأمريكان بضرورة القيام بحركة اعتقادية تقاوم تلك الموجة . كان هيوم قد أنكر المعرفة الكلية الضرورية لأن معرفة الإنسان مقيدة بالانطباعات الحسية ونسخها الشاحبة الأفكار ، كما أنكر وجود نفس أو عقل ، ومن ثم فليس هنالك بالعقل مبادئ أو مقولات ، وزاد على ذلك إنكاره لأى مبادئ في العالم الطبيعي فلا عليية ولا حتمية ولا غاية .

وصاحبت فلسفة هيوم فلسفة أخرى لهربرت سبنسر هي اللأدرية فأطاحتها بكل اعتقاد ، ونشرا الشك في كل شيء . فقال سبنسر في لا أدريته إن عملية التفكير تفسير ، والتفسير أمر نسبي ، وكان يعتقد أن عملية المعرفة تتضمن ثلاثة عناصر : فكرة العلاقة ، والتشابه ، والاختلاف ، وما دامت المعرفة نسبية فهي جزئية محدودة ؛ ولكن العقل يربط الجزء بالكل ، والمحدود بالمطلق . يتصور العقل إذن وجود مطلق ولا نهائي ولكن لا بسبيل له إلى معرفته حيث لا يوجد ما يشابهه أو يباينه أو يتعلق به - نربط المحدود بالمطلق ، لكننا لا نربط المطلق بشيء ومن هنا قال إن المطلق موجود لكنه مجهول أو لا ندري عنه شيئاً .

لا بد وأن يقرر الفكر الأمريكي شيئاً جديداً حيال هذه الموجة الطاغية ، فقرر الدفاع عن الاعتقاد في مقابل الشك . ويقودنا ذلك إلى النادي الميتافيزيقي .

النادي الميتافيزيقي : اتفق جماعة من المفكرين خريجي هارفارد أن يجتمعوا في منزل أحدهم يتناقشون ويتباحثون في المشكلات الفلسفية ، يجمعهم أساس واحد هو التجريبية ، ومعها الاعتقاد . وكانوا ستة هم بيرس ، تشونسي ريت Wright نيقولا جون جريرين ، ولیم جيمس ، جون فسك Fiske ، وفرانسيس أبوت Abbot . وكانوا يجتمعون مرة في منزل بيرس ، ومرة في منزل جيمس ، وسموا أنفسهم بالنادي الميتافيزيقي ، سخرية من التيارات الفكرية السائدة .

كان بين المباحثات في النادي ذكر جريرين لتعريف بين Bain السيكلوجي الإنجليزى في الاعتقاد وإعجابه به . كان بين قد قال « إن الاعتقاد ما على أساسه يكون الإنسان مستعداً للسلوك ! » وتباحث أعضاء النادي في هذا التعريف وكان يسجل بيرس ما يراه ، وينقحه ويزيد عليه في منزله . وكانت هذه الملاحظات نواة المذهب البرجماتي ؛ إذ نشر بيرس مقالين بعنوان تثبيت الاعتقاد « في سنة ١٨٧٨ ، و « كيف نوضح أفكارنا » سنة ١٨٧٩ » ، كان الصياغة الأولى للمذهب البرجماتي ، وعنهما أخذ جيمس مذهبه ..

قال بيرس حينئذ إن الاعتقاد قاعدة للسلوك ، أو هو تكوين عادة مشعور بها ينتج عنها سلوك حر .

والفرق بين الاعتقاد ومجرد الادعاء أن ينتج عن الاعتقاد سلوك مطابق له حتماً ؛ ولا ينتج عن الادعاء سلوك ما . وأن الفرق بين اعتقاد وآخر حدوث سلوكين مختلفين : فإذا قلت إن لدى اعتقادين ، ورأيت أنه ينتج عنهما نوعان متشابهان من السلوك فإنني أحكم بأنهما اعتقاد واحد لا اثنان . إن تأسيس الاعتقاد يساوى تأسيس عادة للسلوك . إن العمل هو المحك الوحيد الذى يميز المعتقدات .

وينبه بيرس إلى أنه ليس من الضروري أن يتبع السلوك الاعتقاد فوراً وحالاً ، وإنما يجعلنا الاعتقاد فى حالة يجب معها أن نسلك بمقتضاها حين تحين الفرصة الملائمة ؛ أى أن فى الاعتقاد عنصراً شرطياً : إذا اتصف موقف ما بصفة ما فالرجل صاحب الاعتقاد المعين سيستجيب لهذا الموقف فى الوقت المناسب . هذا موجز لنظرية بيرس فى الاعتقاد الذى بنى على أساسه منطق جديد سُمى المنطق البرجماتى وهذا موجز للبيئة التى كانت سائدة فى دوائر هارفارد قبيل ولادة هذا المنطق ، والتى ساعدت على ظهوره .

### موجز لفلسفة بيرس البرجماتية :

بدأ بيرس حياته العلمية عالماً فى الطبيعة والكيمياء ، ثم تحول عنهما إلى الرياضيات فبرع فيها ، وربط بعد ذلك بين الرياضيات والمنطق فشارك فى تأسيس المنطق الرياضى بعد أن أضاف جديداً إلى المنطق القديم والحديث ، وله أبحاثه الجديدة فى القضايا وأنواعها والاستدلالات والبراهين وأصنافها ، بالإضافة إلى أنه اهتم اهتماماً بالغاً بالمنطق العلامات أو الرموز . وكان يطمح أن يقيم نسقاً فلسفياً ضخماً فأقام على أساس هذا المنطق ميتافيزيقا جديدة . تكلم بيرس إذن فى العلوم الطبيعية والرياضية وعلم المنطق والمعرفة والميتافيزيقا ، لكننا نوجز هنا فكرتين كانتا الأساس للحركة البرجماتية . نوجز نظرية المعنى ، والنظرية الواقعية .

### نظرية المعنى :

أعلن بيرس أن حركته الجديدة منهج أول الأمر وليست مذهباً ينطوى على

نظريات ونتائج معينة ، و إن كان أدى به هذا المنهج إلى نظرية ميتافيزيقية أصيلة فيما بعد . لقد عرف حركته الجديدة بأنها مبدأ في المنطق ، أو أنها قاعدة منطقية ، ونظرية في التحليل المنطقي ، وعرف منهجه كذلك أنه يوضح به معاني التصورات الذهنية ، وعنى بها تلك التصورات التي يمكن أن تدور على أساسها البراهين المتعلقة بالوقائع التجريبية .

وكان يقصد بيرس بالمنهج البرجماتي<sup>(١)</sup> كوسيلة لتوضيح الأفكار والتصورات أنه يضع لها تعريفات . فيكون منهجه إذن نظرية جديدة في التعريف . وإن كان قد أثر أن يسميها نظرية في المعنى .

وتقوم نظريته في التعريف على منطق العلامات أو السميوطيقا . والعلامة شيء يحل محل شيء آخر . ويرى أن الخاصة الأساسية لأي علامة أنها ثلاثية Triad : الرمز حد أول ، وموضوعه حد ثان ، وهناك مفسر interpretant هو الحد الثالث . ويهمننا ونحن نتابع نظرية التعريف الجديدة أن نقف على معنى المفسر عند بيرس . لقد قصد بالمفسر علامة أخرى توضح العلامة الأصلية أو الرمز اللغوي .

ولقد صنف بيرس المفسرات أصنافاً كثيرة يهمننا منها ما يسميه بالمفسر المنطقي وهو المعنى الذي يصل العلامة بموضوعها . ويوضح ذلك بقوله إن المفسر المنطقي لحد ما هو ذكر خصائصه - وخصائصه الحسية فحسب . ويبرر ذلك

( ١ ) يقول بيرس أنه أخذ كلمة براجماتزم من تمييز كنط بين كلمتين هما Pragmatic و Practical وقال إن الفرق بينهما مثل ما بين القطبين إذ تشير الأولى إلى بحث في قواعد الفن الذي يشتق من التجربة ، بينما تشير الثانية إلى القوانين الخلقية ذات الأساس القبلي . أما وليم جيمس فيرى أن الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Pragma ومعناها الفعل . والمسألة في حاجة لتحقيق أكثر من ذلك . قال البعض إنها مشتقة من Pragma ومعناها الأشياء ، وقال آخرون إنها مشتقة من الفعل Prasso أو Pratto ومصدرهما Pratein ومعناه أفعّل ؛ ومع ذلك وجدنا أصحاب الحركة اشتقوا الكلمة من Pragma ليدلوا بها على معنى Pratein . وهذا سوء استخدام للكلمة ، مما أدى ببعض مؤرخي الفلسفة أن يقولوا أن معنى براجماتزم هي الأشياء المصنوعة ليدمجوا معنى اللفظين اليونانيين معاً . يبدو أن بيرس وجيمس لم ينتبها لهذه الصعوبات ، واكتفى الأول بأن أخذ الكلمة كما استخدمها كنط ، واكتفى الثاني بأن شرحها بأنها تتضمن الفعل والسلوك ؛ وإن كانت ترادف كلمة Practical فيجب أن نفهمها لا بمعناها الدارج وإنما بمعنى ما هو جزئي محدد Particular .



بأن فكرتنا عن أى شىء هى فكرتنا عن آثاره الحسية ، وتكون قد خدعت نفسك إذا توهمت أنك قادرٌ على الوصول إلى نوع آخر من الخصائص ، ذلك لأن وظيفة الفكر الإنسانى هى الاهتمام بالأفكار التى تفسر تفسيراً حسياً . ومن المأثور عن بيرس قوله : « لنعتبر الآثار التى يمكن أن تصور موضوع الفكرة حاصل عليها ، والتى نتصور أن لها مركزاً عملياً . إن فكرتنا عن هذه الآثار هى كل فكرتنا عن الموضوع » .

ويشرح معنى الخصائص الحسية أو المفسر لكلمة ما أو تصور ما بقوله إن الوصول إلى تلك الخصائص يساوى إجراءنا لعملية معينة نقوم بها ، ونصل منها إلى نتائج ، ويتألف معنى هذا التصور من مجموعة تلك النتائج . ويقول فى ذلك إن « المعيار البرجمائى هو أن وصفك لشيء ما يساوى قولك إن عملية معينة — لو أجريتها — يجب أن تتبعها نتيجة لها وصف عام محدد . وقصد بإجراء العملية وسيلة إلى إدراك الخصائص الحسية . ان التعريف يجب أن يكون عاماً وهذا معنى وضوحه . وقد يثير بعض الشك قولنا إن الوضوح والعمومية شىء واحد ولكن يزول الشك حين ندرك أن بيرس لا يعنى بالعمومية فى اللفظ عدم التحديد ، وإنما يعنى أن العملية الإجرائية لكى تكون واضحة ينبغى أن تكون ممكنة لكل إنسان .

ولعل من عبارات بيرس الشهيرة قوله : « تجربة الرجل ليست شيئاً إذا كانت بمعزل ، إذا رأى إنسان مالا يراه الآخرون سم ذلك هלוسة وتخليطاً . ليست تجربتي ولا تجربتك ولكنها تجربتنا التى ينبغى أن نفكر فيها » .

ونذكر مثلاً ضربه بيرس لطريقته الجديدة فى تعريف الألفاظ . إن التعريف العادى لعنصر الليثيوم هو ما وزنه الذرى يساوى ٧ تقريباً . ولكن يعرفه البرجمائى على النحو التالى : إذا بحثت بين الفلزات على فلز شفاف نوعاً ما ، ينفذ منه الضوء ، ذو شكل رمادى أو أبيض ، صلب ، يلمع وله بريق ، لا يقبل الذوبان ، تعطى القطعة منه لوناً قرمزيّاً لدخان غير مشتعل ، ويمكن أن يذوب نوعاً ما فى حامض المورياتيك إذا مزج مزجاً جيداً بالجير ثم انصهر ، وإذا

تبخر هذا المحلول ووضع الراسب في حامض الكبريتيك ونقى حالا يمكن أن يتحول إلى كلوريد الليثيوم - إذن لقد وصلت إلى تعريف الليثيوم .  
 هذه طريقة بيرس في تحديد معاني الألفاظ . وهي كما قلنا طريقة تنطوي على أن المعنى لا يتألف إلا من مجموعة الآثار والنتائج التي تنجم عنه في محيط الخبرة الحسية .

### النظرية الواقعية :

ليس ما قلناه في التعريف كل المنهج البرجماتي الذي نادى به بيرس ، ذلك لأن التعريف كما أوضحناه يعني أن المعنى هو مجموعة النتائج الحسية المباشرة ولكنه لم يذكر مجموعة النتائج المباشرة ولكنها مجموعة النتائج فحسب : وبمعنى آخر يعتقد بيرس بأن المعنى الدقيق لتصور ما كامن في آثاره المباشرة وغير المباشرة ، ما نرى من آثاره الحاضرة وما يمكن أن نرى منه في المستقبل . وأساس قوله هذا نظرية ميتافيزيقية يسميها الواقعية . وللواقعية معان كثيرة يهجنها منها هنا الواقعية القديمة التي ذهب إليها أفلاطون وتابعه فيها العصر الوسيط حين قال إن للكليات وجوداً مستقلاً عن الأذهان وعن الأشياء الجزئية ، ويتألف من مجموعها عالم آخر هو عالم الكلّيات وهو العالم الأساسي الذي صدرت عنه الأشياء والحوادث والوقائع الجزئية .

لقد نادى بيرس بواقعية جديدة : قال إن للكلّيات وجوداً ، مستقلاً عن الإنسان وعن الجزئيات ، لكنها لا توجد في عالم مثالي آخر ، ولكنها قائمة في عالمنا الذي نعيش فيه . والكلّيات هنا هي القوانين التي يسير العالم الطبيعي وفقاً لها : للقوانين وجود مستقل عن الجزئيات الخاضعة لها ، وليست مجرد صيغ تعبر عن الحوادث ، أو عبارات لفظية ترمز إلى ما يكون في العالم وإنما للقوانين وجود مستقل فمثلاً إن لم يوجد قانون موضوعي يتحكم في حركات الذرة ويجبرها على أن تتبع نظاماً معيناً في الحاضر والمستقبل فلن نقول إن للذرة قانوناً معيناً تسير عليه . إن ما نصادره عليه من وجود الترتيب والنظام في العالم ما هو إلا نتيجة اضطرابه إلى الخضوع لسلطة موضوعية هي القوانين .

ثم ينتقل پيرس من موضوعية القوانين إلى أن العالم لا يسير وفق قوانين حتمية ضرورية دائماً وإنما به عنصر الإمكان . فالقوانين في تطور وتخضع لقانون التطور ذاته . وليس المستقبل معروفاً لنا معرفة ضرورية وإنما قد يسير وفق الماضي ، وقد يتغير عنه قليلاً أو كثيراً . ويتضمن ذلك أن پيرس مؤمن بعنصر الصدفة في الكون أى أن من الممكنات ما قد يظهر في المستقبل ، ما لم نلاحظه في الماضي .

فإذا ربطنا بين نظرية الواقعية ونظرية التعريف البرجماتي قلنا أن پيرس لا يؤمن بأن الآثار والنتائج المباشرة لشيء ما هي كل معناه ، وإنما يتألف المعنى من مجموعة النتائج ، وقصد بمجموعة النتائج هو اتباع الطريق اللانهاى في البحث . فما نصل إليه اليوم من نتائج تصور ما ليس ذلك كل معناه ، وإنما نضيف إليه دائماً ما يأتينا به المستقبل من نتائج أخرى وهكذا .

#### المنهج البرجماتي بين پيرس وچيمس :

قلنا إن پيرس كتب مقالين بعد مباحثات النادي الميتافيزيقي أشار فيهما إلى نظرية الاعتقاد على أساس تعريف بين ، كما أشار إلى توضيح أفكارنا عن طريق اتباع المنهج البرجماتي الذي نلخصه في نظرية التعريف والواقعية . ويقول چيمس إن هذين المقالين ظلا مجهولين عشرين سنة حتى كشف هو عنهما : حين ألقى محاضرة في جامعة كاليفورنيا سنة ١٨٩٨ بعنوان « الأفكار الفلسفية ونتائجها العملية » أخذ فكرتها الرئيسية عن المنهج الذي قاله پيرس من قبل ، ولم ينس چيمس أن يشيد بفضل زميله عليه في ذلك<sup>(١)</sup> .

ولكن ظل پيرس حتى آخر حياته مصراً على أن منهجه إنما هو قاعدة منطقية قبل كل شيء . أما چيمس فقد أخذ فكرة المنهج البرجماتي وطبقها تطبيقات مختلفة : على نظرية المعرفة ، ونظرية في الأخلاق والدين ، ونظرية في الميتافيزيقا ولم يكن پيرس يريد للمنهج الذي ابتكره أن يستغل في الدين والأخلاق فغضب على چيمس وأعلن اختلاف مذهبيهما .

( ١ ) انظر النص الأول في آخر الكتاب .

## الفصل الثاني

### المنهج البرجماتي عند وليم جيمس

أراد وليم جيمس بالفلسفة البرجماتية أن يقف موقفاً وسطاً بين المذهب التجريبي والمذهب العقلي رأى في كليهما خيراً كثيراً ، ولكنه رأى كليهما يهمل جانباً معيناً من جوانب الطبيعة البشرية : لاحظ أن المذهب التجريبي شديد الإخلاص للوقائع الجزئية والأشياء المحسوسة ، شديد الاهتمام بالمشاهدات والتجارب ؛ وهذا فضله الكبير لكنه مهمل للقيم الخلقية والدينية في الإنسان. للإنسان مطالب وحاجات ورغبات طبيعية كطلب الإيمان وحاجته إلى الحرية والأمل والرضا والتفائل ورغبته في تحصيل الخير والسعادة ؛ كما لاحظ وليم جيمس أن المذهب العقلي ينفي بهذه الحاجات الروحية للإنسان لكنه يتنكر للوقائع الجزئية والأشياء التجريبية .

رأى جيمس أن هذين الاتجاهين يوقعان الفيلسوف في مأزق <sup>(١)</sup> مأزق اختيار أحدهما وأن الإنسان لا يستطيع تفاديهما معا أو الجمع بينهما . ومن هنا شعر جيمس أنه بحاجة إلى اتخاذ موقف وسط بين هذين الاتجاهين يحقق الإخلاص للواقع والتجربة ويعطيه الإيمان بالقيم الروحية في نفس الوقت ، فنأى بالمذهب البرجماتي .

« إن المذهب البرجماتي ينفي المطلبين معاً : يحتفظ بالدين كالعقليين ، ويحتفظ بالإخلاص العميق للوقائع كالتجريبيين <sup>(٢)</sup> » .

( ١ ) قال كولردج مراراً « إن كل إنسان يولد أفلاطونياً أو أرسطياً » . وكان يقصد بالأول العقلي وبالثاني التجريبي . والحق أنه يمكن تجاهل الاختلاف بين أفلاطون وأرسطو إذا فهمنا أن ديمقريطوس وبروتاجوراس تجريبيان أكثر من أرسطو . وبذا يكون من الأفضل من كولردج أن يقول إن كل إنسان يولد أفلاطونياً أو ديمقريطياً .

W. James Pragmatism p. 20. ( ٢ )



ولقد أعلن ولیم جیمس أول أمره أن فلسفة البرجماتية منهج وليست مذهباً فلسفياً ؛ وقصد جیمس من المنهج أنه اتجاه فحسب : اتجاه إلى توضيح الأفكار ، وإعطاء دلالات صادقة لتصوراتنا وقضايانا ، ورأى أنه يحل - بهذا المنهج - كل المناقشات الفلسفية وذلك بمتابعة « مبدأ پیرس البرجماتی » والذي يقتضى أن ينحصر معنى التصور في نتائجه العملية وآثاره الحسية ، وأن الخلاف بين تصور وآخر هو الخلاف في واقعة محسوسة تنتج عن أى منهما أو نتيجة سلوكية يؤدي إليها أحدهما .

وضع جیمس قاعدتين لمنهجه هما :

( أ ) إذا كان لديك قضيتان واعتقدت بصدقهما معاً فانظر إلى أثر كل منهما على سلوكك العملي . إن اختلف سلوكك نتيجة اعتقادك بالقضية الأولى عن السلوك الناتج عن اعتقادك بالقضية الثانية ، إذن فالقضيتان مختلفتان حقاً . وإذا لم يوجد خلاف عملي بينهما بمعنى لم يوجد خلاف في السلوك نتيجة اعتقاد الفرد بكل منهما فتأكد أنهما قضية واحدة بصورتين لفظيتين مختلفتين .

( ب ) إذا لم يوجد أى أثر عملي في سلوكك نتيجة اعتقادك بصدق قضية ما ، يختلف عن سلوكك نتيجة اعتقادك بكذبها ، فاعتبر أن هذه القضية لا معنى لها بل لا وجود لها : إذ أن دلالة الفكرة فيما ينتج عنها من أثر في السلوك<sup>(١)</sup> .

ولقد شبه أحد الفلاسفة البرجماتيين المعاصرين لجیمس والآخذين عنه<sup>(٢)</sup> الاتجاه البرجماتی على أنه منهج وليس مذهباً بما يأتي : « مثل المنهج البرجماتی كمثل ممر في فندق يطل على كثير من الغرف . قد تجد في إحدى الغرف كاتباً يكتب في ( نزع ) الإلحاد ، وتجد في غرفة أخرى رجلاً راکعاً يطلب الإيمان ، وتجد في ثالثة عالماً كيمائياً يبحث في خصائص الكائن الحي ، وتجد في رابعة فيلسوفاً يضع مذهباً في الميتافيزيقا المثالية ، وتجد في غرفة خامسة من يبرهن

( ١ ) James, Pragmatism, pp. 48-50.

( ٢ ) الفيلسوف الإيطالي بابيني Papini وكان شاباً في الثلاثين حين نادى جیمس بمذهبه وكان بينهما مراسلات ودية كثيرة .

على استحالة الميتافيزيقا . يجب أن يمر هؤلاء جميعاً في هذا الممر إذا أرادوا أن يدخلوا غرفهم أو يخرجوا منها»<sup>(١)</sup>.

ويصرح وليم جيمس أن منهجه البرجماتي ثورة على الفلسفة التجريبية حين أنكرت قضايا الدين والإيمان ، وأنه ثورة كذلك على الفلسفة العقلية حين كانت حلولها للمشاكل حلولاً مجردة غير مجدية . ولقد تبين لجيمس أن المشكلات التي يحثها العقليون - حين نضعهما تحت الاختبار البرجماتي - قد يتبين لنا أنها خرافات وليست مشاكل ، أو قد يتبين أنها مشاكل ولكنها لم توضع الوضع الصحيح ؛ ومن هنا نفهم إعلان جيمس عن منهجه أنه يتصف بالثورة على الأبحاث المجردة والمبادئ الثابتة والمذاهب المغلقة والحلول الكلامية والأسباب القبلية ، وأنه يتصف بالإخلاص للوقائع الجزئية والنتائج المحسوسة والآثار الدقيقة المحددة .

كان أساس فلسفة وليم جيمس - كما عرضت في الفصل الأول - إنكار الحقائق القبلية والاعتقاد بأن الإنسان هو مصدر الحكم على الأشياء بالصدق أو الكذب وأن ليس هنالك حقائق خالدة مهمتنا أن نتأملها ولذلك ثار على تلك المذاهب العقلية التي تجعل أساس بحثها مبادئ ثابتة تصادر على صحتها ولا يسندها سند تجريبي . وكان أساس فلسفته كذلك تبرير مطالب الإنسان الروحية إذا وجد لها سنداً في التجارب . الجزئية وإذا كان الاعتقاد بها ينتج آثاراً حسية دقيقة محددة في العالم الذي نعيش فيه .

سبب اتجاه جيمس نحو الفلسفة البرجماتية :

أراد وليم جيمس أن يشرح لنا الأسباب التي أدت به إلى ترك البحث في المشكلات بحثاً نظرياً مجرداً تأملياً والاتجاه في بحثها بحثاً عملياً . كتب مقالا شهيراً<sup>(١)</sup> انتهى فيه إلى أن الأبحاث النظرية ناقصة بالضرورة وأن الحلول الصادقة

( ١ ) James, W., Pragmatism, p. 54.

( ٢ ) عنوان المقال : ( ميل الإنسان إلى التفكير الفلسفي ) Sentiment of Rationality

ونشرت لأول مرة في مجلة Mind في يوليو سنة ١٨٧٩ ورأى النقاد أنه كان يمكن جعل عنوانها « دوافع التفلسف » عند جيمس . وهي إحدى فصول « إرادة الاعتقاد » فيما بعد .

للمشاكل الفلسفية هي الحلول المرتبطة بالسلوك العملي والمرضية لمطالب الإنسان . يرى جيمس في هذا المقال أن للإنسان مطالب نظرية وأخرى عملية .

أول مطلب نظري يرغب فيه الذهن هو التبسيط ، إنه ينزع بطبعه إلى البساطة ، ويميل إلى رد المعقد إلى البسيط ، والكثير إلى الواحد ؛ لأن النتيجة المبسطة موفرة للجهد الذهني . والرغبة في الاقتصاد في وسائل التفكير رغبة فلسفية أكيدة إذ يشعر الإنسان برضا وارتياح حين يدرك أن مجموعة من وقائع متباينة فيما بينها — يمكن ردها إلى واقعة واحدة أو يمكن أن تفسرها واقعة واحدة .

وثاني المطالب النظرية التي يرغب فيها الذهن هو الرغبة في التمييز . ويقصد بها جيمس رغبة الإنسان في معرفة الأجزاء والتفاصيل وعدم الاكتفاء بالإدراك العقلي للكل وفهم الأشياء فهماً معمماً . ويرى أن معرفة الجزئيات والتفاصيل أهم من معرفة الأشياء معرفة عامة وإدماجها في أنواع وأجناس . ومظاهر هذه الرغبة في التمييز هي الإخلاص في توضيح الإدراك الحسي توضيحاً يبرز معالنه وتفصيلاته وكراهيته للمجمل والمشوش والتشابه الغامض في الأشياء .

إن البساطة من جهة والوضوح من جهة أخرى مطلبان أساسيان للفكر فيما يرى وليم جيمس . وينتقل من هذه الخطوة إلى حكم عام هو أن أية فلسفة تنكر أحد المطلبين أو كليهما أو تعطى لأحدهما مرتبة أعلى من الآخر فلسفة غير مقبولة ؛ ويدلل على ذلك بفلسفة سبنوزا وهيوم . رأى جيمس أن سر إهمال الناس لفلسفة سبنوزا أنه اهتم بالوحدة المطلقة دون غيرها فلم يراع الجزئيات ولا التفاصيل وإنما رد كل الأشياء المادية إلى مبدأ واحد مطلق يفسرها . وسر إهمال الناس لفلسفة هيوم هو اهتمامه الشديد بالكثرة المطلقة والانفصال المطلق بين الأشياء بحيث تعثر الجمع بينها وإيجاد رابطة أو عدة روابط توحد بينها .

ينتقل جيمس من هذا الحكم إلى حكم آخر هو أن الفلسفة الصادقة هي التصنيف الكامل للجزئيات الكون : أي حصر ما في الكون من أشياء حصراً دقيقاً محدداً دون إهمال التفصيلات والجزئيات ثم تصنيف هذه الأشياء المتكثرة المتعددة في مجاميع تشمل كل منها عدداً من الأشياء تشترك فيما بينها من خصائص

واحدة : وحين يناقش جيمس هذا الحكم يرى أن إيجاد هذه الفلسفة الصادقة عمل مستحيل . لأن التصنيف هو إيجاد ماهية مجردة كائنة في الأشياء وترك ما عداها . وبذا لا يكون التصنيف كاملاً بالضرورة وإنما فتح مجال لأشياء تظل مجهولة . وهذه النتيجة - وهي استحالة بناء مذهب نظري صادق - تبرر لوليم جيمس انعدام الثقة في المطالب النظرية للإنسان والاتجاه نحو مطالبه العملية .

يرى جيمس أن معرفتنا للأشياء معرفة صحيحة قائمة على مقدار التنبؤ بنتائج تلك الأشياء . إن لعلاقة الشيء بنتائجه قيمة كبرى ولذا ينبغي أن نتخذ ارتباط المدرك بنتائجه المستقبلية قاعدة فلسفية .

ويتابع جيمس بحثه فيقول إن حب الاستطلاع الفطري فينا هو الذي يحفزنا إلى الوصول إلى نتائج الأشياء وآثارها ، فإذا ما وصلنا إليها استراح العقل واطمأنت النفس وأحس الفرد الأمان والاقتناع بما وصل إليه . كأن أول مطلب عملي - عند جيمس - هو الرغبة في الوصول إلى توقعات محددة للأشياء ؛ أما إذا لم تحقق هذه الرغبة وظل المستقبل غامضاً عاش الفرد في قلق وحزن واضطراب عقلي .

ولكن مستقبل الوقائع قد يحدد بطرق كثيرة : منها ما يلائم طبيعتنا ومنها ما لا يلائم . والفلسفة الصحيحة هي تلك التي تحدد المستقبل بحيث ترضي طبيعتنا . والفلسفة الكاذبة هي تلك التي تتجاهل الميول الإنسانية أو التي تنطوي على تعارض بين مستقبل الوقائع ورغباتنا وأمانينا .

ما هذه الطبيعة الإنسانية التي تتردد في كتابات جيمس كثيراً ويمر عليها دون أن يشرحها ؟ يقول جيمس في خاتمة مقاله « ميل الإنسان إلى التفكير الفلسفي » أن في الإنسان ميولاً ينبغي أن نحترمها مثل الاستجابة والأمل والصبر والاحتمال والإعجاب والاجتهاد والمخاطرة وكفاحه ضد الشك ونضاله لليأس والخوف والضيق وميله وسعيه نحو الخير والتفاؤل والبعد عن الشر وما يؤدي إلى التشاؤم .



هذه هي الفلسفة العملية كما يراها جيمس وتبين أنها ليست وجهة نظر في شئون الحياة اليومية وإنما الوصول إلى حلول لمشكلات نظرية لا عن طريق تحليلها تحليلًا جدليًا أو عن افتراض فروض قبلية مستقلة عن التجربة بل يكون حل المشكلات بمتابعة آثارها المحددة ونتائجها الدقيقة بحيث لو لم يكن للمشكلة نتيجة أو لحلها أثر في الحياة ( النظرية أو العملية ) فالمشكلة باطلة .

ولقد استخدم جيمس هذا المنهج وطبقه على نظريات له في المعرفة والميتافيزيقا سأذكرها فيما بعد - ولكن لا بأس من توضيح المنهج في هذا المكان عن طريق استخدامه في بعض المشاكل الفلسفية .

لقد استخدم جيمس منهجه البرجماتي لتوضيح مشكلات ثلاثة : الجوهر ، والتدبير في الكون ، وخلاص العالم .

#### المنهج البرجماتي ومشكلة الجوهر :

هل حقًا للأشياء المادية جواهر مستقلة مخفية وراء أعراضها وخواصها الحسية التي نشاهدها ؟ أو هل حقًا لقطعة الطباشير مثلاً جوهر مختلف وراء البياض وسهولة الكسر والشكل وعدم الذوبان في الماء ؟ أم أن قطعة الطباشير ليست غير مجموعة هذه الخواص ؟

قبل أن يناقش وليم جيمس مشكلة الجوهر مناقشة برجماتية يذكر رأى بركلي ويشي عليه . يرى جيمس أن بركلي قد استخدم المنهج البرجماتي بدقة وهو لا يشعر حين عالج الجوهر المادي . يصر جيمس على أن بركلي لم ينكر العالم المادي وإنما ينكر الفكرة المدرسية القائلة بجوهر مادي مخفية وراء العالم المحسوس لا سبيل إلى الوصول إليه .

لقد أنكر بركلي وجود هذا الجوهر وقال إننا لا نعرف غير إحساساتنا باللون والشكل والصلابة وما إلى ذلك . إن الفروق بين وجود المادة وعدم وجودها هو وجود هذه الإحساسات . هذه الإحساسات هي القيمة الفورية التعاملية لكلمة مادة . كأن بركلي كان يتساءل عما إذا كان يوجد فرق بين اعتقادك بوجود مادة واعتقادك بعدم وجودها ؛ أو ما الأثر الذي يتركه اعتقادك بوجود مادة في

سلوكك ثم يقصر عنه اعتقادك بعدم وجودها. ويرى جيمس أن جواب بركلي هو أن الأثر العملي هو في هذه الإحساسات بل إن الإحساسات هي كل معنى المادة .

ويعرض جيمس رأى لوك في الجوهر الروحي كما عرض رأى بركلي في الجوهر المادي .

اهتم جيمس بما سماه لوك « الذاتية الشخصية » يرى جيمس أن الذاتية الشخصية عند لوك هي الشعور . وكان يقصد لوك بذلك أننا في أي لحظة من لحظات حياتنا نتذكر لحظات أخرى في حياتنا ونشعر بأن اللحظات كلها أجزاء من تاريخ حياة الشخص . كان قد فسر العقليون ذلك بوجود جوهر روحي ولكن لوك رأى أن الذاتية الشخصية ليست غير الشعور بدليل أننا لو فرضنا أن الله سلب منا شعورنا ألانزال نحتفظ بأرواحنا ؟ — لا . إذن فالذاتية هي الشعور وليست الجوهر الروحي<sup>(١)</sup> . ولقد أعجب جيمس برأى لوك واعتقد أن حله للمشكلة براجماتي .

هذا هو حل بركلي ولوك لمشكلة الجوهر المادي والروحي . ويحل جيمس نفس المشكلة حلاً براجماتياً بالطريقة الآتية : عندنا مذهبان : مذهب مادي وآخر روحي . والمذهب المادي هو القول بأن القوانين هي التي توجه الأشياء ، والمذهب الروحي هو القول بأن العقل هو الذي يدبر الأشياء ويتحكم في سلوكها ،

( ١ ) يقول لوك : « إذا كانت شخصية الروح فقط هي التي تؤكد وجود الإنسان ، وإذا لم يكن شيء في طبيعة الإنسان يجعل الروح الفردية حالة في عدة أجسام ، فن الممكن أن يكون هؤلاء الناس الذين عاشوا في أزمان متباعدة هم نفس الرجل . . . لا شيء غير الشعور يوجد الوحدة بين أجزاء الكائن الواحد . لا قيمة لوجود ذاتية جوهرية بدون الشعور لأن هذه الذاتية لا تشير إلى وجود شخص . . . إن الذي يشبه وجود الشخص ما به من شعور لا ما فيه من جوهر . وشعوره هو إدراكه بالإدراك : أي إدراكه أنه يحس ويشم ويرى ويلمس ويتذكر ويفكر . ولو صح أن الروح هي جوهر الإنسان ونحن لا نرى مانعاً من أن تغل روح واحدة في أجسام كثيرة لصح أيضاً أن روحاً واحدة تغل بأشخاص مختلفين متباعدين وتجعل منهم شخصاً واحداً . إن الجسد الهامد الميت نسميه شخصاً ولكن لا ذاتية فيه لأنه لا شعور له . »

ثم يتساءل جيمس . ما الاختلاف العملي الذي يطرأ على سلوكنا لو قلنا إن العالم تسيره قوانين عمياء أو روح عليا ؟

لاحظ أن جيمس يجيب عن هذا السؤال مرة على أساس أن عالمنا كامل قد تم صنعه من الأزل ، ومرة على أساس أنه بدأ ناقصاً ولا يزال يكمل نفسه باستمرار .

يقول جيمس إننا إذا نظرنا إلى النتيجة العملية من وراء اعتقادنا بالمادية لا نجد تغييراً عن اعتقادنا بالروحانية ، على الأساس الأول . ومعنى ذلك أنه سواء أكان الله علة العالم أو أن الذرات هي العلة الأولى فلن يزيد الله من نظام الكون كما أن الذرات لن تقلل من هذا النظام . إن الله يفعل ما تفعله الذرات . إن لم يعط وجوده خلافاً أو تغييراً على مسرح الكون فلن يزداد الكون شرفاً بوجوده كما أنه لن يلحقه ضرر إذا غاب وكانت العلة هي الذرات . إن الله والمادة شيء واحد هنا إذا اعتبرنا نتائج كل منهما على العالم حيث إنه تام الصنع مكتمل الأجزاء . وبهذه الطريقة يستنتج جيمس أن المادية والروحانية شيء واحد ولاخلاف بينهما ، لأن منهجنا في البحث هو أن الاختلاف في نتيجة النظرية هو كل معناها .

ولكن لنفرض أن للعالم الذي نعيش فيه مستقبلاً أي أنه ناقص الخلق والتكوين وأنه يستكمل نفسه باستمرار ، سيكون الخلاف بين المادية والروحانية إذن خلافاً خطيراً . إن فكرة الله تشير إلى وجود عالم ينطوى على مثل عليا يحققها الخالق على مر الأعوام . وقد يعترض على جيمس معترض بقوله وهل نحن محتاجون إلى هذه القيم الخلقية الخالدة ؟ يجيب جيمس : « . . . بل إنه إحدى الحاجات العميقة في قلوبنا . قد يقال إن العقل السليم يرى الاهتمام فقط بما أمامنا ولا قيمة عندنا لمصير العالم . لو قلت ذلك سأقول لك إنك ظلمت الطبيعة البشرية . . . إن الأشياء المطلقة وحدها موضع اهتمام الفيلسوف بل تشعر العقول الكبيرة شعوراً ملحاً بها . إن الإيمان بالمذهب الروحي في أي صورة من صوره يوجهنا نحو

عالم الأمل والرجاء ، بينما تشرق شمس المذهب المادى على محيط من خيبة الأمل<sup>(١)</sup> .

هذا مثل يراه جيمس حلاً لمشكلة الجوهر : حين نتساءل هل وجود العوارض المادية هى كل حقيقة الأشياء أم أن وراء هذه العوارض مبدأً روحياً خفياً ينبغي الاعتقاد بوجوده ؟. يجيب جيمس بأننا إذا تصورنا أن العالم قد تم صنعه وأننا لا نضيف إليه لا يطرأ عليه غير ما هو كائن فيه فلا قيمة للسؤال من أساسه إذ لا خلاف فى الاعتقاد بوجود جوهر روحى فى العالم عن الاعتقاد بعدم وجوده . أما إذا تصورنا أن العالم لم يتم تكوينه كله وأنه بسبيل الصنع والإتمام وأنه لا يزال يصنع فيه باستمرار ، فإننا نرى خلافاً فى اعتقادنا بأن المادة هو كل ما فى هذا الكون من عناصر عن اعتقادنا بأنه يوجد جوهر روحى إلى جانب الجواهر المادية – إنه الخلاف فى الإيمان وعدم الإيمان بالجوهر الروحى – ولهذا الإيمان نتائج عملية إذ يودى بنا الإيمان بالجوهر الروحى إلى الأمل والتفاؤل وطرده اليأس والخوف والاتجاه نحو المخاطرة بينما لا يودى إلى ذلك اكتفاؤنا بأن الجواهر المادية هى كل عناصر الكون .

### المنهج البرجماتى وتدبير الكون :

نشأ الإنسان على الاعتقاد المألوف بأن فى العالم نظاماً محكماً تسير عليه الوقائع وتتبعه الحوادث والظواهر ، وأن بعض الأشياء ملائم وموافق لبعضه الآخر الآخر ، ولا يشذ شىء ما فى العالم عن ذلك الانسجام الملحوظ . هذا اعتقاد دينى سائد يتناوله وليم جيمس بالتحليل البرجماتى فيقول إن دارون قد ساعدنا على تبديد هذا الاعتقاد حين جعل للصدفة فى الحوادث عنصراً هاماً بل جعل لها نتائج حسنة حيث يتوفر الزمن الكافى . ويقتنع جيمس بأن التدبير فكرة وهمية بل يوجد ما يثبت انعدام التدبير فى العالم فمثلاً نجد أشياء كثيرة تنقرض لعدم ملائمتها للبيئة .



ليس للتدبير في الكون دلالة بمعناها المألوف ، وإنما إذا أردنا أن نختبرها  
اختباراً برجماتياً أمكن القول بأن التدبير ينطوي على معنى الأمل بمعنى أنه إذا  
كان الاعتقاد في التدبير يكسبنا ثقة في المستقبل وأن العالم تسيره قوى عاقلة  
لا قوانين عمياء ، ويؤدي إلى الاطمئنان الغامض إلى المستقبل إذا كان الاعتقاد  
في التدبير يؤدي إلى هذه النتائج إذن فهي كل دلالة<sup>(١)</sup> .

### المنهج البرجماتي وخلاص العالم<sup>(٢)</sup> :

لم يقتنع جيمس بآراء الكنيسة أو الكتب المقدسة في معنى الخلاص ولكنه  
حذر من احتقار الفكرة لأن في إنكارها نزعة تشاؤمية ، وموقف الحياد منها  
كموقف الإنكار ، والإنسان بطبعه ميال إلى تخفيف الشر والقلق المرتبط به .  
ولكن جيمس لا يرى أن الله هو الذي يخلص الناس بعونه ورحمته وإنما يتخلص  
الإنسان من خطاياها بما يقدم من عمل وما يحقق من مثل . واللحظة التي نحقق  
فيها مطلباً أو رغبة حسنة لحظة من لحظات الخلاص ومجال تحقيق خلاص الناس  
من خطاياهم هو هذا العالم الذي نعيش فيه ولن يكون لهذا الكلام معنى إذا كان  
العالم كاملاً خالداً لا يضيف أحد إليه جديداً أو يسد أحد ما به من نقص .  
« لا معنى للخلاص في عالم قد تم واكتملت كل أجزائه ولا معنى لخلاص العالم  
الذي أتى دفعة واحدة كشيء إلهي »<sup>(٣)</sup> . للخلاص معنى إذا اعتقدنا أن العالم  
ناقص وأن الكمال يتم له على دفعات بإضافاتنا الجزئية ، فإذا رغبت أنا وأنت  
وسائر الناس في الخلاص وحقق كل منا مثله أو بعضها فقد اكتمل النقص  
وابتعد القلق والخوف . وهذا هو كل المعنى البرجماتي لفكرة الخلاص .  
وأراد جيمس أن يوضح القيمة البرجماتية للخلاص وسعى كل إنسان لتحقيق

( ١ ) Ibid., p. 115.

( ٢ ) فكره الخلاص إحدى العقائد المسيحية وخلصتها إن الإنسان لا زال يعاني من أثر الخطيئة  
الأولى . وهو محتاج إلى عون الله لكي يتخلص مما به من خطايا . وسيظهر المسيح في آخر الأزمان لكي  
يتحمل عن الخلق آثامهم ويظهرهم منها . وكان للفكرة سلطانها في العصور المدرسية .

( ٣ ) James, W., Pragmatism p. 288.

كماله على مسرح العالم المحسوس بما أوتي من قدرات وميول فصور مساهمة الناس مع الله في خلاص العالم على النحو الآتي :

« افرض معي أن الله استشارك في خلق العالم قبل خلقه وقال لك : سأبدأ في خلق العالم ليس لإخلاصه ، أمراً مؤكداً ، ولكن كماله مشروط بشرط هو أن يقوم كل إيمانكم بأكبر جهد ممكن فيه . وسأقدم لكم فرصاً للمشاركة في استكمالته . إن الأمان والسلام غير مضمونين وسأجعل الحياة في هذا العالم مخاطرة حقيقية وقد تنهى مخاطرتكم بنجاح . إنه مشروع اجتماعي للقيام بعمل تعاوني فهل تنضم إلى المشاركة في هذا العمل ؟ وهل تثق أنك وإخوانك من البشر ستواجهون الموقف بشجاعة ؟ . . . أعتقد أنك تقبل المشروع أم تفضل الحياة الناعسة ؟ لو كنت رجلاً صحيح العقل فلن تفضل النوم . ستوافق عقول كبيرة على هذا الكون الناقص الذي نحن عنصر أساسي في استكمالته »<sup>(١)</sup> .

هذا هو منهج جيمس وهذه هي صور من تطبيق هذا المنهج . لم ينكر جيمس أن تقوم أبحاث نظرية لكنه ينكر أن تكون الأبحاث فروضاً سابقة لا صلة لها بالتحقيق التجريبي وينكر أن تعتمد الحلول على مبادئ مطلقة تقريرية لا جدوى منها وإنما ينبغي أن تقوم الأبحاث النظرية على أساس أننا نفيد من حلولها في الاستعانة بها في مشاكل نظرية أخرى . ولا بأس أن نفيد من حلولها في الحياة العملية .

فإنحطاً أن نعتبر جيمس متجهاً نحو السلوك الجزئي والحياة العملية . إنه موافق على أن تخدم الفلسفة شؤون الحياة ولكن ذلك ليس الغرض الرئيسي وإنما تابع . أما الغرض الرئيسي لفلسفة جيمس هو أن المعيار الحقيقي الذي يبرز صدق القضية من كذبها هو آثار جزئية ونتائج محددة . ويتحتم أن تكون هذه النتائج موافقة ومحقة للميول الإنسانية والرغبات الطبيعية .

## الفصل الثالث

### نظرية المعرفة عند وليم جيمس

١ - نظرية المعرفة : هل المعرفة ممكنة للإنسان أم مستحيلة عليه؟ وإذا كانت ممكنة فهل يعرف الإنسان كل شيء بلا استثناء ، أم توجد معارف ليس في قدرته معرفتها ؟ وإذا تيسر للإنسان أن يعرف شيئاً فكيف يعرفه - أبالعقل أم بالتجربة؟ وما العلاقة بين الذات العارفة والأشياء كموضوعات لمعرفة - الأشياء وجود مستقل عن الذات أم أنها تعتمد في وجودها على الذات ؟ ثم هذه الذات بدورها أهي جوهر مستقل في الإنسان كما أراد علم النفس القديم وديكارت وغيره ؛ أم أن الذات مجموعة وظائف متضافرة لإمكان المعرفة ؟ - ثم إذا أمكن وجود المعرفة ، وتحددت حدودها ، وتحددت وسائلنا إليها ؛ يرد سؤال هام : ما الصدق وطبيعته ؟

إن الحجب عن هذه الأسئلة قائل بنظرية مكتملة الأجزاء في المعرفة الإنسانية ومهمتي في هذا الفصل أن أثبت أن لوليم جيمس نظرية جديدة في المعرفة ، وإن لم يذكر هو ذلك بصراحة .

ما ذكره وليم جيمس صراحة قوله : « . . . أهم جزء في كتابي برجماتزم هو الحديث عن العلاقة المسماة بالصدق التي يمكن أن تنشأ بين فكرة وموضوعها ( سواء كانت هذه الفكرة رأياً أو اعتقاداً أو خيراً ) »<sup>(١)</sup> .

ويقول أيضاً : « . . . إني أستخدم البرجماتزم بمعنى أوسع ( فوق أنها منهج فلسفي ) أعني أنها نظرية خاصة في الصدق »<sup>(٢)</sup> .

ويقول : « لقد استخدمت هذه الكلمة ( برجماتزم ) بمعنى واسع حيث

( ١ ) James, Meaning of Truth. Longmans & Green. 5th ed. London 1914.

Preface

( ٢ ) James, Pragmatism. Longmans. London 1947. p. 55.

يتركب صدق القضية من نتائجها ، ومن نتائجها الطيبة بوجه خاص «<sup>(١)</sup> .  
 ما أثبتته وليم جيمس إذن هو أن له نظرية جديدة في الصدق : يحدد فيها  
 معناه ، وطبيعته ، وكيفية الوصول إليه ؛ والمعروف أن مبحث الصدق أحد  
 مباحث المعرفة الهامة .

والواقع أن جيمس لم يبحث في الصدق وحده ؛ وإنما تناول كل مباحث  
 نظرية المعرفة . إن ما سماه نظرية في الصدق أستطيع أن أسميه نظرية في المعرفة .  
 ولعل جيمس سمى نظريته في الصدق كذلك لأن الصدق كان موضع  
 اهتمامه الكبير كما سنرى .

### هل المعرفة ممكنة ؟

لم يهتم وليم جيمس بالدفاع عن إمكان المعرفة يوماً ما فلم يتساءل مثلاً عما  
 إذا كانت المعرفة ممكنة أولاً ، ولم يشك لحظة في إمكانها . لقد قرأ مذاهب  
 الشكاك القدماء مثل بجورجياس والمحدثين مثل هيوم .  
 وكان يمر على أقوالهم مر الكرام على اللغو ، لأنه كان يعتبر القول بالشك  
 فيما نصل إليه من معرفة قولاً غير مقبول<sup>(٢)</sup> ومن الملاحظ في النصف الثاني من  
 القرن التاسع عشر أن اتصفت الفلسفة الأمريكية — خاصة في البيئات الفكرية  
 بجامعة هارفارد — بالبحث عن الاعتقاد لا عن الشك ( لا الاعتقاد بمعناه  
 الديني وإنما الاعتقاد بصدق فكرة ) وبما لا شك فيه أن وليم جيمس كان متأثراً  
 بنظرية برجماتية في الاعتقاد نادى بها لأول مرة پيرس ونشرها في مقال عنوانه  
 « تثبيت الاعتقاد » .

لم يكلف جيمس نفسه إذن عناء الدفاع عن إمكان المعرفة ولكنه يكتفى  
 بقوله : « لا يهم المذهب البرجماتي أن يسأل عما إذا كان يوجد في الكون من

( ١ ) James : Meaning of Truth p. 52 .

( ٢ ) لتدين هنرى والد وليم جيمس — كما قلت في الفصل الأول — أثر كبير في توجيه ابنه  
 نحو الاعتقاد وإبعاده عن الشك إلا إذا كان الشك منهجياً ، كما أن للموجة التي سادت هارفارد في  
 العقد الثاني من القرن ١٩ كرد فعل لمذهبي هيوم وسبنسر في الشك أثراً كبيراً .



يعرف الحقيقة أولاً ، وإنما يسأل عما هي الحقيقة والصدق في الأفكار ونوع الأحكام الصادقة . . . إذا وجد صدق فما هو ؟ لا يسأل عن وجود [ معرفة ] وإنما يسأل أى أنواع المعرفة ممكن « (١) » .

ما مصدر المعرفة ؟

نظرية وليم جيمس في المعرفة نظرية تجريبية بالمعنى الدقيق لأنه كان يعالج كل مشكلة معرفية علاجاً يقوم على التجربة الجزئية المحسوسة ، رافضاً كل تفسير عقلي ومحاولاً سد الثغرات التي لم يستطع التجريبيون السابقون أن يملئوها . وكما نسأل چون لوك يوماً ما عن مصدر المعرفة ومم نستقي معرفتنا وقال سأجيب بكلمة واحدة هي التجربة ، أجاب وليم جيمس عن هذا السؤال بكلمتين هما : الفهم المشترك . إنه مصدر معرفتنا .

رأى وليم جيمس أن الفهم المشترك — في تصور الرجل العادي — هو الحكم الصائب والحدق أو البراعة في القول أو في العمل ، أما الفيلسوف فإنه يتصوره على أنه استخدام تصورات ذهنية معينة ، وهذه التصورات ضرورية لنا لأنها هي التي ترتب انطباعاتنا الحسية المختلفة . ويذكر جيمس من هذه التصورات أو المقولات : الأشياء ، المتشابه والمختلف ، الأنواع ، العقول ، الأجسام ، الزمن ، المكان ، الموضوع والمحمول ، العلية ، الخيال ، والواقع (٢) . ولم يبحث جيمس في هذه المقولات بحثاً دقيقاً كما فعل أرسطو أو كنط . أو هاملان Hamelin ولكنه أراد منها أن تكون قوالب لا يستطيع أن يتكلم الرجل العادي أو يفكر بدونها — ويتتبع جيمس نشأتها فيجد أنها أساس تفكير الإنسان من قديم الزمن ولا يزال يعتقد بها معظمنا حتى اليوم ؛ إننا لا نزال نعتقد بوجود الأنواع والعلية والزمان والمكان كحاملين للوقائع والحوادث وبأن الإنسان عنصران هما النفس والبدن ونحو ذلك من تصورات . إنها تصورات متأصلة في نفوسنا لأنها نافعة لنا تخدمنا في أغراضنا العملية سواء في مجال الحديث أو في التفكير . ويقرر

(١) James : Meaning of Truth p. 183.

(٢) James : Pragmatism p. 173.

جيمس بصدد مصدر هذه التصورات أن الإنسان الأول كان قد اكتشفها ثم صاغها فلاسفة وعلماء صياغة دقيقة مثل ديموقريطس وبركلي ودارون . وانتقلت هذه المقولات من جيل لآخر وثبتت في الأذهان ، وأصبحت عقائد مستقرة ، نسميها عقائد الفهم المشترك<sup>(١)</sup> .

وتمثل عقائد الفهم المشترك — في نظر وليم جيمس — مرحلة محدودة من مراحل إدراكنا للأشياء . يقول :

« نظرتي هي أن طرقنا الأساسية للتفكير في الأشياء — نتيجة لما اكتشفه أسلافنا القدماء — تكون مرحلة عظمى من مراحل التوازن في التطور العقلي الإنساني وهي مرحلة الفهم المشترك . وهي لا تزال حية باقية في تجارب الناس »<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن جيمس يعتقد أن مرحلة الفهم المشترك هي المرحلة الوحيدة في تحديد المعرفة الإنسانية وإنما كان يرى أنه توجد إلى جانبها مرحلتان أخريان هما : مرحلة العلم ، ومرحلة النقد الفلسفي .

يقول جيمس عن مرحلتي العلم والفلسفة أن كثيراً من العلماء والفلاسفة حاولوا زعزعة إيماننا بتصورات الفهم المشترك حين أنكروا الزمان والمكان كجوهرين موضوعيين أو أنكروهما كتصورين ذاتيين كما أنكروا كثير من مبادئ العلية أو انقسام الإنسان إلى جوهرين . ولكن الفهم المشترك — بالرغم من كل مجهودات العلماء والفلاسفة — ظل محتفظاً بمكانته بين الناس . حقاً لقد قللت مجهودات العلماء والفلاسفة من قيمة الفهم المشترك وشككتنا في بعض عقائده وبذا تغيرت فكرتنا عن الجوهر وصلته بأعراضه مثلاً ، وعن التمايز المطلق بين

(١) أول من اهتم بقيمة تصورات الفهم المشترك هو توماس ريد Reid وهو رائد المدرسة الإنجليزية للفهم المشترك والذي كان من تلامذته دو جلاس ستوارت ووليام هاملتون وفكتور كوزان وغيرهم . وكانت هذه الفلسفة إحدى الفلسفات الموفقة بين الدين والعلم والتي كانت تنافس الفلسفة المثالية في جامعة هارفارد في النصف الأول من القرن التاسع عشر . وتلقى جيمس آراء ريد وجعل الفهم المشترك مصدراً للمعرفة ؛ ولكن بيرس حين تلقى هذه الآراء التي قال بها ريد حاول أن يعدل فيها ويزعزع الإيمان بها فنظر فيها نظرة نقدية ولذا سمي بيرس إحدى نظرياته « الفلسفة النقدية للفهم المشترك » .

النفس والبدن وغير ذلك من تصورات إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء عليها قضاء تاماً .

يبقى سؤال يحسن بوليم جيمس أن يلقيه في هذا الصدد وهو : هل نفضل عقائد الفهم المشترك على ما يضعه أماننا العلم أو الفلسفة .  
وجواب جيمس حاضر بل ومتسق مع المنهج البرجماتي الذي يقيس صحة الاعتقاد بمدى سلامته لحاجاتنا .

يقول ولیم جیمس : « . . . ولا يمكن القول بأن نموذجاً ما من التفكير صادق صدقاً مطلقاً من دون النماذج الأخرى ؛ ذلك لأن الفهم المشترك [ كنحو من التفكير ] صالح لميدان من ميادين الحياة ، والعلم صالح لميدان آخر ، والنقد الفلسفي لميدان ثالث . أيها أصدق صدقاً مطلقاً سؤال لا يعلمه إلا الله . . . بل إنه لا يوجد فرض أصدق من آخر بمعنى أنه نسخة مطابقة للواقع إذ أن الحقيقة الوحيدة هي الواقع نفسه »<sup>(١)</sup> .

ويقول ولیم جیمس في موضع آخر : « إن الفهم المشترك أكثر المراتب إحكاماً وتماسكاً ، ولكن هل له المنزلة الرفيعة ( على المرتبتين الأخريين ) ؟ يترك ذلك للحكم الشخصي . لكنني أعتقد أنه لا الإحكام ولا التماسك ولا رفعة المنزلة بدليل على الصدق »<sup>(٢)</sup> .

تبين مما سبق أن جيمس يقدر تقاليد الفهم المشترك ويجعلها مصادر معرفتنا ، ولكنه مع ذلك متردد في الأخذ بها على نحو مطلق :  
والسبب في ذلك أن التجربة في تجدد مستمر وتغير وتطور وخلق دائم . ولكي تكون المعرفة صادقة يلزم أن توفق بين معارفنا القديمة — ويسمينا جيمس مستودعنا القديم — وبين التجارب الجديدة .

ويعتقد جيمس — كتجريبي مخلص للوقائع منكر للذاهب المطلقة — أن معرفتنا لا تتكون دفعة واحدة وإنما تبدأ ناقصة وأننا نكتسبها بالتدريج وأننا نعمل

Ibid., p. 191. ( ١ )

Ibid. p. 188. ( ٢ )

على إتمام ما بها من نقص باستمرار . وما دامت التجربة مصدر ثقتنا فيجب ألا نهمل التجارب الجديدة والوقائع التي تمر علينا . وينبغي أن نقوم دائماً بعملية جرد في مخزننا القديم . إن التجارب الجديدة قد لا تتفق والمستودع القديم من عقائد وآراء بل قد تعارضه ، وقد نكتشف بتجربة جديدة أن بعض أجزاء المستودع معارض لبعض . ومن هنا يشعر الإنسان بالقلق وبالحاجة إلى الخروج منه ، ووسيلته إلى ذلك هو التوفيق بين القديم والجديد .

كيف يتم هذا التوفيق ؟

يرفض جيمس أن ننكر القديم من الآراء وننبذها ويرى في ذلك اتهاماً شائعاً يهاجم به البراجماتيون وهم أحرص الناس على الاحتفاظ بالقديم . وإنما يرى - ويقول إنه متفق في ذلك مع شلر وديوى - أن أية محاولة للثورة المطلقة على القديم تؤدي إلى تثبيتته . ينبغي الاحتفاظ بالقديم والسماح للواقعة الجديدة أن تنضم للأفكار القديمة وألا يكون هذا الانضمام مجرد الإضافة ؛ بل أن تضاف الفكرة الجديدة إلى القديمة إضافة تركيبية وترتبط بها ارتباطاً شديداً بحيث يتكون منها جميعاً وحدة جديدة متماسكة .

وينبها جيمس في عملية التوفيق هذه إلى وجوب مراعاة أن يكون تغيير القديم في أضيق الحدود - يقول : « إننا نرم ونصلح ونجلاو الصداً أكثر مما نهدم أو نعيد » .

هذا هو تصور جيمس لمصدر المعرفة وكيف تنشأ وتنمو .

ما الصدق ؟

يبدأ وليم جيمس نظريته في الصدق بتعريفه لكلمة (الصدق) . يقول : «الصدق علاقة بين شيئين : فكرة ، وواقع خارج على الفكرة . وهذه العلاقة أساس هو الأساس التجريبي الحسي لا المطلق المجرد ونعني بذلك أنه يمكننا تعريف هذه العلاقة تعريفاً تجريبياً خالصاً ومن ثم وصفها وصفاً محدداً <sup>(١)</sup> » .



ويقول أيضاً : « يعنى الصدق فى الأفكار مطابقتها للواقع ، ويعنى الخطأ فيها عدم مطابقتها له »<sup>(١)</sup>.

ويحسن — قبل أن أمضى فى شرح هذه التعريفات — أن أوضح بعض أفكار متصلة بنظرية جيمس فى الصدق . سأوضح فكرتين هما : قوله بأن الصدق مرادف للمنفعة ، ومناداته بالنظرية الواقعية فى الصدق .

يعارض وليم جيمس بنظريته فى الصدق ما يراه المذهب العقلى . يرى العقليون أن الصدق غاية معرفتنا ، وأنه ليس من صنع إنسان بل هو شيء مجرد مستقل عن التجربة الحسية ، وهو أزل فى وجوده سابق علينا ، وما علينا إلا أن نسعى إلى معرفته . يهاجم جيمس هذا التصور العقلى للصدق ويرى أن الصدق ليس غاية وإنما هو وسيلة لتحقيق أغراضنا الفكرية والعملية — أى أغراضنا النظرية ومنافعنا فى شئون الحياة ؛ ما يحقق أغراضنا هذه فهو صادق ، وبالا يحققها كاذب . والصدق إنسانى الصناعة يعتمد فى وجوده علينا ، ونحن الذى نقول عن الفكرة إنها صادقة ، وليس الصدق شيئاً ذاتياً من جوهر الفكرة . الصدق فى الفكرة علاقة خارجية عليها ونحن الذين نضيفها أو ننكرها .

« هب أنى فُقدتُ فى غابة ، وأصابنى الجوع ، ثم وجدتُ ما يشبه حظيرة البقر . يهمنى جداً أن أستدل من ذلك على وجود بشر وراء هذه الحظيرة وسيترتب على استدلالى ذاك بأنى سأتابع السير وأنقذ نفسى »<sup>(٢)</sup> . يقول وليم جيمس إن هذا التفكير صادق لأنه مفيد ، أو مفيد لأنه صادق . ويصر ولا يتحرج من إعلانه بأن الصدق والمنفعة صفتان مترادفتان للفكرة . وأراد أن يوضح فكرته فقال : « أسمى الفكرة صادقة حين أبدأ بتحقيقها تحقيقاً تجريبياً ، فإذا ما انتهيت من التحقيق وتأكدت من سلامة الفكرة سميتها نافعة . إن الصدق أعلى مراحل التحقيق ، والفائدة أعلى مراحل الصدق »<sup>(٣)</sup> . ويقصد جيمس

Ibid., Preface (١) .

James, W., Pragmatism p. 203. (٢)

Ibid., p. 204. (٣)

من ذلك أن الذى يحدد الصديق للفكرة هو تحقيق نتائج صدقها وآثارها وفى محيط التجربة الجزئية فإذا كان التحقيق إيجابياً كانت الفكرة صادقة . وسيترتب على صدقها نتائج : منها أنى سأستخدمها فى تحقيق فكرة أخرى أو سأستخدمها فى القيام بسلوك معين . وهذا هو معنى فائدتها ومنفعتها . أخطأ من أخذ فكرة المنفعة فى نظرية جيمس للصديق بمعناها الضيق . فقد كان جيمس يرى أن طلب المعرفة منفعة والفهم الدقيق لحقائق الكون منفعة ونحو ذلك .

والشئ الثانى الذى أردت توضيحه قبل الخوض فى طبيعة الصديق هو تقرير أن وليم جيمس واقعى بالمعنى المعرفى (الپستمولوجى) لا بالمعنى الميتافيزيقى<sup>(١)</sup> . كان يعتقد جيمس أن للعالم الطبيعى وجوداً مستقلاً عنا سواء عرفناه أم جهلناه ، أى لا يعتمد العالم فى وجوده على إدراكنا له ؛ إنه موجود الآن ، وكان موجوداً قبل وجودنا . وسيستمر فى الوجود بعدنا . قل إن جيمس ثنائى فى المعرفة أى أن الذات العارفة والأشياء المعروفة نوعان مستقلان من الكائنات<sup>(٢)</sup> . وتوجد أسباب كثيرة من أجلها رفض أن يتابع المثاليين سواء أكانوا عقليين أو تجريبيين . وجد جيمس أن فى متابعة هؤلاء إنكار لحقائق التاريخ وللتجارب الماضية فى حياة الإنسان . وإثبات هاتين الحقيقتين من جوهر فلسفة جيمس فى المعرفة . يعتقد جيمس أن حقائق التاريخ لابد أن تكون مما نسلم به دون مناقشة ولذا يقول : « . . . لو لم نعتقد بأن موسى كتب الوصايا العشر لصارت كل عبادتنا باطلة ولو لم نعتقد بوجود حقيقى ليوليوس قيصر لما صدقنا شيئاً فى التاريخ » .

( ١ ) الواقعية المعرفية هى الاعتقاد بذات عارفة متميزة عن موضوعات المعرفة ، وإن العالم الخارجى قائم لا يعتمد على الذات العارفة فى وجوده . والواقعية الميتافيزيقية هى الاعتقاد بأن الكليات ليست تجريدات من الوقائع الجزئية وإنما لها وجود حقيقى كوجود الجزئيات . وجيمس واقعى بالمعنى الأول وبيرس واقعى بالمعنى الثانى .

( ٢ ) إن جيمس ثنائى فى المعرفة . ولكنه قال من بعد ذلك بنظريته فى الشعور يدعو فيها إلى أن الفصل بين الذات والموضوع باطل . ويعتقد جيمس أنه ليس متناقضاً فى ذلك بل يرى أنه ثنائى وواقعى وإنما فسر الثنائية تفسيراً جديداً — قال ذلك حين اتهمه برادلى بالتناقض . .

وسيقول جيمس من بعد في إحدى أفكاره المعرفية أن التجارب الماضية جزء أساسي وعنصر هام في الواقع ، إذ يرى أن المعرفة الحقيقية هي توفيق بين العقائد القديمة والعقائد الجديدة وأن التجارب الماضية التي مر بها الإنسان يمكن أن يفسر على ضوءها أفكاره الجديدة .

معنى الصدق :

يقول جيمس إن الصدق مطابقة الفكرة للواقع . وأريد الآن أن أوضح ما كان يعنيه جيمس من الواقع والمطابقة للواقع الذي يتصوره جيمس ؟ كان يقصد به ثلاثة عناصر أساسية : قصد به أولاً الأشياء والحوادث والوقائع الجزئية التي يمكن أن تبدو للحس . وقصد به ثانياً العلاقات الكائنة بين هذه الأشياء والوقائع . إنه اعتبر مذهب هيوم ومل والضعيين ناقصاً في نظرهم إلى العلاقات حيث ردها إلى صياغة العقل لترتيب الأشياء . رأى جيمس أن العلاقات جزء من الواقع الحسي وتخضع للإدراك الحسي كالوقائع سواء بسواء . ورأى جيمس أن العلاقات أنواع ثلاثة : علاقات بين الوقائع ، وعلاقات بين الأنواع ، وعلاقات بين الأفكار . وكان قد تحدث هيوم عن النوع الأول فقط ولوك عن النوع الثالث فقط فجاء جيمس ليتحدث عنهما معاً ليدفع الاتهام بأن لوك أو هيوم لم يوصلا الأفكار بما تمثلها من أشياء ثم أضاف النوع الثالث من العلاقات .

وكان جيمس قد قسم العلاقات تقسيماً آخر فقال إنه يمكن للعلاقات أن تكون متغيرة أو عارضة ، وثابتة أو أساسية . ومن أمثلة العلاقات العارضة العلاقات الزمنية والمكانية ، ومن أمثلة العلاقات الثابتة علاقة العلة بالمعلول ، وعلاقة الأنواع والأجناس بمصادقاتها وكذلك العلاقات الرياضية . ويقول جيمس إن كل علاقة سواء أكانت متغيرة أم ثابتة ، وسواء أكانت بين وقائع أم بين أنواع أم بين أفكار — كلها موضوع للإدراك الحسي المباشر . ولقد علم جيمس أنه قد توجد صعوبة إذا قلنا إن علاقة العلية أو العلاقات الرياضية

موضوع الإدراك الحسى فقال إن العلية تبدو فى تعبير حسى حين نرى العلة تؤدي عملها فيبدأ فى إثر ذلك ظهور المعلول ولاحظ جيمس فى العلاقات العددية شيئاً فريداً هو أنه يكفى إدراكها حسياً مرة واحدة ثم تعمم الحكم بالصدق وليس من الضرورة الإدراك الحسى لكل حالة جزئية . فى الموضوعات الرياضية الصادق مرة صادق دائماً وحين نربط بين هذه العلاقات العقلية المجردة يتكون لدينا ما نسميه نسق الرياضيات والمنطق .

ولوليم جيمس تصور هام للأشياء المادية والعلاقات يبدو أنه أخذه من زميله شارل صاحب البرجماتزم فى إنجلترا والذي سمي مذهبه بالمذهب الإنسانى Humanism يرى جيمس أن الوقائع المادية والعلاقات بينها ليست صادقة ولا كاذبة : وإنما هى أشياء موجودة فحسب . إنها خرساء ونحن الذين نحكم عليها . لا توصف بصدق أو كذب وإنما نظرياتنا عن مصدرها وطبيعتها والعلاقات بين بعض أجزائها وبعضها الآخر هى التى توصف بالصدق أو الكذب . حقاً نحن نخضع للواقع لأنه المصدر الوحيد للمعرفة لكن هذا الواقع خاضع لنا بمعنى ما أى أنه لين مرن قابل للتشكل والتعديل بحيث يوضع على الصورة التى تلائم أغراضنا فى الحياة . ويضرب جيمس مثالا طريفاً فيقول إنه يمكنك أن تعتبر العدد ٢٧ مكعب العدد ٣ أو حاصل ضرب  $3 \times 9$  أو حاصل جمع  $1 + 26$  أو باقى طرح ٧٣ من ١٠٠ أو بطرق لانهاية لها وكلها صادقة . إننا نضيف إلى العالم من صنعنا وكل إضافة مطابقة له وليست واحدة من هذه الإضافات بخاطئة . حين نقول إن أحدهما أكثر صدقاً من غيرها فإننا نقصد الصدق على أساس استفادتنا منها فإذا كان العدد ٢٧ مثلاً عدداً من الدولارات وجدتها فى مكان تركت فيه ٢٨ دولاراً فتكون الواقعة  $28 - 1$  ؛ وإذا كان العدد ٢٧ طول لوحة خشبية أريد أن أصنع منها رفّاً لسبورة طوله ٢٦ فتكون الواقعة  $26 + 1$  وهكذا . إن العالم موضوعات صماء ونحن الذين نصنع المحمولات (١) .



هذا هو تصور جيمس للعالم المادى وما فيه من علاقات ؛ فإذا أضفنا المعارف السابقة والتجارب الماضية التى اكتسبناها من قبل من معتقدات وآراء . نكون قد أتممنا العناصر الثلاثة للواقع .

### معنى المطابقة :

يبقى على جيمس أن يحدد لنا معنى المطابقة . ولم يفهم جيمس المطابقة كما أرادها أتباع نظرية المطابقة التقليدية أى إيجاد نسخة شبيهة بالواقع . وإنما أراد جيمس بالمطابقة معنى جديداً .

(١) حين يسأل جيمس نفسه : متى تكون الفكرة صادقة ؟ يجب : إذا قادتنا إلى مدرك حسى هو موضوعها .

« لو قلتُ لك : ( يوجد شئ ما ) . أصادقة هذه القضية أم كاذبة ؟ بماذا تجيبني ؟ لو قلتُ لى : ( أى شئ تقصد ) . وأجبتك : ( مكتب ما ) . ولو سألتني : ( أين هو ؟ وأشرت بيدي إلى مكان ما ) . ولو سألتني مرة أخرى : ( أوجد هذا المكتب وجوداً مادياً أم أنه مجرد تخيل ) ؟ وأجبتُ بأن وجوده مادى . بل قلتُ لك : أنا أقصد هذا المكتب بالذات ثم نهضتُ وأمسكتُ به وهزتهُ ووجدتهُ أنت كما وصفتُ لك . [ لو قلتُ لك ذلك ] إذن فالقضية صادقة<sup>(١)</sup> »

إن الفكرة صادقة إذا وجهتك إلى إحساس : ويتفق هذا الصدق إذا ارتبطا حدان : حد أول تبدأ منه المعرفة هو الذات الشاعرة ، وحد أخير يجب أن تنتهى إليه المعرفة هو الموضوع الجزئى المحدد . ولقد أثر تطور علم النفس على نظرية المعرفة عند جيمس . يقال إنه أول مناد بعلم النفس الوظيفى . وأراد أن يطبق فكرة الوظيفة فى المعرفة وسنعلم فى الفصل التالى أن جيمس أنكر الوجود الجوهرى للعقل وراء مجموعة من الوظائف بل تعمق فى تطبيق الوظيفة فقال إن للفكرة الصادقة وظيفة تؤديها فإن أدتها كانت صادقة . وظيفة الفكرة الصادقة أنها تنجح work ويقول أحياناً إنها تفيد Pay وتهكم الكثير عليه وقالوا إنه رد الفلسفة النظرية إلى



بين الذات والموضوع . أدرك الجميع إذن أن الهوة محيرة ويلزم عبورها بوثة قاتلة Salto mortale أى قفزة لا تخضع لعقل أو تجربته<sup>(١)</sup> .

جاء وليم جيمس ليملن تفسيراً تجريبياً أصيلاً يمكن وصفه وصفاً حسياً محدداً وإيرهن على أن الصدق ليس علاقة مطلقة وأنه ليس محتاحاً لوثبة قاتلة فقال :

« نظرتي أن المعرفة تتم بالانتقال خلال التجارب الواصلة ( بين الذات والموضوع )<sup>(٢)</sup> . يقصد أنه ينبغي أن نقطع المسافة الكائنة بين الفكرة وموضوعها بخطوات تجريبية واقعية محسوسة ترتبط كل منها بالأخرى مكونة سلسلة مترابطة متصلة تؤدي بك في نهاية الأمر إلى الموضوع المدرك حسياً . لا يرى جيمس أن وصول الفكرة إلى موضوعها كل شيء في المعرفة وإنما يعلق أهمية كبرى على الطريق الذى اتبعته الفكرة في الوصول للموضوع ففكرة التجارب الجزئية المترابطة الواصلة بين الذات والموضوع فكرة أساسية في نظرية الصدق البرجماتية . ويسمى جيمس هذه التجارب بأسماء كثيرة في المواضع المتعددة من كتبه . يقول مرة التجارب الواصلة intervening experiences ومرة التفصيلات الجزئية الوصلة intermediate details ، ومرة التجارب المتوسطة ، بين الفكرة والشئ الجزئى<sup>(٣)</sup> intermediaries .

وقد قلت إن للفكرة الصادقة وظيفة أساسية عند جيمس : هدف الوظيفة أن تسعى إلى المدرك الحسى ؛ ولكن الوظيفة نفسها هي أن تؤدي بك الفكرة إلى تجربة جزئية تسلمك إلى حادثة وهذه تقودك إلى واقعة فواقعة بعدها حتى تقف عند الحد الأخير وهو المدرك . إن هذه التجارب المتوسطة المترابطة ترابط السلسلة المتشابكة الآخذ بعضها برقاب بعض والواصلة بين فكرة وموضوعها هي كل شيء في المعرفة عند جيمس .

وضرب جيمس مثلاً يوضح نظريته : « أفرض إنى جالس فى مكتبى فى

James : Meaning of Truth p. 102.

( ١ )

Ibid., p. 141.

( ٢ )

Ibid., p. 218, 220, 235.

( ٣ )

كبردج . لا شك أن لها صورة في ذهني . . لو سألتني ما المكتبة التي لديك صورة عنها ولم أخبرك بشيء أو لم أنجح في الإشارة إليها أو أن أقودك إليها أو أفرض أنني قدتلك إلى مكتبة وشككت أنها تلك الموجودة في ذهني — حينئذ تنكر على معرفتي بهذه المكتبة حتى لو تشابهت المكتبة وصورتها الذهنية عندي بعض المشابهة لأن المشابهة لا تعني غير الاتفاق ، والاتفاق بين جملة أشياء لا يعني أن الواحد مدرك للآخر . — ولكن إذا أمكنني أن أقودك إلى المكتبة وأن أخبرك بشيء عن تاريخها ومنافعها الحاضرة وإذا وقفتُ فيها وأحسستُ أن فكرتي عنها قادتني إليها وأصبح وصولي إليها غاية فكرتي وإذا كانت الأشياء المقترنة بالصورة الذهنية والمكتبة الفعلية متسقة أي إذا كان كل حد في صورتي مطابقاً لكل حد في المكتبة كلما سرت فيها — إذن أصبحت فكرتي هذه مدركة Cognizant للواقع وأن ما وصلت إليه مدركٌ حسي وكان ذلك عن طريق الانتقال من خلال تجارب واصله مترابطة متصلة . . . أما إذا لم تتوسط هذه التجارب التي انتفل خلالها فلن توجد معرفة»<sup>(١)</sup>.

( ج ) قلتُ إن جيمس عرف الصدق بأنه المطابقة للواقع ، وعرضتُ معنى الواقع وقلت إن معنى المطابقة هو التحقيق التجريبي ، وعني به جيمس الوصول إلى الموضوع عن طريق سلسلة متصلة من التجارب الجزئية تصل بين الفكرة وموضوعها .

الخطوة الثالثة في المعرفة البرجماتية عند جيمس قوله إن صدق الفكرة يحقق الرضا والقبول للإنسان . متى يتم هذا الرضا والإقناع ؟ يتم إذا ما وصلنا إلى المدرك الجزئي المحدد ، وإذا ما وصلنا عن طريق هذه السلسلة المعينة من التجارب بالجزئية .

هذه ثورة جيمس على المطلق والمجرد والتأمل : ليس الصدق علاقة مقدسة خالدة لا فضل لنا في إيجادها ونستقبلها منفعلين بها . وإنما الصدق علاقه بين فكرة معينة وموضوع حسي محدد . إن الصدق تحقيق الفكرة في مجال التجربة :



إنه عملية تجريها نحن على أفكارنا مقابلين الواقع بحيث نصل إلى نتيجة جزئية دقيقة لا غموض فيها ولا عمومية .

إن رضانا عن صدق مجرد تأخذه بشكل مبهم رضا وهمي . إن الذي يرضينا ويقنعنا هو التجربة فإذا وصلنا إلى تجربة جديدة أثرت تجاربنا القديمة وأضافت إلينا ، وتلاءمت مع مستودعنا القديم ، وإذا ما وصلنا إلى شيء أمكن وصفه وتحديده بالفاظ تجريبية . أمكن القول بالرضا والقبول — هذا الرضا والقبول شرط صدق الفكرة أو القضية .

ولكني أريد أن أسأل جيمس : هل يتم هذا الرضا بمجرد اتباع الطريق التجريبي حيث جعله ضرورياً للصدق دون الوصول إلى المدرك الحسي أم أن الرضا لن يوجد حتى أصل إلى المدرك ؟ إن جيمس متردد في الإجابة تردداً ظاهراً : يرى مرة أن الامتناع شرطه الوصول إلى المدرك الحسي فعلاً — يقول : « . . . إن الافتناع ناقص مالم يقدنا إلى واقع يطابقه . إذا لم نجد للواقع وجوداً فلا بد أن نحكم على الاعتقاد بالبطلان والخطأ بالرغم من أي رضا واقتناع <sup>(١)</sup> » ويقول مرة أخرى : « . . . إذا كان الطريق المتوسط بين الفكرة والشيء كافياً مرضياً مقنعاً ، فالفكرة صادقة ، وستظل صادقة سواء وصلنا إلى التحقق (الحد الحسي) أو لا <sup>(٢)</sup> » إنه في المرة الأولى مصر على الوصول لموضوع الفكرة محدداً لكي تكون صادقة . وفي المرة الثانية غير مهتم بضرورة الوصول للموضوع وإنما دعا إلى منهج جديد هو المنهج البرجماتي الذي لا يتهم بإقرار نظرية معينة . وأنا أميل إلى القول بأن الرأي الثاني أصدق من الأول للتعبير عن روح فلسفة جيمس من وجهين :

الأول : أنه صاحب منهج ولا يتبع نظرية خاصة . إن عنايته بالطريق المؤدى إلى الصدق أكثر من عنايته بالوصول إلى نتيجة معينة . إنه كسقراط الذي وإن لم يصل إلى تعريف محدد للعدالة إلا أنه رسم طريق الوصول إليها .

Ibid., p. 195. (١)

Ibid., p. 165. (٢)

الثانى : أنه وضع الأساس التجريبي الخالص لصلة الفكرة بموضوعها — ذلك الأساس الذى يعارض به التفسيرات المطلقة ويكمل تقص التفسيرات التجريبية : وضع سلسلة التجارب الجزئية المحسوسة التى تصل بين التصور وموضوعه دون وثبة مجردة .

### التحقيق غير المباشر :

يبقى سؤال ينبغى أن نعرف جواب جيمس عنه : صدق الفكرة عنده هو تحقيقه لها والتحقيق هو الوصول إلى المدرك الحسى أى التحقيق المباشر . أينكر جيمس التحقيق غير المباشر إذن ؟

إنه يجب بالنفى أى يعتقد بالتحقيق غير المباشر أيضاً يعتبر التحقيق غير المباشر — ويسميه التحقيق بالقوة — صادقاً . ويفسر ذلك بأنه إذا كانت الظروف المحيطة بنا تثبت موضوعاً ما فلا داعى للتحقيق البصرى : إننا نعتقد بوجود اليابان ولو لم نرها لأنها دولة تثبت لنفسها وجوداً فإن معلوماتنا عنها تثبت وجودها ولا شىء عندنا يناقض هذا الوجود . إننا نحكم بأن الساعة المعلقة على الحائط أمامنا مضبوطة ولو أنى لم أختبر آلتها بدقة لأعرف إن كان بها خلل أو نقص . يكفينى أن أحكم بدقتها إن أتفقت مع ساعتى وساعتك وساعة المذيع . ويفسر جيمس نفسه الدافع إلى قوله بالتحقيق غير المباشر بقوله : « أثق بالتحقيق غير المباشر لسببين : الإقتصاد فى الجهود ، ثم إن الأشياء توجد فى أنواع : أقصد بذلك أن كل شىء ليس فريداً فى نوعه لا يشبه شىء آخر وإنما الأشياء مجاميع تتشابه أفراد كل مجموعة ( فى صفات معينة ) فإذا حققنا فكرتنا عن أحد أفراد نوع ما تحقيقاً مباشراً ، فلا مانع من تطبيق هذه الفكرة على الأفراد الأخرى لهذا النوع دون تحقيق مباشر . إن العقل الذى يميز بين أنواع الأشياء ويتصرف طبقاً لقانون الأنواع دون تحقيق مباشر عقل سليم . ولا اعتراض على ذلك<sup>(١)</sup> .

### تطبيق المنهج على الصدق :

هذه هي نظرية الصدق البرجماتية . وبديهي أن يرد السؤال الآتي :  
ما العلاقة بين الاتجاه البرجماتي كمنهج وبينه كمنظرة في الصدق ؟  
أو هل طبق جيمس منهجه على نظرية المعرفة ؟  
في نظرية المعرفة كما عرضتها ثلاث أفكار أساسية : مصدر المعرفة :  
ماهية الصدق وسبيلنا إليه ، العلاقة بين الذات والموضوع .

إن وليم جيمس حين قرر أن مصدر المعرفة الإنسانية عقائد الفهم المشترك  
كان متسقاً مع المنهج تمام الاتساق . لم يبحث في مصدر المعرفة بحثاً نظرياً بحثاً  
ولم يجعل المصدر مبادئ ثابتة وفروضاً سابقة وأسباباً قبلية ؛ وإنما اتصل ببحثه  
بتفكير الرجل العادي واتصف بالصفة الحسية الجزئية المحددة .

وعلاج جيمس للصدق علاج برجماتي بحث : فقد جاءت لمعالجة مصبوغة  
بالصبغة الحسية الجزئية مستندة إلى العمل والسلوك وجعل السلوك المطابق لواقع  
التجربة معياراً للصدق . ويبدو الإخلاص للمنهج جلياً في هجومه على الصدق  
المطلق المجرد، وإقامته على سلسلة الأعمال والوقائع المرئية لنا في حياتنا العملية .  
وحين عرف الصدق بأنه مطابقة الفكرة للواقع وأراد تحديد معنى المطابقة  
استخدم قواعد المنهج البرجماتي فقال : « هب أن هذه الفكرة أو هذا الاعتقاد  
صادق فما الاختلاف الملموس الذي يعمل الصدق في حياة الإنسان الراهنة ؟  
وما التجارب المختلفة التي تنشأ عن صدق الفكرة في مقابل التجارب التي  
ينشأ عنها لو كانت كاذبة؟ وكيف نتحقق من الصدق؟ وباختصار ما القيمة  
الفورية التعاملية للصدق بالفاظ تجريبية<sup>(١)</sup>؟

وتجيب البرجماتزم بوضوح : إن الأفكار الصادقة هي التي يمكننا أن  
نتمثلها ونثبت من صحتها ونتأكد من سلامتها ونحققها . والأفكار الكاذبة هي

التي لا يمكننا أن نتمثلها أولاً أن نثبت صحتها ولا نتأكد منها ولا نحققها . هذا معنى الصدق<sup>(١)</sup> .

ويتبين معنى هذا التعريف بعد الذي قلته فيما سبق : الفكرة المتمثلة هي تلك التي أحدثت تكيفاً بيني وبين الواقع ، وشعوراً بالرضا والارتياح والاقتران بها ، وألا أحس بتضارب أو تناقض بين الفكرة ومعارفي السابقة .

ويزداد تثبتي من صحة الفكرة إذا قادتنا إلى موضوعها المحدد الجزئي الذي يمكن التعبير عنه بألفاظ تجريبية . ونتأكد من سلامة الفكرة لو كان الطريق بين الفكرة وموضوعها طريقاً مقنعاً أي تقودني الفكرة إلى سلسلة من تجارب جزئية معينة ترتبط الواحدة بما بعدها حتى نصل في نهاية الأمر إلى موضوعها الحسي . وهذا معنى التحقيق .

#### اعتراضات وردودها :

(١) لقد ظهرت نظرية الصدق البرجمانية لأول مرة في أحد فصول كتاب (براجماتزم) ، ثم تلا ذلك الفصل عدة مقالات عرضت بشكل مستفيض لتفصيلات النظرية . ووجدت هذه النظرية خصوصاً كان أغلبهم من الفلاسفة العقلين .

وأرى أن نظرية الصدق عند جيمس أفادت كثيراً من هذه الاعتراضات التي وجهت إليها لأن جيمس كان يرد على معظمها رداً مفصلاً مفنداً مزاعم المعارضين . وما من شك في أن كثرة الاعتراضات على نظرية ما في حياة صاحبها ورده بنفسه عليها ودفاعه عن نفسه — ما من شك في أن ذلك يتيح الفرص لإيضاح الغامض والمبهم والمضطرب في نظر الناس بل ويزيد من حجج الدفاع عنها .

ولقد أحسن جيمس وأصاب حين أثبت ردوده على هذه الاعتراضات — مع مقالات آخر يوسع فيها من نظريته — في كتاب خاص سماه « معنى الصدق » نشره في سنة ١٩٠٩ .



ويمكن تركيز أهم الاعتراضات التي وجهت إلى نظرية الصدق في حياة جيمس ، والتي سجلها في معنى الصدق في اعتراضين :  
 اتهامه بالذاتية في المعرفة وبعده عن الموضوعية ؛  
 واتهامه بتجاهل الفلسفة النظرية وتوجيه اهتمامه كله إلى السلوك والحياة .

### البرجماتزم والذاتية :

اعترض كثير من الفلاسفة على جيمس واتهموه جميعاً بالذاتية لما قال إن الرضا عن الفكرة والافتناع بها ، Satisfaction هما اللذان يحددان صدق الفكرة وقالوا إن الرضا والافتناع حالتان ذاتيتان وإذن فالصدق سينبع من الذات وستصبح العقائد الصادقة تأثراً وجدانياً وسيخرج عن الهدف الأساسي للمذهب البرجماتي الذي هو ارتباطنا بالتجربة كمصدر للمعرفة . وزعموا أن نظرية جيمس تجعل عواطفنا مصدر أحكامنا في الصدق والكذب .

وما كان جيمس غافلاً عن ذلك — إنه يقول : إن المعارضين على نظريتي بأنها ذاتية لا موضوعية لا يضطرون إلى القول بأن الصدق في الفكرة يحدده الرضا عنها والافتناع بها وأن هذه مسألة ذاتية — أساءوا فهمها<sup>(١)</sup> .

ويقول أيضاً « . . . لقد كتبت أن الصدق هو الملائم في طريق تفكيرنا كما أن الخير هو الملائم في طريق سلوكنا . وما كنت أتوقع أن يظن بي اتجاه ذاتي حين كتبت إن الصدق مطابقة الواقع وإن الجزء الرئيسي من ملاءمة أي رأى مطابقته لباقي الآراء الصادقة . لقد كان عقلي مشحوناً بالأساس الموضوعي الذي ما كنت أحلم أن يتركه السامعون . إن آخر شيء كنت أتوقعه اتهامى بإنكارى واقعاً خارجياً حين تكلمت في الأفكار ورضانا عنها واقتناعنا بها<sup>(٢)</sup> .

يدل النصان السابقان على يقظة جيمس وبعده عن الذاتية وشعوره بأن بعض تعبيراته فهمت على غير ما كان يقصد . ولقد رد جيمس على هذا

( ١ ) James : Meaning of Truth : p. 155.

Ibid., p: 233-234.

( ٢ )

الاعتراض ، وانحصر الرد في فكرتين : تأكيد أنه واقعي من الناحية المعرفية وتمسكه بالأساس الحسي الجزئي لعلاقة الصدق .

إذا اعتقد مفكر ما بأن الصدق علاقة بين فكرة وموضوعها ، وأن الموضوع متميز من الفكرة نفسها ، وأنه ينبغي أن تشير الفكرة إلى موضوع ما خارج عنها لكي تكون صادقة - إذن فالمفكر قائل بنظرية به موضوعية لاذاتية ؛ وچيمس لم ينكر الواقعي بل يصرح بها تصريحاً ويقول إنه ثنائي وواقعي ، وإن الفكرة صادقة لو قادتك إلى إحساس ، وإنه لا معنى لصدق فكرة لم تقدك إلى موضوعها الجزئي المحدد . فإذا وصلت إلى هذا الموضوع تستطيع أن تشعر برضاك عن الفكرة وقبولك لها واقتناعك بها . وإذن فالرضا والقبول ليسا شيئاً ذاتياً عاطفياً كما زعم الزاعمون وإنما لا يتأنيان بغير الوصول إلى جوهر حسي محدد موضوعي . كأن الرضا والقبول عند چيمس مشروطان بمطابقة الفكرة للواقع الخارجي مطابقة مباشرة وفي ذلك يقول چيمس : « . . . تقرر نظرية المعرفة الاجتماعية البرجماتية وجود واقع ما ، ووجود ذهن ما به أفكار . ويتساءل البرجماتي : ما الذي يجعل الأفكار صادقة على هذا الواقع ؟ ترى النظريات الواقعية الشائعة في المعرفة أن الصدق مطابقة للواقع وهي قضية مبهمة . ويصر البرجماتي على أن تكون ( المطابقة ) محسوسة ، أي يجب أن تشير الأفكار إلى الواقع وتؤدي إليه ولا شيء غير الواقع . . . ويصر البرجماتي ثانياً على أن يكون التحقيق عن طريق توسط أجزاء من التجربة يكون العقل في طرف والواقع في طرف آخر . وينبغي أن يرتبط الطرفان<sup>(١)</sup> » .

« إنني أصادر على قيام واقع مستقل في وجوده عن الفكرة التي تدركه ، وأصادر أيضاً على أن الرضا والإقناع مسير للقرب من هذا الواقع أو الاتصال به . فإذا هاجمتي النقاد واعترضوا على المصادرة الثانية - فإني أواجههم بالمصادرة الأولى<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) James, W., Meaning of Truth p. 191.

Ibid., p. 158.

( ٢ )

تبين مما سبق أنه ليس للرضا والقبول أساس عاطفي ، بل هما أمران موضوعيان حيث لا يمكن اكتسابهما إلا بالوصول إلى مدركات تجريبية محددة . ولقد وجه إلى جيمس اعتراض توضح إجابته عليه موضوعيته الدقيقة . قال المعارض إنه توجد عقائد صادقة لكنه لا يرضى عنها ولا يقتنع بها فهل نعتبرها عقائد كاذبة ؟ وجواب جيمس هو : « يبدو أن في هذا الاعتراض التباساً بين كلمتين : ما هو ضروري indispensable وما هو كاف عن غيره sufficient . يرى البرجماتي أن الرضا والقبول ضروريان في بيان الصدق ولكنهما وحدهما لا يكفيان ، ما لم تقدنا الفكرة إلى واقع يطابقها . إذا لم نجد للواقع وجوداً فلا بد أن نحكم على الاعتقاد بالبطلان مهما كان مرضياً مقنعاً . إننا نعلق الصدق — في صنعنا له — على واقع مستقل : إذا وجد الواقع وجد الصدق وإذا ذهب ذهب<sup>(١)</sup> .

ويصح أن أختتم دفاع وليم جيمس عن نزعته الموضوعية في الصدق بتحديد الذي يقول فيه :

« أريد أن أطلب من المعارض أن يحدد لي تحديداً دقيقاً ما الذي يريده بالصدق الموضوعي المطلق الكامل . وسأتحداه أن يفسر لي قوله تفسيراً معقولاً مما يحىء مختلفاً عن وصفي أنا للصدق لأنه سيجد أن قوله منحصر فيما قلته من تحليل . . إن الصدق الذي لا يتصور صدقاً أعلى منه لفكرة ما هو ما يؤدي بنا إلى مواجهة الموضوع أو الاتحاد به أن نحقق هوية بيننا وبينه . . أنا لا أتصور محتوى موضوعياً لنظرية كاملة في الصدق أقوى من النفاذ إلى حد حسي معين ، ولا أتصور أيضاً أن تستقر الفكرة وتتطور إلا أن يتوفر الإقناع والرضا اللذان تنطوي عليهما الفكرة الصادقة سواء كان ذلك الرضا من الناحية العملية ( الفيزيائية ) أو من الناحية العقلية ( النظرية ) . إن شخصاً ما اكتفى واقتنع بفكرة ما اقتناعاً مطلقاً ، أيطمع في الحصول على صدق أبعد من ذلك ؟ يمكنك الحصول على فكرة ما وتستبعد من ذهنك معنى الاقتناع أو الرضا

المصاحب للتجارب الجزئية ( التي تقودك من الفكرة إلى موضوعها ) وهي جوهر نظريتي البرجماتية ، وأن تعلن أنها صادقة ، وأنها علاقة منطقية ثابتة مستقلة عن كل شيء حتى عن الرضا والإقناع الممكن — يمكنك أن تعتقد بذلك ولكن يبدو لي أنك واقف في الهواء لا على أرض ثابتة<sup>(١)</sup>.

أستطيع أن أقول — نتيجة لما سبق — إن اتهام نقاد وليم جيمس له بالذاتية لم يكن سوى سوء فهمهم لتلك الألفاظ التي استخدمها والتي لم يكن يدركها بمعناها الضيق من أمثلة . الرضا ، والقبول ، والاقتناع ، والكفاية ، والمفيد ، والملائم .

### ( ب ) الصدق علاقة حسية لا مجردة :

ما سبق طرف من إجابة جيمس على اعتراض الذاتية ، والطرف الثاني من الإجابة على هذا الاعتراض نفسه كان متضمناً في رده على الاعتراض القائل بأنه بدد الصدق ذاته حيث استخدم الأساس الحسي له . والواقع أن المعارضين على جيمس هذه المرة لم يكونوا مسيئين فهمه وإنما كانوا قد فهموه جيداً ولكنهم كانوا يخالفونه في الأساس الذي اتخذه .

حمل لواء هذا الاعتراض زميله ومعاصره الفيلسوف برادلي . كان يرى — كزعيم للاتجاه الترنسندنتالي وكمدافع عن الهيكلية الجديدة في إنجلترا — أن الحقيقة ينبغي أن تكون مجردة ، بعيدة عن التجارب الجزئية ، وأن الحقيقة لا تصنع على يد إنسان ، وإنما هي علاقة ثابتة خالده موجودة قبلنا وعليها أن نسعى إليها ولا ينبغي لنا مناقشتها لأنها تنزل منا منزلة التقديس . ولا داعي مطلقاً لتلك السلسلة التجريبية بين الفكرة وموضوعها . الحقيقة شيء مطلق تقفز من الفكرة لموضوعها الحقيقي دون تجارب متوسطة .

كان يشعر جيمس بخطورة اعتراضات برادلي خاصة وأنه لا يستطيع مجاراته في منطقة الجدلي الدقيق . ولذا كان يبذل جهداً ضخماً للرد عليه بعد



ما تبين أنه الخصم العملاق للمذهب البرجماتي .  
أجاب جيمس عن اعتراض برادلي بإصراره على أن يكون الصدق علاقة  
محسوسة وشيئاً يمكن تحقيقه تحقيقاً تجريبياً .

إن الصدق اسم جمع Collective Name لعمليات تحقق كالصحة والثروة  
والقوة . إننا نحن الذين نصنع الصدق كما نصنع الصحة والثروة والقوة في ميدان  
الحياة : فالثروة ليست منحة طبيعية فطر عليها روكفلر أو كارنيجي وغيرهما  
وإنما هي اسم لعمليات حسية معينة يقوم بها بعض الرجال . وكذلك الصحة  
ليست هبة تناها ، وإنما اسم لمجموعة عمليات كالهضم والنوم وتنشيط الدورة  
الدموية وغيرها فإذا أدينا هذه الوظائف اكتسبنا الصحة<sup>(١)</sup> .

والصدق سلسلة من العمليات التجريبية الجزئية المحددة مترابطة متصلة  
تقودك من الفكرة إلى موضوعها . وایس الصدق غير هذه العمليات . لم يعبا  
جيمس بمن اعترض عليه وقال أنه وصف طريق الوصول إلى الصدق ولم يقل  
ما الصدق . وجيمس مصر على أن جواب السؤالين : مم يتركب صدق الاعتقاد  
وكيف نختبر صدق الاعتقاد ؟ جوابهما واحد . ما يجعل الاعتقاد صادقاً هو  
نفسه الوسيلة التي نكتشف بها إنه صادق . بل واعتبر جيمس هذه الخطوة  
ثورة على نظريات المعرفة التقليدية ، مريداً القضاء على الأبحاث في طبيعة  
الصدق — تلك الأبحاث المجردة التأملية التي لا تجدى على الناس شيئاً<sup>(٢)</sup> .

استمع إلى جيمس وهو يعرف لنا كلمة الحكمة : « أفرض أنني قلت  
عن شخص ما إنه حكيم . أنا أفهم من ذلك القول أنه يؤمن على حياته ، ويتدبر  
أمره في المراهنات ، وله بصر نافذ ، ونظر إلى المستقبل . أليست هذه التصرفات  
هي التي كوَّنت الحكمة في الحكيم أم أن الحكمة شيء في ذاته مستقل عن  
هذه التصرفات ؟ قد يقول إنها عادة أصيلة وطبع ثابت في الشخص وإنه

(١) James : Pragmatism p. 218.

(٢) قارن رأي جيمس بكلام الوضعيين المناطقة على لسان الدكتور زكي نجيب في المنطق  
الوضعي حيث يقول : « إن معنى القضية وكيفية إثباتها شيء واحد : . إذا سألنا ما معنى هذه العبارة ؟  
كان سؤالنا معناه بصيغة أخرى : كيف يمكن تحقيق هذه العبارة ص ١٧ .

توجد خصائص في تركيبه الفيزيائي والسيكولوجي تجعله يتصرف كذلك . . .  
ولكن هل من الممكن أن يكون الشخص حكيمًا مع عدم وجود هذه التصرفات<sup>(١)</sup>

### المذهب البرجماتي وتجاهل الفلسفة النظرية :

الاعتراض الثاني الذي وجه إلى جيمس في حياته في نظرية الصدق هو أن نظريته تجاهلت مشاكل الفلسفة النظرية وأنها تسعى جهدها لبناء نظرية في العمل والحياة وأن غايتها تكيفنا مع الواقع فحسب .

وفي هذا الاعتراض تحامل وسوء فهم : أما التحامل فلأن خصوم الحركة البرجماتية يتصورون أن أي معارض للتجريد والتأمل منكر لمشاكل الفلسفة النظرية . وأما سوء الفهم فسببه عدم فهمهم لكلمة « عملي » Practical التي ردها جيمس .

أبدأ بالقول بأنه إذا كان جيمس يجهل الفلسفة النظرية فلم يضع نظرية جديدة في المعرفة ونظرية المعرفة أحد فروع الفلسفة النظرية ؟ بل ولم بحث مشكلة الصدق وهي أعلى مشاكل المعرفة بل هي العتبة التي تنقلنا من المعرفة إلى الميتافيزيقا ؟ ولم أسس ميتافيزيقا خاصة وسوف نعلم أن أبحاثه هنا بعيدة كل البعد عن شئون العمل والحياة ؟

أنكر ولیم جيمس الفلسفة التأملية Speculative ولم ينكر الفلسفة النظرية Theoretic . وكان الشائع قبل جيمس أن الكلمتين تأملية ونظرية شيء واحد ، وجاء هو ليميز بينهما . أنكر التأمل — لا عن إهمال أو تجاهل وإنما أنكره بعد أن تأكد أنه عديم الجدوى ولا يوصل إلى نتائج نظرية . جاء جيمس ليثبت أن المنهج البرجماتي يرى أن كثيراً من المشاكل التأملية ليست مشاكل بل كانت قتالا في هواء ، وليثبت أنه قد يكون الخلاف بين فيلسوف وآخر خلافاً على ألفاظ كما استبان في الخلاف بين المادية والروحانية . تعريفات مجردة جافة لم تفد أحداً ولم تخدم فكرة حين بحثنا في طبيعة المادة وطبيعة الروح أو مصدرها

فأدرك جيمس بذلك أن التأمل مرادف للغامض المبهم وهو يريد أن يكون للفلسفة قيمة وقيمتها في وصولنا إلى نتائج محددة لا غموض فيها ، في وصولنا إلى ربط مشاكل الفلسفة العليا بشئون العمل والحياة :

وهنا حدث سوء الفهم لكلمتي العمل والحياة من جيمس . لم يقصد جيمس بربط الفلسفة بالحياة أن نفيد منها في جمع المال أو تحصيل الشهرة أو الرفاهية المادية ، وإنما كان يقصد بها أنني أستطيع أن أنتقل من معتقد فلسفي إلى سلوك أتبعه نتيجة اعتقادي ، وقد يؤدي هذا السلوك الجديد إلى اعتناق فكرة فلسفية جديدة . مثال ذلك أن في اعتقادي بأن العالم ناقص لم يتم بعد وأنه محتاج إلى من يكمله ، دافعاً لي بالمساهمة في هذا الإتمام وهذه المساهمة جعلتني أدرك أن الإنسان عنصر أساسي في بناء الكون ، وجعلتني أدرك أيضاً أنه يمكن القضاء على مشكلة الشر والنقص بمحاولة التقليل منه وأن التفاؤل خير من التشاؤم — التفاؤل الفلسفي الميتافيزيقي . ويتفق الكثير في أن القول بأن الكون ناقص لم يتم بعد ، والوصول إلى رأى في مشكلة الشر والنقص وفي التفاؤل وحرية الإرادة ونصيب الإنسان في بقاء الكون — يتفق الكثير معنا في أنها مشاكل فلسفية نظرية : بل أقول إنها مشاكل فلسفية عملية بلغة جيمس ؛ فالعملية عنده مرادفة للنظرية — كما سنرى في تحليله لكلمة « عملي » . — ولكن لا مانع من أن تؤدي حلول هذه المشاكل إلى حياة عقلية يتبعها نفع الإنسان وسعادته ورفاهية في حياته اليومية .

« إن أبحاثنا النظرية قد تفتح باباً للسلوك الإنساني من حيث إن الأفكار منبهة للأفعال كما أنها تفسح المجال لتجديد الفكر . ولكن الأغبياء أهملوا البناء البستمولوجي للنظرة البراجماتية ، ركبت فيه النافذة ، ثم ظنوا أن النافذة وحدها هي كل ما هنالك<sup>(١)</sup> »

إن الكلمة التي أثارت المنكرين ضد جيمس ومذهبه هي كلمة عملي Practical حين قال نتائج عملية ، وآثاراً عملية ، وما الاختلاف العملي

وغير ذلك - وفهمها الشعب الأمريكي في ذاك الوقت فهماً متصلاً بحياته اليومية لدرجة أن بيرس أنكر على النقاد الذين وصفوا مذهبه بالمذهب العملي Practicalism - أنكر أن هذه اللفظة عنوان مذهبه وفي غضون هذا الاختلاط أنكر كلمة Pragmatism نفسها التي هي من خلقه وابتكر كلمة غريبة حتى لا يحلو لإخوانه سرقتها هي Pragmaticism .  
فما معنى كلمة Practical عند جيمس ؟

لم يكن يقصد جيمس أن عملي Practical مقابلة لكلمة نظري Theoretic وإنما كان يقصد بها أنها مرادفة للمحسوس ، والتميز ، والواضح الدقيق ، والجزئي ، الفردي المحدد ، والمتعين ، وما له فاعلية وتأثير علينا ، وما هو في متناول إمكاناتنا الحسية - في مقابل المجرد والعام والساكن<sup>(١)</sup> .  
يريد جيمس للمعرفة أن تكون نظرية لكن لا تلك المعرفة المجردة التأملية وإنما المعرفة المحددة المعينة الدقيقة - هذا هو مقصد جيمس من كلمة عملي .  
ومما يؤيد ذلك أن جيمس كان يستخدم كلمة جزئي Particular مرادفة لكلمة عملي . يقول « أقصد بالجزئي ذلك الشيء المحدد الدقيق وأقصد بالنتائج الجزئية ما كان نتيجة عمليات تحليل منطقي واستنباط ومقارنات وبذا تصبح النتائج الجزئية نتائج نظرية بحتة » ويقول في موضع آخر<sup>(٢)</sup> إن (براجماتا) معناها الأشياء في كثرتها Pragmata means things its their Plurality<sup>(٢)</sup>

### نقد النظرية البرجماتية في الصدق :

الاعتراضان السابقان أهم ما وجه إلى جيمس من نقد النظرية للصدق في حياته . ولقد كانت لنظريته خطورتها في تاريخ الفلسفة المعاصرة مما جعل المؤرخين والنقاد يتناولونها شرحاً موجزاً وتعليقاً أو هجوماً . وما ألاحظه أن خصوم تلك النظرية أكثر من أنصارها ، ولم تزد الاعتراضات على النظرية في فحواها

( ١ ) James : Meaning of truth : p. 209 .

( ٢ ) James: Meaning of truth : p. 211 .



ومعناها عن التي وجهت في حياة جيمس : أغلبها حول إنكار أن الصادق هو المفيد ، وإنكار فكرة الرضا والقبول ، وإنكار فكرة النتائج العمالية — وكلها رد عليه جيمس بما فيه كفاية .

لكني أريد أن أقف عند اعتراضين هامين :

(١) الأول اعتراض كلدول : يقول فيه إن جيمس خلط بين الفكرة والقضية ونسى أن الصدق يقال للقضية لا للفكرة<sup>(١)</sup> . في هذا الاعتراض بعض وجاهة لأن ولم جيمس كان يذكر فعلا الفكرة ويقصد بها حكماً أو قضية . وكتابه الرئيسيان في نظرية الصدق (براجماتزم معنى الصدق) مليئان بهذا الخلط . ومن ذلك قول جيمس : « أهم جزء في كتابي (براجماتزم) هو الحديث عن العلاقة المسماة بالصدق التي يمكن أن تنشأ بين فكرة وموضوعها (سواء أكانت هذه الفكرة رأياً أو اعتقاداً أو خبراً) . [من مقدمة كتاب معنى الصدق] . ومن البديهي أن الرأي أو الاعتقاد أو الخبر ليس فكرة وإنما هو حكم أو علاقة بين فكرة وموضوعها . ويتضمن هذا الاعتراض اعتراضاً آخر هو اعتراض على قول جيمس إن الفكرة صادقة إذا كانت لها نتائج عملية .

الواقع أن من الصعوبة أن نقول إن للأفكار نتائج عملية بالمعنى الدقيق الذي يراه جيمس لكلمة عملية . للفكرة موضوع تشير إليه فحسب . أما ماله نتيجة وأثر عملي فهو الحكم لا الفكرة . إن للفكرة موضوعاً والقضية آثاراً ونتائج . ولكن يخل إلى أن جيمس — لو كان موجوداً بيننا اليوم — يدفع الاعتراض بقوله إنه لا يعرف للتصور تعريفاً غير نتائجه العملية . إن شيئاً ما تصدر عنه نتيجة أو أثر بالنسبة لنا هو معناه وليس للتصور معنى غير ما ينتج عنه من آثار . وهذا هو المبدأ الذي أخذه جيمس عن بيرس . ولقد طبق جيمس هذا المبدأ على أمور لم يقبلها بيرس مثل فكرة الله مثلاً . سأقول من

(١) Chaldwell W.: Pragmatism and Idealism. Adams & Blach London 1913.

بعد في فصل خاص إن فكرة الله كتصور يراد له تعريفه فكرة لا معنى لها لها عند جيمس وإنما فكرة الله كحكم له نتائج وآثار علينا أو فكرة الله كوجود يساوي آثاره علينا — هو ما يعنيه جيمس .

### ( ب ) اعتراض إميل برهيه

ويوجد اعتراض آخر بوجهه إميل برهيه إلى ولیم جيمس خلاصته أن ولیم جيمس قدم تعريفين للصدق وهما متباينان . ذكر أن الفكرة الصادقة ما أدت إلى إدراك حسي لموضوعها . ثم ذكر أيضاً أن القضية الصادقة ما أدت إلى نتائج مرضية لحاجات الإنسان سواء كانت هذه الحاجات بسيطة أو معقدة ويرى برهيه أن التعريف الأول : موضوعي حيث جعل الوصول إلى المدرك الحسي معيار الصدق ، وأن التعريف الثاني ذاتي حيث المعيار هو العمل والسلوك . ويتساءل برهيه عن أي التعريفين — وهما متضادان — أقرب إلى روح فلسفه جيمس ؟ ولكي يجيب برهيه على السؤال يرجع إلى تحليل شخصية جيمس فيرى أن جيمس كان تلميذ أجازيس Agaziss أستاذ الحيوان في هارفارد في زمنه والذي لقنه : نخذ كتاب الطبيعة ، وتناول الوقائع بكلتا يديك ، وانظر بنفسك ولا حظ عن كتب . أي لقنه الروح التجريبية ؛ ثم إن ولیم جيمس — من ناحية أخرى — كان ابن هنري جيمس المتشبع بأراء سويدتبرج Swedenberg الصوفي ( ١٦٨٨ — ١٧٧٢ ) . رأى جيمس في تجزيئية الإنجليز جفافاً لا يرضى طبيعته الدينية ولكنه رأى أيضاً أن هجل أدمج الأفراد في الكل فقضى على التجربة التي اعتبرها جيمس أساساً سليماً للبحث العلمي .

هذان هما محورا شخصية ولیم جيمس .

ثم يمضي برهيه في تحليله ويقول إن جيمس وصل في ميتافيزيقاه إلى نتائج أهمها أننا نحيا في كون كله مخاطر ومصادفات ، والقول بخطة موضوعة منذ البدء للكون قول خاطيء ، وليست الحتمية العلمية التي ترى أن العالم خاضع لقوانين ثابتة قولاً صادقاً بالإطلاق ؛ وإنما العالم مليء بالمصادفات

والانحرافات والتقدم تارة والتقهقر أخرى وأن الصدفة عامل أساسي في الكون وأن للإنسان إرادة حرة يستطيع أن يساهم في إكمال العالم وإتمامه .  
ينتهي برهنيه من هذا إلى أن التعريف الثاني للصدق هو التعريف المعبر عن فلسفه جيمس دون الأول حيث إته متجه نحو العمل وإرادة الكون على أن يكون موافقاً لميول الإنسان<sup>(١)</sup>.

والرد على برهنيه سهل . يسير لمن عرف جيمس معرفة دقيقة .  
إن الأساس الذي اعتمد عليه برهنيه في الحكم أساس خاطئ لأنه جعل التجريبية الأصيلة ( وهي التي قالت بالنتائج السابقة عن نقص العالم والمخاطر والمصادفات ) أساساً لنظرية الصدق . ولقد حذر جيمس نفسه من هذا ، فأعلن بصراحة أن التجريبية الأصيلة والبرجماتية نظريتان مستقلتان<sup>(٢)</sup> لا ترتبط إحداهما بالأخرى ولا تعتمد واحدة . على أخرى حيث يقول بنفسه : يمكنك أن تكون برجماتياً دون أن تعتقد بالتجريبية الأصيلة والعكس صحيح .  
ثم إن جيمس لم يذكر تعريفين للصدق وإنما ذكر تعريفاً واحداً ذا شقين ولا خلاف بينهما بل يكمل الواحد منها الآخر .

جعل جيمس صدق الفكرة معلقاً على التحقيق التجريبي لها ، وأدرك التحقيق على أنه الوصول إلى موضوع الفكرة مباشرة . وأدرك التحقيق أيضاً على أن السبيل الذي ينبغي اتباعه وهو الانتقال من الفكرة إلى موضوعها من خلال أجزاء التجربة المتصلة المترابطة — تلك الأجزاء التي تبدأ بالفكرة وتنتهي بالجزئي — ثم أراد جيمس بعد ذلك أن يحلل الطريق الذي اتبعنا في عملية الصدق تحليلاً سيكولوجياً فقال إن وصولنا إلى ذلك واتباعنا ذلك الطريق في الوصول يحقق لنا رضا وارتياحاً واقتناعاً بصحة ما وصلنا إليه ذلك لأن ما وصلنا إليه شيء جزئي محدد واضح لا غموض فيه . والمطلب الإنساني الأول هو الوصول إلى توقعات محددة مدركة إدراكاً حسيّاً تطابق طبيعة الإنسان الحسية وتشبع رغبات أساسية

Brehier, E.: Histoire De La Philosophie — Philos Moderne Tome II. F. 4. ( ١ )

P.U.F. Paris, 1948, pp. 1040-43.

( ٢ ) ميتين الفرق بينهما في مقدمة الفصل الرابع .

فيه مثل حب الاستطلاع وطرده اليأس وأبعاد الشك . . فأتباع الطريق التجريبي الخالص في الصدق يورث هذا الرضا والإشباع لحاجات الإنسان العليا .

أخطأ برهنيه إذن حين اعتبر الوصول إلى الإدراك الحسى هو كل نظرية المطابقة عند جيمس ثم إنه أخطأ كذلك لما اعتبر قاعدة ( العمل ) Action متعارضة مع الوصول للمدرك الحسى إذ ينبغي أن نعمل ونجتهد حتى نصل إلى المدرك أو إلى تغيير المدرك وتكيفة ليخدم مصالحنا — ومصلحتنا النظرية أيضاً .

ج — أستطيع أن أوجه نقداً للنظرية البرجماتية في الصدق . هو أن نظريته ذاتية لا موضوعية ، لا على أساس أنه أدخل الرضا والمنفعة وحاجات الإنسان العاطفية ؛ وإنما على أساس أن القاعدة التي آمن بها في التحقيق قاعدة ذاتية .

إن جيمس مؤمن بالتحقيق الراهن فقط ولم يذكر كلمة في أى من كتبه عن التحقيق الممكن في المستقبل . لقد قال جيمس بالتحقيق غير المباشر ، والتحقيق غير المباشر شيء والتحقيق الممكن شيء آخر : إنه فهم التحقيق غير المباشر على أنه تحقيق وجود أشياء حققها ناس قبانا أو حققنا نحن بعض أفراد نوعها فلا داعى للتحقيق المباشر لكل شيء حيث إن الأشياء في أنواع .

يؤيد ذلك أن جيمس نفسه حين قال بالتحقيق غير المباشر قال إن سبب ذلك الاقتصاد في الجهد واعتقاد أن الأشياء تدخل في أنواع .

والتحقيق الممكن غير ذلك : معناه أن القضية التي لم أستطع أن أثبت صدقها حالا ومباشرة في الوقت الراهن ، لا ينبغي أن أحكم بكنبها وإنما يجب أن أعلق الحكم عليها للمستقبل فقد تأتي تجربة جديدة تؤيدها . إن الشيء الضروري في الحكم أن أتبع المنهج التجريبي المخلص لا أن أحتم الوصول إلى المدرك مباشرة .

وهذا منطق العلم بل وهذا ما يراه التجريبيون المتطرفون — « يرى المنطق الوضعي أنه يكفي أن تكون هنالك طريقة ممكنة للتحقيق من الوجهة النظرية . لكى يكون الكلام مقبولا منطقياً . فإذا قلت إن الوجه الآخر من القمر فيه جبال ووديان فهذا كلام يصلح أن يكون قصيدة على الرغم من أننا الآن لا نملك



الوسيلة الفعلية لتحقيقه لكننا مع ذلك نستطيع أن نتصور المعطيات الحسية التي تقع للمشاهد أو كان الكلام صحيحاً . . لا يهم كثيراً - من الناحية المنطقية - أن يكون إمكان مطابقة الصورة المرسومة للواقع ممكناً فعلاً أو غير ممكن « (١) .

لم يكن جيمس إذن عالماً حين جعل التحقيق مباشراً ولم يسمح بإمكان التحقيق في المستقبل . وما يدل على أن نزعة الرجل غير علمية في هذا الموضع أن العلم الحديث لم يعد يتمسك بضرورة الإدراك الحسي المباشر ، فقد توجد أشياء ، ولا يمكن رؤيتها رؤية حسية مباشرة كالإلكترونات والبروتونات : إن معرفتنا لها مستنتجة من آثارهما . إننا نرى ما تعمله الذرة فقط أما ما طبيعتها وأين هي فليس لنا طريقة لمعرفة بل إن علم الطبيعة يعامل الذرة على أنها رمز أكثر منها جوهراً محدد (٣) .

وقد تقول إن جيمس قال بالنتائج والآثار الصادرة عن الشيء وبذا يكون متفقاً ومنطق العلماء المحدثين . لكني لا أرى ذلك لأن النتائج التي يراها جيمس بنتائج لأشياء موجودة فعلاً يشاهدها هو لكنه يعتقد أن نتائجها هي التي تهمننا فقط وإنما العلم ومنطقه يرى ضرورة بحث عن الشيء حتى ولو لم تكن نتائج موافقة لميول الإنسان . إن جيمس هنا مهتم بما يفيد الإنسان ويوافق ميوله ولا يهم بالصدق نفسه سواء أعاد على الإنسان بأشباع ميوله أم لم يعد .

### مكانة النظرية :

نظرية جيمس في الصدق نظرية جديدة جاءت بقيمة جديدة في مجال المعرفة الإنسانية إذ كان المعروف قبل جيمس نظريتين تقليديتين في الصدق هما المطابقة والاتساق وجاء جيمس بنظرية ثالثة لم يسبقه إليها أحد .

والملاحظ أن كل من يقرأ نظرية جيمس قد يتوهم أنه من أتباع المطابقة لأنه يستخدم لفظ المطابقة بكثرة فيقول إن صدق الفكرة هو مطابقتها للواقع

(١) الدكتور زكي نجيب : المنطق الوضعي . ص ١٨

(٢) Barrett C.: Philosophy p. 74: Macmillan New York. 1936.

وكذبها عدم مطابقتها له . ويقول أيضاً يجب أن تكون المطابقة محسوسة أي يجب أن تشير الأفكار إلى الواقع . ولكنها في واقع الأمر مخالفة لنظرية المطابقة التقليدية بل وثورة عليها ، فمقياس ذلك قول جيمس « ترى النظريات الشائعة في المعرفة أن الصدق مطابقة للواقع وهي قضية مهمة » .

في نظرية جيمس الجديدة ثلاثة خصائص أساسية يعارض بها نظرية المطابقة :

تقول نظرية المطابقة إن الفكرة صادقة إذا حصل العقل في الواقع على نسخة شبيهة مشابهة دقيقة من موضوع الفكرة أو أن الصدق هو حصولنا على نسخة ثانية للعالم الخارجي . وينكر جيمس ذلك أشد الإنكار بل ويعتبر هذا المبدأ تافهاً لا يستحق التقدير يقول : « ما الفائدة التي تعود علينا من إخراج نسخة ثانية ناقصة لشيء خارجي داخل العقل . أعتقد أن في ذلك مضنيعة للوقت . يجب أن يكون في المطابقة شيء جديد : إن الصدق ليس في المطابقة وإنما في إثراء العالم الموجود وإمداده بالجديد . لم لا تكون رسالة التفكير العمل على زيادة العالم والارتفاع به أكثر من مجرد محاكاته . . . إن لوطزة Lotze يحكم على القول القائل بأن الكيفيات الثانوية وهم لا حقيقة لأنه لا توجد مطابقة بينها وبين الأشياء — يحكم بأنه قول غير مقبول . يهمننا أن نعتقد أن الفكر جزء هام من الواقع ، وأن رسالة العالم المادي الناقص أن يثير الفكر ليمده بإضافات جديدة<sup>(١)</sup> » .

الشيء الثاني الذي ثار به جيمس على نظرية المطابقة هو نظريته إلى طبيعة العقل . يرى أتباع المطابقة أن العقل مرآة تنعكس فيها صورة مشابهة للواقع ، وأن العقل منفعل لا نشاط له ، مستقبل فقط للانطباعات الحسية ، ويعكسها في صورة أفكار . ينكر جيمس هذه الطبيعة للعقل استناداً إلى أبحاثه في علم النفس : إذ يرى أن للعقل فاعليته ونشاطه ودوره في الإدراك . — ويرى أن التجريبية الإنجليز ( من لوك إلى ميل ) هي المسئولة عن هذا الاعتقاد ولا يتردد

جيمس في نقدها . ترى التجريبية الإنجليزية أن الأشياء هي التي تعمل في العقل . وأن الإدراك باب ليدخل منه شيء وأن العقل بمثابة حجرة مظلمة لا ترى النور ولكن ترك بها فتحة صغيرة تسمح بمرور آثار العالم المنظور أو بمرور أفكار عن الأشياء .

هذه التجريبية لم تقنع جيمس لكنه عديم الثقة بالمطلق شديد الثقة بالتجربة الجزئية معتبراً إياها الجواب الأخير لكل سؤال فلاذ بالصبر حتى وصل في أبحاثه السيكولوجية إلى أن العقل تلقائي له أصالته وخصوبته . وشجعه اتخاذ هذا الموقف تأييد رينوفييه وهدجسن Hodgson وسجفارت Sigwart ولوطزة . الشيء الثالث الذي ثار به جيمس على المطابقة هو أن الأخيرة تتضمن أن الحقيقة موجودة قبل الإنسان وأن الإنسان يسعى إليها بدليل أن الصدق هو مطابقة الفكرة لشيء موجود قبل الإنسان مستقلة عنه . وهذا واضح المخالفة لمذهب جيمس الذي يرى أن الإنسان هو الذي يصنع الصدق وأن الصدق لم يوجد إلا بمعونة الإنسان وبفعل نشاط عقله واستخدامه للأشياء .

ولم ينس جيمس أن يستعيد فضائل نظرية الاتساق لنفسه فأخذ منها فكرة اتساق الفكرة مع غيرها من الأفكار وعدم معارضتها لها ، واتساقها مع المعارف الماضية والتجارب السابقة التي يؤمن الإنسان بصدقها ، ثم اتساقها مع التجربة الإنسانية الاجتماعية التي يُطلق عليها تقاليد الفهم المشترك .

أخذ جيمس مبدأ الاتساق ووسع فيه كما رأيت ؛ وأنكر منه استناده إلى ميتافيزيقا معينة هو سلاح نفسه بميتافيزيقا تناقضها . أقصد القول بأن الأساس الذي تستند إليه نظرية الاتساق هو ميتافيزيقا الوحدة المطلقة ولقد قام جيمس ليعارض هذا المذهب بمذهبه التعددي .

## الفصل الرابع المذهب التجريبي الأصيل

مقدمة :

لم يكن كل جهد ولیم جیمس الفلسفي إقامة المنهج البرجماتي والنظرية البرجمانية في الصدق ؛ وإنما كانت له نظرية جديدة أخرى لعلها أكثر أصالة وعمقاً وقيمة — هي نظرية التجريبية الأصيلة<sup>(١)</sup>. شغل جيمس بصياغة هذه النظرية الجديدة أثناء انشغاله بالمذهب البرجماتي ، ورأى أنها نظرية مستقلة تماماً عن هذا المذهب وأنه لا يعتمد إحداها على الأخرى . ويقول في ذلك في مقدمة كتابه (برجماتزم) : « . . لا توجد رابطة منطقية بين المذهب البرجماتي — كما أفهمه — ونظرية سميتها بالتجريبية الأصيلة . إن النظرية الأخيرة تقوم على قدميها ، ومن الممكن إنكارها وتظل برجماتيا » .

والملاحظ أن ولیم جیمس لم ير كتاب « مقالات في التجريبية الأصيلة » إذ نشر بعد وفاته بسنتين . كان قد كتب مقالات عديدة في شرح نظريته ، ومات قبل أن يخرجها في كتاب ، وجاء من بعده تلميذه المخلص الذي عني بنشر كل كتبه وإعادة نشر ما نشر في حياته وتقديمها وشرح كثير من آرائه والدفاع عنه — هو رالف بيرى<sup>(٢)</sup> — جاء وجمع بعضاً من المقالات كان

---

(١) عرض ولیم جیمس نظريته الجديدة في التجريبية الأصيلة في كتابين رئيسيين هما : « مقالات في التجريبية الأصيلة » نشر سنة ١٩١٢ وسجل فيه نظريته في الشعور ونظريته في العلاقات وكتاب « الكون المتعدد » ونشر سنة ١٩٠٩ وسجل فيه نظريته في التعدد .

(٢) رالف بيرى (١٨٧٦ — ) أحد الفلاسفة الأمريكيان المعاصرين . بدأ حياته الفلسفية بتأريخ حياة ولیم جیمس بل أسرة هنري جيمس كلها وتأريخ فلسفتهم ويعتبر كتابه عن جيمس وفلسفته أضخم مؤلف عن جيمس وتربو عدد صفحاته على الألفين . وقد أصبح أحد زعماء (المذهب الواقعي الجديد) Neo-Realism منذ سنة ١٩١٢ وله مؤلفاته الكبيرة في المعرفة والمية فيزيقا والقيم .



جيمس قد تركها ورأى أنها تعبر بدقة عن التجريبية المتطرفة ، ونشرها في كتاب ويقول الأستاذ يرى في تقديمه للكتاب : « . . . ليس الكتاب مقالات متناثرة ، وإنما يمكن اعتباره فصولا تعرض نظرية معينة مناسكة تعبر عن مذهب خاص قصد به إلى طلاب فلسفة جيمس بل وطلاب الميتافيزيقا والمعرفة » .

ويمكن تعريف التجريبية الأصيلة عند جيمس بأنها مذهب جديد في تفسير العلاقة بين الذات والموضوع ، أو بين الشعور من جهة والعالم المادى من جهة أخرى ؛ وهى مذهب جديد أيضاً في تفسير العلاقات الكائنة بين الوقائع التجريبية يعارض به جيمس المذهب المطلق والمذهب التجريبي الإنجليزى معاً ؛ ثم هى مذهب جديد أخيراً في النظر إلى الوجود - هو مذهب التعدد . وكثيراً ما قيل إن مذهب التعدد ميتافيزيقا المذهب البرجماتى . وسنجد أن التعدد سيصبح فوق ذلك أساساً لنظريات جيمس في الأخلاق والدين وأمور العقائد .

. جاء في مقدمة كتاب براجماتزم أن التجريبية الأصيلة مستقلة استقلالاً منطقياً عن المذهب البرجماتى ؛ وينبغى أن أوضح القضية بادئ ذى بدء ، إذ ليس هذا الاستقلال بين المذهبين مطلقاً ؛ فكل ما قصد إلى تقريره هو أن نظرية العلاقات التى قال بها في التجريبية الأصيلة بحث مستقل يمكنك أن تؤمن به ، ولا علاقة لإيمانك هذا بأن تكون براجماتيا أو لا تكون . يمكنك أن تكون برجماتيا . وأنت منكر لنظرية العلاقات ولا تناقض في ذلك .

أما في غير ذلك فالعلاقة وثيقة جداً بين المذهب البرجماتى والتجريبية الأصيلة وأول دليل على هذه العلاقة الضرورية قول جيمس نفسه في مقدمة كتابه ( معنى الصدق ) : « . . . أنا مشغول بنظرية أخرى من الفلسفة سميتها بالتجريبية الأصيلة ويبدولى أن لإقامة النظرية البرجماتية في الصدق أهمية كبرى في انتشار التجريبية الأصيلة ، بل تبين هذه العلاقة بوضوح حين

نعلم أن المذهبين يشتركان في كونها منهجاً فلسفياً : رأينا فيما سبق أن البرجماتزم منهج فلسفي ، ويقرر جيمس أن التجريبية الأصلية في أساسها مصادرة منهجية . يقول جيمس : « يبدأ المنهج البرجماتي من مصادرة هي أنه يمكننا تحديد معنى أى اختلاف بين الأفكار بمناقشة النتائج العملية أو الجزئية ؛ كذلك التجريبية الأصلية مصادرة منهجية [ بمعنى أننا ] لا نقبل شيئاً على أنه واقع إلا إذا أمكن لمجرب ما في وقت معين أن يخضعه للتجربة . وينبغي أن يفسح مكان " في عالم الواقع لأية واقعة خضعت للتجربة ؛ وبمعنى آخر يجب أن يكون كل شيء واقعي قابلاً للتجريب كى يكون واقعياً ، كما يجب أن يكون كل شيء خضع للتجربة واقعياً » (١) .

وليست التجريبية الأصلية منهجاً فحسب وإنما هي فوق ذلك نظرية جديدة في العلاقات . ويوضح جيمس هذا المعنى بدقة شديدة حيث يقول في مقدمة كتابه معنى الصدق ؟ :

« . . . تتركب التجريبية الأصلية من مصادرة ، وحقيقة ، ونتيجة عامة . أما المصادرة فهي أن الأشياء التي تكون موضع مناقشة بين الفلاسفة هي الأشياء التي يمكن التعبير عنها بالفاظ تجريبية ( قد توجد الأشياء التي ليست لها طبيعة تجريبية إن شئت ؛ لكنها لا تكون جزءاً من مادة المناقشة الفلسفية ) . أما الحقيقة فهي أن العلاقات بين الأشياء — سواء منها المتصلة أو المنفصلة — موضع للتجربة المباشرة الدقيقة ، كالأشياء ذاتها لا أكثر ولا أقل . والنتيجة المعممة هي أن العلاقات التي تنتقل بها من جزء ما من التجربة إلى جزء آخر منها إنما هي أجزاء من التجربة نفسها ، ولا يحتاج الكون المدرك إدراكاً مباشراً لأي شيء خارج عن التجربة ليربط بين أجزائها » .

إن الاتصال وثيق إذن بين التجريبية الأصلية والمذهب البرجماتي : فكلاهما منكر للتأمل والتجريد اللذين هما دلالات الغموض في نظر جيمس ، وكلاهما متمسك بالجزئي الدقيق المحدد الذي يمكننا إدراكه إدراكاً مباشراً ،

وكلاهما يقف موقفاً وسطاً بين العقلية والتجريبية — عرضنا هذا الموقف في نظرية الصدق ، وسنعرفه في نظرية العلاقات ؛ وهناك ما يحقق الصلة بينهما أكثر مما سبق وهو أن الحقيقة والنتيجة المعممة في التجريبية الأصلية جوهر نظرية الصدق البرجماتية : تقول هذه النظرية أن الصدق عبارة عن علاقة بين الفكرة وموضوعها ، ولا يتم الصدق إلا بالحصول على سلسلة من التجارب الجزئية أو العلاقات المحددة المترابطة التي يمكن إدراكها إدراكاً حسيماً دقيقاً ، والتي تصل بين الفكرة وموضوعها . يمكنك أن تقول أن نظرية الصدق فرع من نظرية التجريبية الأصلية لأنها مؤسسة على نظرية العلاقات .

ولا أريد القول بأن جيمس قال بالتجريبية الأصلية أولاً ثم اتخذها أساساً للنظرية البرجماتية للصدق . لا ، بل الواقع أن فكرة العلاقات كواقعة تجريبية خطرت له وهو يعالج الصدق فانتفع منها ، ثم لما أتم نظرية بالصدق ، لاح له أن يتوسع في العلاقات : فبسط الحديث في العلاقة الإدراكية وغيرها من العلاقات التي تربط الوقائع .

### ح — الدافع إلى التجريبية الأصلية :

وأريد بعد ذلك أن أقول السبب الذي دفع جيمس إلى الخروج على المذهب العقلي ، والتجريبي العادي في العلاقات .

إن مشكلة سيطرت على ذهن جيمس فترة طويلة هي مشكلة الواحد والكثير هل نعتبر الكون — على ما به من جزئيات ووقائع مستقل بعضها عن بعض — شيئاً واحداً أو واقعة واحدة ، على نحو ما رأى أهل الدين حين قالوا بقوة روحية تؤلف بين الأجزاء المنفصلة ، أو كما رأى أتباع المطلق حين نادوا بأن الكون — مهما أدركناه أشتاتاً وتفاصيل — يعبر عن شيء واحد وأن أجزاءه مرتبطة ارتباطاً ضرورياً ؟ أم أن الكون هو كما يبدو جواهر مستقل بعضها عن بعض ، ووقائع منفصلة انفصالاً حقيقياً ؟ تسمى هذه المشكلة بالوحدة والتعدد . ويقال

إن المذاهب العقلية مذاهب واحديه Monism ؛ والمذاهب التجريبية مذاهب  
تعددية Pluralism .

تعرض جيمس لهذه المشكلة ، بل شغل بها منذ بدأ يتفلسف : تعرض لها  
في حداثة عهده حين بدأ يعالج مشاكل الأخلاق ونادى باختيار الإنسان، ورأى  
أن الواحدية تتضمن الجبرية ، والتعددية تتضمن حرية الإرادة ؛ وتعرض لها  
بعد ذلك في كتابه برجماتزم حيث خصص فيه فصلاً كاملاً لتحليل الواحدية  
تحليلاً برجماتياً<sup>(١)</sup> - سأعرض له في حينه - وخرج من هذا التحليل برفض  
الواحدية واتجاهه نحو التعددية .

ثم لما صاغ نظريته في العلاقات في التجريبية الأصيلة غير رأيه بعض  
الشيء : أنكر موقف التعددية بمعناها المعاصر له ، ووقف موقفاً وسطاً بين  
الواحدية والتعددية أو بين العقلية والتجريبية : إن بحث جيمس في الوحدة والكثرة  
أدى به إلى البحث في العلاقات بين الوقائع والحوادث والتجارب ، وأدى به ذلك  
إلى نتيجة هي افتراض أن العالم تعددى لكنه يسعى إلى الوحدة . وأصبحت  
النظرية التعددية الخاصة به أساساً لأبحاث البرجماتزم في الأخلاق والدين .  
إن التجريبية الأصيلة إذن جواب جيمس عن الوحدة والكثرة وسماها تجريبية  
ايعارض بها فلسفة المطلق، وسماها أصيلة ليميزها من التجريبية الإنجليزية العادية  
مثل تجريبيات لوك وهيوم ومل وغيرهم .

قال جيمس في مقدمة كتاب « إرادة الاعتقاد » : « . . . أقول تجريبية  
لأنها تعتبر نتائجها المتعلقة بأمور الوقائع فروضاً معرضة للتبديل في ميدان التجربة  
في المستقبل »؛ وأقول أصيلة لأنها تنظر إلى الواحدية نظرها إلى الفرض وتنكر  
أن تكون الواحدية شيئاً تتضافر كل التجارب لتأكيداها ، مخالفة في ذلك أنصاف  
التجريبيات كالوضعيين واللاأدرية والمذهب الطبيعي العلمي ، وبذا تكون  
التجريبية الأصيلة اتجاهها فلسفياً أو طابعاً عقلياً أكثر منه نظرية .

( ١ ) هذا الفصل هو المقالة الرابعة من كتاب برجماتزم وعنوانها : The One and the Many .



ينكر جيمس رأى العقليين في العلاقات : إنهم ينظرون إلى العالم كوحدة وكل متماسك وتماسكه ضروري ، وأن الكل سابق على الجزء ، وأن الجزء لا يمكن فهمه إلا بارتباطه بالكل الذي يتضمنه ، وأن العلاقات بين هذه الأجزاء لا يمكن إدراكها إدراكاً حياً لأنها داخلة في طبيعة هذه الأجزاء .

وينكر جيمس رأى التجريبية أيضاً في العلاقات حين يصرون على أن العلاقات الفاصلة بين الأشياء هي الأساسية وأن الوقائع منفصل بعضها عن بعض وتظل كذلك إلى الأبد .

استمع إلى جيمس يوضح أساس تجريبيته الأصيلة :

« يميل المذهب العقلي إلى تأكيد الكليات وإلى جعل الكل سابقاً على الأجزاء من الناحيتين المنطقية والوجودية ، في مقابل المذهب التجريبي الذي يهتم أولاً بالجزء والعنصر والفردى ، وما الكل إلا مجموع الأجزاء ، وما الكليات إلا تجريدات .

رأى في الأشياء . أن أبدأ بالأجزاء وأجعل الكليات في المرتبة الثانية من الوجود . إن فلسفتي فلسفة الوقائع التعددية مثل هيوم وأتباعه ، وألا أصل هذه الوقائع بجواهر تتضمنها ، ولا بعقل مطلق يبدعها . ومع ذلك فإن تجريبيتي تختلف عن تجريبية هيوم مما دعاني إلى إضافة كلمة أصيلة . . . وبالرغم من أن التجريبية العادية رأت أن العلاقات الواصلة Conjunctive والفاصلة disjunctive أجزاء من التجربة إلا أنها اهتمت بالعلاقات الفاصلة أكثر من اهتمامها بالواصلة كما ذهب إلى ذلك بركلي وهيوم وجيمس مل وجون مل . فكانت النتيجة الطبيعية لهذه الصورة للعالم ما قام به المذهب العقلي من جهود لتصبح هذه المفارقات ، بما أضافوا من أشياء كالعوامل الترنسندنتاليه ، أو كالجواهر والمقولات والقوى العقلية للقيام بعملية التوحيد »<sup>(١)</sup>.

أراد جيمس إذن أن يسد النقص الذي لم يستطع هيوم وأتباعه أن يملئوه وذلك بتقرير الوحدة بالاستناد إلى التجربة نفسها دون تأمل أو تكلف كما سنرى .

إن ما سبق مقدمة للدراسى التجريبية الأصيلة . فسأدرس هذه النظرية  
لجيمس فى ثلاث نقط :

- ١ - نظرية جيمس فى العلاقة بين الذات والموضوع
- ٢ - نظرية جيمس فى العلاقات بين الأشياء فى العالم الطبيعى .
- ٣ - نظرية جيمس التعددية .

## ١ - الشعور وجود ؟

ما التجربة الأصيلة ؟ أمكن لوليم جيمس أن يعطينا تعريفاً للتجربة  
الأصيلة حين عرض لمشكلة الصلة بين الذات والموضوع . إن عرضه لهذه  
المشكلة هو المثال الوحيد الذى أتى به ليفسر لنا التجربة الأصيلة . وصلة الذات  
بالموضوع فى الواقع مسألة يستمواوچية ، لكنى لم أعرض لها فى نظرية المعرفة  
البرجماتية لأسباب ثلاثة :

لقد خصص جيمس لنظرية معرفته كتابين هما : برجماتزم ، ومعنى  
الصدق ؛ ولم يعرض لنا مشكلة الشعور أو الذات والموضوع فى أىّ منهما ؛  
بل لم يشر فيهما بأية إشارة إليها ؛ ثم إن التجربة الأصيلة شرحت فى عرض هذه  
المشكلة ، لا فى عرض نظرية الصدق ؛ يضاف إلى ذلك اعتقاد جيمس أن  
مشكلة الذات والموضوع من أعلى مشاكل المعرفة فاستعان بها لينتقل من المعرفة  
إلى الوجود أو من الإستمولوچيا إلى الميتافيزيقا .

بدأ جيمس بحثه فى هذه المشكلة بمناقشة اعتقادنا المألوف فى الثنائية  
Dualism : الثنائية القائمة فى الإنسان بين النفس والبدن ، والثنائية القائمة فى  
الكون بين العقل والماده ، والثنائية القائمة فى مواجهة الإنسان بالكون بين الذات  
والموضوع ؛ أو بين الشعور والأشياء المادية الخارجية . لقد اعتقدنا من قديم  
بأن الشعور والعالم الخارجى شيئان متقابلان ومتمايزان ؛ وأن للعالم وجوده الواقعى  
المستقل عنا ؛ وأن للشعور وجوداً وكياناً مستقلاً أيضاً ؛ بل واعتبرنا الشعور

مصدر أفكارنا ومنبعها ، كما أن المادة الأولى أو الذرة مصدر وجود العالم المادى .

بدأت التجريبية الأصيلة من التساؤل الآتى هل الشعور كيان مستقل قائم بنفسه وأنه منبع أفكارنا حقاً ؟ وهل الفصل تام بين ما هو ذاتى إنسانى وما هو موضوعى مادى ؟ ويجب جيمس بالنفى ؛ لا يوجد بالإنسان جوهر نعتبره مصدر أفكارنا نسميه الشعور فى مقابل الجواهر المادية . بل لا يمكن الفصل بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى وأن الاعتقاد بهذا الفصل اعتقاد خاطئ<sup>(١)</sup> . ولقد كان موضوع هذه النظرية الجديدة الثائرة مقالا مشهوراً اعتبر ثورة فى الپستمولوجيا وعلم النفس — عنوانه هل- للشعور وجوده Does Consciousness Exist ؟ نشره جيمس فى سنة ١٩٠٤<sup>(٢)</sup> . وأتبع جيمس هذه المقالة بمحاضرة ألقاها فى إيطاليا. باللغة الفرنسية دافع فيها عن نظريته فى علاقة الذات بالموضوع<sup>(٣)</sup> ولقد بدأ جيمس نظريته بقوله : « لقد فقدت ثقتى فى الشعور ككيان له وجود حقيقى من عشرين<sup>(٤)</sup> سنة ( أى حوالى سنة ١٨٨٤ ) ، كما أعلنت ذلك لتلاميذى من سبع سنوات أو ثمانى ، وأجد الآن أن الوقت قد حان لإنكاره إنكاراً صريحاً على الملأ »<sup>(٤)</sup> .

ما هذه النظرية الثنائية التقليدية التى يهاجمها جيمس ؟

تقول هذه النظرية إن الشعور والعالم الخارجى متقابلان ، وكلاهما جوهر مستقل ، ووصفت الشعور بأنه شىء رقيق بسيط مجرد ، يُعرف معرفة حدسية ، ولا يدرك إدراكاً حسياً ؛ وبذا أصبحت له الصبغة الروحية .

ويذكر جيمس أن الفلسفة الإغريقية والمدرسية دعمتا هذا الاعتقاد ببراهينها المنطقية أو إيمانها الدينى ؛ بل بذل ديكارت جهده الكبير ليميز تمييزه

( ١ ) James : Radical Empiricism p ١-3

( ٢ ) هذه المقالة أولى فصول كتاب التجريبية الأصيلة .

( ٣ ) عنوان المقالة بالفرنسية La notion de la Conscience وهى الفصل الثامن من كتاب التجريبية الأصيلة .

( ٤ ) James, Radical Empiricism, p. 2.

الأساسي بين النفس والبدن ، وأبان أنهما من ماهيتين متباينتين : فجعل ماهية النفس الفكر ، و ماهية المادة الامتداد .

ولقد جاء كنط ليضع مكان الشعور ما سماه « الذات الترنسندنتالية » (١) وتطرف الكنطيون المحدثون في الاعتقاد بالشعور حين قالوا إنه ضرورة يستمولوجية وإن لم يوصل بعد إلى دليل مباشر على وجوده وأن الشعور يدرك الأشياء في الزمان لكنه هو ذاته خارج عن الزمان .

ويرى جيمس أن هذا الاعتقاد تعدى الفلسفة إلى علم النفس : أننا لا نزال نعرف علم النفس بأنه علم وقائع الشعور أو علم ظاهراته . بل لا يزال علم النفس - الذي يدعى تمسكه بالمنهج العلمي - يقبل وقائع الشعور موضوعاً لبحثه ، ويقابل بينها وبين الوقائع المادية .

ويلاحظ جيمس ما هو أكثر من هذا : إنه يرى بعض الفلاسفة المعاصرين مترددين في إنكاره رغم أنه لا توجد أدلة معقولة لإثباته : ويستند جيمس في ذلك إلى قول لجورج مور G. Moore : « حين نركز انتباهنا في الشعور لنعرف ما هو بوضوح ، لا نجد له أثراً ، وكأنه عدم : وإذا حاولنا أن ننعكس على أنفسنا لنلاحظ إحساساً باللون الأزرق مثلاً فإن كل ما نراه هو اللون الأزرق ، ويبدو العنصر الآخر كما لو كان معدوماً ، وبالرغم من ذلك فيجب أن نميزه وأن نعلم أنه يوجد شيء يستحق البحث عنه » (٢) .

هذه هي النظرية التي جاء وليم جيمس لإنكارها : جاء لينكر الشعور بعنصر جوهرى له وجود مستقل وكشئى وروحى في الإنسان يستقل عن البدن ، وكشئى يتميز من العالم الخارجى . أنكر جيمس الشعور بهذا المعنى لأنه

( ١ ) الذات الترنسندنتالية - عند كنط - هي الذات التي تعرف معرفة قبلية وذلك لأن فيها مقولتي الزمان والمكان وسميت ترنسندنتالية لأنها ذات مجردة بها تصورات قبلية تصب فيها الموضوعات الخارجية لكي تدركها الذات المحسوسة في عالم التجربة . وظيفة تلك الذات أنها مصدر المقولتين وأنها توجد بين أشتات التجربة الحسية ليتم الإدراك .

( ٢ ) Mind, 1903 p. 450. Quoted from Radical Empiricism p. 5.



رائد الحركة البرجماتية وحامل لواء الدقة والتحديد فما لا نستطيع تحقيقه تحقيقاً تجريبياً قلاً وجود له .

« نظرتي [ في العلاقة بين الذات والموضوع ] هي أنه إذا فرضنا وجود مادة أولية في العالم تتركب منها كل الأشياء ونسميها بالتجربة الأصلية فإن المعرفة يمكن تفسيرها بأنها العلاقة الخاصة بين جزء من التجربة وجزء آخر منها ، وأن هذه العلاقة ذاتها جزء من التجربة الأصلية : أحد حدودها هو حامل المعرفة أو الذات العارفة ، وحدتها الثاني هو الشيء المعروف »<sup>(١)</sup>.

ينكر وليم جيمس وجود هيولى أولى يتكون منها العالم الطبيعي كما ذهب إلى ذلك أرسطو مثلاً ، وإن شئت الدقة قلت إن جيمس لم يتعرض للبذرة الأولى للكون لا بإثبات ولا بإنكار ، وينكر كذلك وجود شيء نبعت منه الأفكار هو الشعور . وبمعنى آخر ينكر جيمس أن مصدر الشعور متميز عن مصدر العالم الخارجي وأن الشعور متميز من هذا العالم . ويقرر جيمس أن الشعور والعالم الخارجي مظهران لشيء واحد أساسي يمكن تسميته بالتجربة الأصلية . تبدو هذه التجربة في صورتين : تبدو مرة على شكل تفكير ، ومرة أخرى في صورة شيء مادي<sup>(٢)</sup> .

وإن شئت تعريف التجربة الأصلية بعد ما سبق قلت إنها « الهيولى المحايدة » أي المادة السابقة على كلا الفكر والأشياء . يمكن أن يرد كلا الفكر والأشياء إلى مصدر واحد نبعا منه هو التجربة الأصلية . حين نرى التجربة التي أمامنا تدوم في زمن ما ومكان ما وتؤثر فيما حولها أو تتأثر بما يحيط بها من أشياء نسمى هذه التجربة جزءاً من العالم الطبيعي ؛ وحين تصبح هذه التجربة نفسها تصوراً أو ذكرى أو تخيلاً أو انفعالا نسميها جزءاً من العالم النفسى . ويتساءل جيمس عما إذا كنا نفرق بين فكرة عن شيء ما وشيء يقابل فكرة ما ، ويجيب بالنفي ويقول إنهما شيء واحد . « مصدرهما واحد ، بل إنه

James, W., Radical Empiricism p. 4. (١)

Ibid., p. 10. (٢)

نسبيج التجربة بوجه عام : تبدو مرة واقعة فيزيائية ومرة أخرى واقعة من وقائع الشعور<sup>(١)</sup> :

وينتهي جيمس - على أساس هذا التحليل - إلى أن من الصعوبة الكبيرة بمكان أن نميز تمييزاً حاسماً بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي . واعتقد أن الذات والموضوع أو الإنسان والعالم - من حيث عملية المعرفة - ليسا عنصرين وإنما حدان متضايقان : حين نذكر أحدهما ينبغي ألا نهمل الآخر - إنهما شطرا تجربة ، ذات تركيب مزدوج .

وليم جيمس حريص على توضيح أفكاره عن طريق ضرب الأمثلة الحسية ومن الحياة اليومية - وهذا الموقف هو الذي جرّ عليه اتهامه بالذاتية وبأن فلسفته عملية تخدم منافع الرجل العادي وليست تقول شيئاً في مشاكل الفلسفة النظرية .

يقول لك جيمس : تصور أنك جالس في حجرتك المحتوية على مكتب ومنضدة وكراسي ونحوها . إنه توجد واقعة بسيطة أو تجربة أصيلة يمكنك أن تسميها تجربة الحجرة ، أو واقعة الحجرة . بدت هذه التجربة في صورتين في وقت واحد : بدت في صورة شيء فيزيائي له علاقاته بسائر الحجرات في المنزل ، وله خصائصه المعنية كالوجود في المكان والدوام في الزمن ، وخضوعه للقوانين الطبيعية : أي إذا اندلعت نار مثلاً في الحجرة التهمت ما بها من أثاث - هذه الصورة من التجربة الأصيلة لك أن تسميها الموضوع الفيزيائي ؛ وتبدو تجربة الحجرة في نفس الوقت في صورة أخرى هي مجموعة الإحساسات والتصورات والذكريات ؛ وتطلق على هذه الصورة من التجربة لفظ ( تفكير ) . إنهما صورتان من حجرة واحدة لا حجرتان ؛ أو تجربة واحدة بدت في مظهر ذاتي نفسي مرة ، وفي مظهر موضوعي مادي مرة أخرى<sup>(٢)</sup> . يتضح لنا من هذا المثال أن الخط الفاصل بين الحجرة كفكرة ذهنية ،

Ibid., pp. 229-230. ( ١ )

James : Radical Empiricism p. 12, 227-9. ( ٢ )

والحجرة كشيء مادي غير موجود . ومعنى ذلك أنك لا تستطيع أن تجيب إذا سألتك متى وأين تنتهى الحجرة كفكرة وتبدأ الحجرة كشيء مادي ؟

يرز جيمس هذا الاختلاط بين الذات والموضوع أو بين الفكرة وما تدل عليها فيقول ضمن محاضراته في إيطاليا دفاعاً عن نظريته :

« . . . إذا فكرت الآن في قبعتي التي تركتها في الصوان فأين التغيرات والتباين هنا ؟ أين القبعة كفكرة وأين هي كمادة ؟ إذا كانت القبعة موجودة في الصوان فإن الأمر لا يتطلب مني أكثر من مد يدي إليها ( لأكون فكرتي عنها ) . وبنفس الطريقة لا يتطلب مني القبعة كفكرة أكثر من أن أتجه خطوات نحو الصوان وأخذها . الفكرة الموجودة عندي قائمة حتى تحضر القبعة المحسوسة ويظلال في اختلاط تام . . . حقاً إن الصورة الذهنية متميزة من الشيء المادي نفسه — لكن لا يوجد ما يدعو لاختلافهما في الطبيعة الأساسية . إن الفكر والواقع واقعان لعنصر واحد — عنصر التجربة بوجه العموم » (١).

وضح لنا جيمس إذن معنى التجربة الأصيلة . وأنكر أن الفكر مبدأ أول بعيد عن التحليل ، وأنكر أن يسند إليه تقديس ، أو يوصل بجوهر روي نتعلق به اكنا لا نستطيع تفسيره بالتجربة — وأنكر جيمس أيضاً أن الفكر والمادة لا متجانسين وأنهما لا يتقابلان . أنكر جيمس ذلك ؛ ولا حظ أن التفرقة بين الفكر والمادة ليست طبيعية وإنما هي مصطنعة أي نادى بها الناس حين تقدمت العلوم وتقدم التفكير الفلسفي . وشرح ذلك بقوله إن علم الطبيعة أراد أن يفصل عن علم النفس فقال بصفات موضوعية للمادة . ولقد فرق لوك أيضاً بين الصفات الأولية والصفات الثانوية ليجعل للمادة صفات جوهرية مستقلة عن الإنسان سواء أ تعرضت لمعرفته أم لا . لكن المعرفة في حالتها الأولى وتركيبها الأساسي شيء واحد يختلط فيه الذاتي بالموضوع (٢).

Ibid.: p. 215-16. (١)

James : Radical. Emp. p. 219. (٢)

وكان جيمس سعيد الحظ في أن أحاط به عدد كبير من معاصريه  
المعترضين عليه ، فكان يدرس اعتراضات الخصوم ، ويرد عليها في كتبه  
فيوضح بها آراءه ، غير أن جيمس كان واسع الخيال حين يكتب فكرة جديدة  
يتخيل اعتراض الناس عليه فيدونها ويرد عليها .

١ - يرى جيمس أن معترضاً لو قال إن في نظريته تناقضاً بمعنى أن شيئين  
مختلفين لن يحدثا في وقت واحد ، فإن جواب جيمس حاضر . « إن وجود  
نقطة في تقاطع خطين يجعلها على كلا الخطين في وقت واحد أبعد ذلك تناقضاً ؟  
إن التجربة الأضيلة للحجرة مكان تقاطع عمليتين مختلفتين في وقت واحد .  
ننكر وجود حجرة واحدة تظهر مرة في صورة ذاتية كفكرة ، ومرة في صورة  
موضوعية كمادة ، ولم ننكر أن شيئاً ما قد يكون مرتفعاً ومنخفضاً ، أو كبيراً  
وصغيراً ، أو حسناً ورديئاً في وقت واحد ، على حسب علاقاته بالأشياء الأخرى  
المتصلة به . أو المجاورة له - قد يكون مرتفعاً بالنسبة لشيء منخفض بالنسبة  
لآخر وهكذا (١) » .

أظن أن التناقض غير موجود في وجود التجربة في صورتين مختلفتين في  
وقت واحد ، لأن وجودها هو كذلك على نحو مختلفين . ولكني أظن أن جيمس  
أخطأته سلامة التشبيه بين التجربة كفكرة ومادة من جهة ، وبين الشيء المرتفع  
والمنخفض في وقت واحد من جهة أخرى . أقصد القول بأن حكمي على الارتفاع  
والانخفاض أو الحسن والرداءة في شيء ما إنما قام على أساس مشاهدتي لمظهر  
واحد في أشياء متعددة : أشياء متعددة اتفقت في أنها مادة واحدة فصحت  
المقارنة . ولكن كيف أقارن فكرة بمادة وهما شيان أو حتى هما مظهران مختلفان ؟  
٢ - ولقد اعترض معترضون على جيمس بأن قوله في الشعور تنكر  
للواقعية الپستمولوجية التي نادى بها في نظرية المعرفة .

الواقع أن جيمس واقعي أو ثنائي فيما يختص بالمعرفة . حقاً يبتدو من أول



وهلة أن القول بالاختلاط التام بين الذات والموضوع والاتصال بينهما يتضمن إنكار الثنائية ، ولكن اعتقد جيمس بوجود العالم المادى وجوداً جوهرياً مستقلاً عن الإنسان واعتقد أيضاً بوجود الشعور - لكن لا كجوهر مستقل يعتبر مصدراً للفكر وإنما يوجد الشعور كوظيفة فحسب . وقصد بها وظيفة المعرفة .

ويقول جيمس : « أخشى أن يبدو بما أقول بطلان إنكارى للشعور لأن فيه بطلاناً للتفكير ذاته . وأوضح رأيي بأنني أقصد فقط إلى إنكار الشعور بوجوده كيان مستقل ، ولكنني أصر إصراراً أكيداً على وجوده كوظيفة . إنه لا يوجد مادة أولى تنشأ عنها أفكارنا بل إن المادة الأولى ( لأفكارنا ) هي نفس المادة التي صنعت فيها الأشياء المحسوسة . توجد وظيفة في التجربة تقوم بها الأفكار - هذه الوظيفة هي المعرفة » (١).

ويقول في موضع آخر : « أنا لا أنكر الثنائية ، ولكني أفسرها تفسيراً آخر : لا على أنها سر غامض بل على أنها شيء محسوس ممكن التحقيق . لقد أصبحت المسألة مسألة علاقات فحسب - علاقات موجودة وجوداً خارجياً لا داخلياً . توجد تجربة واحدة ويمكن تحديدها » (٢).

لم ينكر جيمس إذن وجود الشعور مثل واطسن مثلاً وإنما أنكره كجوهر مستقل : أنكره باسم التأمل والتجريد والاستناد إلى شيء لا دليل عملي ملموس له كان سعى جيمس لإنكار الشعور سعيّاً « برجماتياً » بحثاً حيث يضع مشكلة الشعور وضعباً جديداً : ليس كياناً وإنما هو وظيفة تقوم بها الأفكار . إنه مؤمن بالثنائية حيث هو مؤمن بالعارف والمعرفة ، وإنما أراد أن يضع العارف وضعباً حسياً مقبولاً : أراد أن يثبت للمعرفة وجوداً دون إثبات جوهر غامض اسمه الشعور نعتقد بوجوده ولكن لا سبيل لنا لمعرفته . « أستطيع أن أعرف عملية المعرفة بأنها طريق يؤدي بنا إلى مدركات من خلال مجموعة من التجارب الواسطة التي يمدنا بها العالم » (٣).

(١) James : Radical Emp. p. 3.

(٢) Ibid. p. 10.

(٣) Ibid., p. 25.

لعل جيمس قلب المشكلة وحول طريقها عن طريقها التأمل المألوف :  
 كنا نسأل : ما الشعور وماهيته ؟ فجاء جيمس ليسأل : ما المعرفة وطبيعتها  
 ويجب أننا عملية ننتقل بها من فكرة إلى موضوعها من خلال تجارب معينة .  
 أنكر جيمس المثالية حتى مثالية بركلي ذلك الذى رأى أن المادة ليس  
 لوجودها معنى إلا بوجود إحساساتها فى أذهاننا . لقد قلب جيمس المشكلة إذ  
 جعل الذهنى جزءاً من التجربة الحسية فقال إن الفكرة تجربة وظيفتها أن  
 تقودك إلى تجربة أخرى وهذه تقودك إلى تجربة أخرى وهكذا حتى تصل  
 إلى موضوعها الحسى .

وعلى هذا الأساس أستطيع أن أنى قول القائلين بأن برجماتزم جيمس يمكن  
 تسميتها البركلية الجديدة Neo. berkeleyanisme <sup>(١)</sup> وإنما يمكن بشيء من  
 التجوز تسميتها بالهيومية الجديدة Neo. Humisme .

٣ - وهناك اعتراض ثالث لعله أهم من سابقه هو : « إذا كان للأفكار  
 والموضوعات المادية أصل واحد فلم هما متباينان ، والتباين واضح ؟ فالتجربة  
 - كشيء مادي - ممتدة ، وكتفكير لا تشغل مكاناً . إن التجربة من حيث  
 هى مادة فإنها حمراء صلبة ثقيلة مثله . ولكن من سمع عن تفكير أحمر  
 أو صلب أو ثقيل - فى ذلك تناقض لا ينقذنا منه إلا الثنائية الحاسمة بين الفكر  
 والموضوع » <sup>(٢)</sup> وجواب جيمس على ذلك جديد أصيل . إنه ينكر أساس  
 الاعتراض وهو أن الفكر والشيء متباينان متنافران لا متجانسان - ذلك  
 الأساس الذى قامت عليه فلسفة ديكرت . يعتقد جيمس أن الفكر متصل  
 بالزمن كالأشياء تماماً ، وكذلك للفكر أجزاء على نحو ما . للفكرة وقت تظل فيه  
 ثابتة وفى وقت آخر تُنسى ؛ ويمكنك أن تقسم الفكرة إلى نقط أو عناصر كما  
 تقسم الشيء إلى أجزاء .

(١) Jean Wahl. Les Philosophies Pluralistes D'Angleterre et D'Amerique p. 76.

Paris, Alcan. 1920.

James : Radical Emp. p. 28.

(٢)

ويقول جيمس : « أ لم نرتب الأفكار في أنواع كالأشياء بمعنى أننا نرتبها في مجاميع تنظمها ونقارن بينها ؟ أ لم نحمل صفات على فكرنا كما نحمله على الأشياء : أ لم نصف فكرة ما بأنها بسيطة أو معقدة كالأشياء نفسها ؟ أ لم نقل إن الأفكار جميلة أو عميقة أو حكيمة أو غامضة أو مضطربة أو دقيقة أو مقبولة لدى العقل أو عامة أو جزئية . . . إن لأشياء والأفكار المدركة لها تمتزجان امتزاجاً شديداً لدرجة أنه لا يمكنك أن تقول متى تبدأ إحداها وتنتهى الأخرى » (١) .

ويعترض جيمس على ديكارت في إنكاره الامتداد على الفكر ويرى أن الصورة الذهنية لأي شيء ممتد يجب أن يكون لها امتداد الشيء نفسه . والفرق بين الامتداد الذاتي والموضوعي فرق في العلاقة — علاقة الواحد منهما بالسياق المحيط به . ويقصد جيمس من ذلك أن الأفكار الممتدة لا تؤدي إلى نظام دقيق يربط الواحد منها بالآخر في حين ترتبط الأشياء الممتدة في العالم الطبيعي بعضها ببعض بعلاقات ثابتة بحيث تتكون منها وحدة هي المكان . إن العالمين — النفسى والمادى — لا يختلفان في صفة الامتداد فنقول إن الشيء ممتد والفكر لا ممتد وإنما يختلفان في العلاقة بين الممتدات الكائنة في كل منهما (٢) .

#### هـ — خلاصة النظرية :

هذه هي نظرية جيمس في الشعور وفي علاقة الذات بالموضوع في المعرفة . خلاصة ما يقول إنه ينكر الشعور أو العقل كجوهر وأن له كياناً قائماً بنفسه تصدر عنه وتنبع منه أفكارنا ، وأنه أشبه بمصادرة أو مبدأ أول ينبغى الاعتقاد به ابتداءً ؛ للشعور وجود حقيقى إذا كان يقصد به أنه وظيفة تقوم بها الأفكار للقيام بعملية المعرفة .

ويقول جيمس أيضاً أن الفصل بين الذات والموضوع فصل مصطنع وغير

(١) Ibid.: p. 29-30.

(٢) Ibid.: p. 31.

طبيعي — وليس من طبيعة الأشياء والأفكار . الفكرة والشئ : المادى طبيعة  
واحدة يزدان ههنا إليها — هي ما تشفى للتجربة الأصلية . . .  
ولئن سألنا ولیم جیمس ما هي التجربة الأصلية وم تصنع ، ومن أي  
شئ تتركب ؟ لأجاب بقوله : « لا توجد مادة غامضة تصنع منها التجربة .  
توجد مواد كثيرة كما توجد طبائع في الأشياء الخاضعة للتجربة : لو سألتني م  
يصنع أي جزء من أجزاء التجربة فإن جوابي دائماً هو أنها تصنع مما يبدو :  
من المكان والكثافة ومن وصف سطحه ولونه وثقله ونحو ذلك . إن التجربة اسم  
مجموع لكل هذه الطبائع الحسية . ويبدو أنه لا يوجد عنصر كلي تصنع منه  
الأشياء . ( فيما عدا الزمان والمكان — وإن شئت للوجود ) <sup>(١)</sup> .

هذه هي نظرية ولیم جیمس في وجود الشعور وفي علاقة الذات بالموضوع  
وفي رأيه في الثنائية والواقعية . وكان لها دوى هائل في ميادين الفلسفة وعلم النفس  
فقد أثني عليها نورث هويتهد ثناء عظماً وقال إن التصور الوظيفي للشعور أحدث  
ثورة في علم النفس والفلسفة شبيهة بالثورة التي أحدثها كوجتوديكرت <sup>(٢)</sup> .  
وقال برتراند رسل يقرظ مقالة ( هل الشعور وجود ) : « . . أنا مقتنع  
بأن ولیم جیمس على حق فيما قال [ غدم الفصل التام بين الذات والموضوع ]  
ويستحق لذلك أن يأخذ مكانته الممتازة بين الفلاسفة . ولقد كان رأيي في  
الموضوع مخالفاً له ، حتى أقنعتني هو — ومن اتفقوا معه — بصحة نظريته . <sup>(٣)</sup> »

### التجريبية الأصلية نظرية جديدة في العلاقات

قلت إن جيمس تأثر على المذهب العقلي وما ينطوي عليه من اعتقاد  
بالمطلق ، ولكنه لم يرض كذلك عن المذهب التجريبي المألوف . لقد بحث  
في العلاقات واتخذ موقفاً معيناً منها . التجريبية الأصلية تتميز بنفسه من المذهبين

( ١ ) James, W., Radical Empiricism p. 26.

( ٢ ) Thilly & Wood, A. History of Philosophy p. 607. Henry Holt N.Y. 52.

( ٣ ) Russel, History of Western philosophy, p. 812. N. Y. 1945.



العقلي والتجريبي المؤلف على السواء : وفي ذلك يقول : « . . . رأي في الأشياء أن أبدأ بالإجراء وأجعل الكل في المرتبة الثانية للوجود . إن فلسفتي فلسفة الوقائع التعددية مثل دافيد هيوم وأتباعه ، وألا أصل هذه الوقائع بجواهر تتضمنها ، وألا أصلها بعقل مطلق يخلقها . ولكن تجريبيتي تختلف عن تجريبية هيوم مما دعاني إلى إضافة كلمة أصيلة » (١) .

ويبدو أن وليم جيمس كان يعتبر نظريته الجديدة في الشعور وتفسير العلاقة بين الذات والموضوع حلقة وصل بين نظريته في المعرفة وآرائه في الميتافيزيقا . ورأيه الميتافيزيقي لم يكن تحليقاً في سماء الفروض عن مصدر الكون مثلاً وإنما هي نظرية في العلاقات ونظرية أخرى في التعدد .  
 . وأنبه — قبل البداية في بسط نظرية العلاقات عند جيمس — إلى أنه لم يبحث في العلاقات كما هي معروفة في المنطق المسمى بمنطق العلاقات (٢) لم يكن بحث جيمس في العلاقات كعالم رياضي ولا كرائد من رواد المنطق الحديث . وإنما كان بحثه فيها بحث عالم طبيعي وفيلسوف تجريبي .

بحث جيمس في العلاقات الكائنة بين الظاهرات الحسية والوقائع التجريبية فحسب . ويقول في ذاك :

« . . . لكي يكون المذهب التجريبي أصيلاً يجب ألا يُقبل عنصر لا يخضع للتجربة خضوعاً مباشراً ، وألا يُستبعد عنصر خاضع للتجربة خضوعاً مباشراً . وترى هذه الفلسفة أن العلاقات التي تربط التجارب علاقات خاضعة للتجربة وأن أي نوع من العلاقات التجريبية علاقات واقعية كأي شيء في العالم » .

(١) . James, W., Radical Empiricism p. 41.

(٢) العلاقات أنواع مختلفة كما سأقول من بعد . وأحد هذه الأنواع العلاقات المنطقية وهي موضوع منطق العلاقات . ومن أمثلة هذه العلاقات الذاتية والانعكاس والتماثل والتعددية وعلاقة واحد بواحد وواحد بكثير وكثير بواحد وكثير بكثير وغير ذلك — هذا النوع من العلاقات لا يدخل في بحث جيمس ولا يخطر له على بال . — راجع المنطق الواضعي للدكتور زكي نجيب ص ٧٧ - ١٠٢ .

وينبغي أن أقول كلمة عن معنى العلاقة على وجه العموم قبل ذكر رأي جيمس الحديد فيها .

ما العلاقة ؟ يقصد بالعلاقة تأثير شيء على آخر ، أو أن العلاقات روابط بين الأشياء . إن العالم عدد كبير من الأشياء والحوادث ولو كان كل شيء أو حادثة مستقلاً عن الأشياء والحوادث الأخرى استقلالاً تاماً لما قلنا إنها تكون العالم .

### والعلاقات على أنواع :

( أ ) علاقات مكانية : ومعناها أن الأشياء المادية — بما فيها أجسامنا — تحتل أوضاعاً محددة من المكان ، وقد يشمل هذه الأوضاع المكانية أجسام أخرى أو قد يشغله هواء أو أثر أو مجرد فراغ إذا كنا نتحدث في عالم الأفلاك وليس من المعقول تصور حركة الأجسام في غير مكان<sup>(١)</sup> ومن أمثلة العلاقات المكانية . قريب من وبعيد عن ، في ، على . . . .

( ب ) علاقات زمنية : أي أن الأشياء لا تتعلق فقط بعضها ببعض بالقرب أو البعد ، وإنما تدوم معاً أو يسبق بعضها بعضاً ، أو يتأخر بعضها عن بعض ؛ ومن أمثلة العلاقات الزمنية : قبل ، بعد ، مع . . . ونلاحظ أن الأشياء المادية ليست هي الأشياء الوحيدة التي تقع في زمن ؛ بل إن حالاتنا الشعورية وأعمالنا تقع في الزمن كذلك .

( ج ) علاقات كمية : ونقصد بها علاقة الجزء بالكل ، وعلاقات الكبر والصغر ، والمساواة ، والكثرة والقلّة ونحو ذلك . وهل مجموع الأجزاء يكون الكل ، أم أن بالكل عنصراً غير ما بالأجزاء . . .

( د ) علاقات كيفية : ونقصد بها ما يضاف إلى الأشياء من صفات

(١) نلاحظ أن هذا التصور للمكان ملائم لثقافة جيمس لكنه يخالف لتصورات المكان في نظرية النسبية المعاصرة .

كاللون والصلابة والطعم . . . ونبحث في هذه العلاقات أيضاً ضلة هذه الصفات أيضاً بأشياءها هل هذه الصفات مستقلة عن الشيء الذي يحتويها أم أن الجزئي ليس إلا هذه الصفات .

(هـ) : علاقات العلية : وهي ما بين مؤثر ومتأثر - و - وعلاقات منطقية

مثل ما بين موضوع ومحمول (١).

هذه كلمة عن معنى العلاقات القائمة بين أجزاء العالم الطبيعي .

العلاقة عند جيمس : يرى وليم جيمس في تجريبيته أن العلاقات بين الوقائع إنما هي وقائع أيضاً لا أكثر ولا أقل . إنها خاضعة للإدراك الحسي المباشر ، مثلها في ذلك كمثل أي شيء مادي محسوس .

يقول جيمس : « إن العلاقات بين الأشياء سواء ما كان منها متصلاً أو منفصلاً - موضوع التجربة المباشرة الدقيقة كالأشياء ذاتها لا أكثر ولا أقل . إن العلاقات التي تنتقل بها من جزء ما من التجربة إلى جزء آخر منها إنما هي أجزاء من التجربة نفسها ، ولا يحتاج الكون المدرك إدراكاً مباشراً لأي شيء خارج عن التجربة ليربط بين أجزائها » (٢).

العلاقات - في نظر جيمس إذن - أشياء تجريبية يمكن رؤيتها رؤية حسية ، ويمكن التحقق منها تحققاً تجريبياً واقعياً ملموساً . ذلك لأن هذه العلاقات ليست عنصراً أجنبياً عن التجربة وإنما هي أجزاء منها ، بل ونابعة من مجرى المحسوسات ذاتها .

ويمكن حصر رأي جيمس الجديد في العلاقات في فكرتين أساسيتين :  
( أ ) يثبت الوحدة في العالم إثباتاً تجريبياً مستنداً إلى أن العلاقات الواصلة بين الأشياء علاقات تجريبية وليست من خلق العقل .  
( ب ) ويثبت ثانياً أن العلاقات أشياء خارجية عن الوقائع ولا تدخل في تركيبها وتكوينها .

ر ( ١ ) : Barrett C. : Philosophy p. 147-153 Macmillan. New York 1936.

James : Meaning of Truth : Preface. ( ٢ )

وأبدأ بتفسير جيمس للعلاقات لينتهى إلى موقف بين الواحدية والتعددية :  
المذهب العقلي : ماذا يرى المذهب العقلي في العلاقات ؟ المذهب العقلي  
هو القول بأن العقل مصدر المعرفة وأن المعرفة الصحيحة تركيب من الأحكام  
الكلية الضرورية ولا تأتي تلك الأحكام من الإدراك الحسي أو من التجربة  
ولأنما أساسها تصورات العقل . ويعتقد المذهب أن بالفعل تصورات فطرية  
أو قبلية هي الحقائق السليمة ولا بد أن تكون أساس المعرفة . ويستطيع العقل  
أن يكون نظريات كاملة يفسر بها الكون وظواهره بفضل هذه المبادئ والأفكار  
دون أن يستمد شيئاً من التجربة الحسية وأعلام هذا المذهب التقليديون هم  
أفلاطون وأرسطو وديكارت وسبينوزا وكنت .

ورأى هذا المذهب العقلي في العلاقات أن العقل الإنساني هو الذي يكون  
العلاقات بين الأشياء : فلبت العلاقات موجودة في التجربة وإنما هي من  
خلق للعقل يأتي بها ليؤلف بين الأشياء المتناثرة ويجمعها في وحدة تامة .  
الواقع أن هذه الصورة للمذهب العقلي لم تكن هي الحاضرة في ذهن  
جيمس حين يتحدث عن المذهب العقلي الذي أراد الثورة عليه . وإنما كان  
جيمس مهتماً بالهجوم على المذهب للعقل المتطرف المعاصر له ؛ وكان يقصد  
به أتباع المطلق وأبرز المطلقين في زمانه هما رويس<sup>(١)</sup> في الولايات المتحدة ،  
وبرادلي في إنجلترا .

آمن فلاسفة المطلق — كالتجريبيين تماماً — أن العالم عبارة عن أجزاء  
مستقل بعضها عن بعض . ولكن بينما يترك التجريبيون هذه الأجزاء منفصلة  
كما هي ، يضر المطلقون على إيجاد مخزج من هذا الفصل وإيجاد الوحدة بين  
الأجزاء بأي ثمن ، لأنهم يسيئون بأن الوحدة مطلب ضروري بل وإن التوحيد  
بين الأجزاء ضرورة منطقية . فإذا لم توجد هذه الوحدة في عالم التجربة الحسية

(١) دافع كل من رويس وبرادلي عن فلسفة المطلق أو المذهب العقلي المتطرف — وهما مختلفان  
كل الاختلاف في تفاصيل آرائهما ووجهات النظر الفلسفية لكنهما متفقان إلى حد بعيد في الأساس  
المطلق وفي نظرتهما إلى العلاقات .



فوظيفة الفلسفة أن تضيفها إلى الكون .

والفكرة الأساسية التي صادفت أتباع المذهب العقلي المتطرف والتي اعتبروها صخرة ينبغي عليهم عبورها هي أن العلاقة — بحكم تعريفها — تربط بين شيئين مختلفين إذ بينهما ثغرة ينبغي وصلها بصلة . ولكن هذه العلاقة شيء ثالث غير الشئين التي جاءت لتربطهما . وبمقتضى التعريف ستصبح هذه العلاقة محتاجة أولاً إلى ما يربطها بالشئ الأول ثم إلى ما يربطها بالشئ الثاني قبل أن تقوم هي بوظيفة الربط بينهما . وستكون النتيجة أننا سنواجه مجموعة لا متناهية من العلاقات لم تربط بين الأشياء . بل أوجدت من الثغرات عدداً أكبر من الذى كان موجوداً .

هذه هي الصخرة التي صادفت برادلى ورويس على السواء . ورأوا أن يفرضوا المطلق للتغلب عليها وليقوم بوظيفة التوحيد . وكان يعتقد رويس أن الأشياء المادية منفصل بعضها عن بعض . وإذا نحن فرضنا أية رابطة تصل بين الأشياء ستكون هذه الرابطة شيئاً ثالثاً موصولاً بكليهما ولكنها محتاجة إلى أن تتصل بالشئ الأول ثم أن تتصل بالشئ الثانى قبل أن تصل بينهما . وهكذا إلى ما لا نهاية . ستكون النتيجة أننا فى كون منفصل بعضه عن بعض انفصالاً لا يمكن وصله ؛ فبرى رويس أن هذه النتيجة فاسدة لأن الفرض فاسد . والفرض الصحيح هو أن أى شيئين فى العالم واقعة واحدة بلفظين مختلفين ومتربطين بسائر الوقائع ولا بد من وجود عقيل مطلق يشمل كل الأشياء ويتضمنها بل ويحوى جميع الروابط التي تربط بين الأشياء .<sup>(١)</sup>

ولقد عبر برادلى عن هذه الحيرة نفسها فقال : كيف تربط العلاقة بين شيئين ؟ إن أية علاقة رابطة بين تجربتين من تجارب عالم الظاهرات *ا و ن* ينبغي أن تكون وجوداً ثالثاً بدلاً من أن تربط *ا ب* . ينبغي أن تربط العلاقة أولاً بكل من *ا ، ب* . وعلى هذا الأساس سنجد أنفسنا محتاجين إلى أربعة

راو بظ: أخرى وهكذا إلى مالا نهاية . ولهذا السبب تفترض أن المطلق قادر بذاته على وظيفة التوحيد<sup>(١)</sup> .

ولقد شغل أحد الفلاسفة المعاصرين من المثاليين النقيديين واعترض على رويس وبرادلي في أساس مأزقهم وقال إن المأزق الذى توهموه إنما هو صادر عن سوء فهم مؤداه اعتقادهم أن العلاقات لا بد أن تكون مكانية ، وهذا غير صحيح فقد توجد علاقات أخرى كالعلاقات العلية والرياضية وبذا يرتفع المأزق<sup>(٢)</sup> .

هذه الفكرة عن المطلق هى التى جاء وليم جيمس لإنكارها . اعترف العقليون أن التجربة الحسية المألوفة تقرر الانفصال بين أجزاء الكون ؛ فلم يقفوا عند هذه البداهة الحسية وذهبوا يخلقون الوحدة ويوجدون الاتصال حتى لو كان خارجا عن نطاق التجربة . ويريد جيمس أن يكون تجريبياً خالصاً .

وإذن فلم يختلف عن المذهب التجريبي التقليدى ؟ وقبل الإجابة على هذا للسؤال ينبغى أن أقول كلمة عن المذهب التجريبي فى العلاقات .

المذهب التجريبي : هو للقول بأننا نستطيع تفسير الكون فى ضوء تجربتنا الحسية وحدها دون حاجة إلى مبدأ عقلى أو تصور عقلى أو أفكار فطرية . ورأى جيمس أن التجريبيين الإنجليز يرون أن الذى يمكن إدراكه إدراكاً حسياً مباشراً هو الأشياء المادية والحوادث والوقائع التجريبية وحدها ؛ وأنهم ترددوا فى تفسير العلاقات تفسيراً تجريبياً ، وأن الكون هو كما يبدو منفصلاً بعضه عن بعض دون رابطة ضرورية تربط الأجزاء . والتجريبيون الإنجليز . فى ذهن جيمس — هم لوك وهيوم ومل .

الواقع أن قول جيمس هذا محتاج إلى مناقشة ، ذلك لأن جون لوك — حين بحث فى العلاقات — لم يخن مبادئه التجريبية التى وضع أسسها ووضح معالمها .

James, W., A pluralistic Universe p. 70. Longmans. N.Y. 1909. (١)

Ewing, A., C., Idealism; A Critical Survey. Methuen, London 1934. (٢)

بل يمكنني أن أقول أن لوك يفسر العلاقات تفسيراً تجريبياً أصيلاً، ولكن في مجال آخر غير المجال الذي بحث فيه جيمس . أعني بذلك أن لوك وهيوم بحثاً في العلاقات كإفكار في الذهن ، بينما بحثها جيمس كروابط بين الأشياء المادية نفسها . وبمعنى آخر : بحث التجريبيون الإنجليز في أفكارنا عن العلاقة وبحث جيمس في العلاقة القائمة بين أجزاء العالم الخارجي نفسه . وسأوضح معنى ما أقول .

يقول لوك : « يبدو أن أفكار العلاقة أكثر وضوحاً وتميزاً في أذهاننا من أفكار الجواهر [ المادية ] ، لأن من الصعب أن نعرف كل الأفكار البسيطة الكائنة في جوهر واحد ؛ ولكن من السهل معرفة الأفكار البسيطة التي تتكون منها علاقة « ما » <sup>(١)</sup> .

ويقول لوك أيضاً : « . . . تشبه كل العلاقات إلى أفكار بسيطة وترتبط بها سواء كانت هذه الأفكار نابعة من الإحساسات أو من التفكير وهما فيما اعتقد المادة الوحيدة لكل معرفتنا » إن جون لوك لم يتعرض للعلاقات بين الأشياء بخير أو بشر ؛ بل لك أن تقول إنه توقف عن الحكم حكماً نهائياً دقيقاً لتضدد وجود العالم المادي الخارجي — إن بكل الذي آمن به إيماناً لم يزغزغه هو أفكارنا فحسب وأريد أن أثبت أن لوك كان تجريبياً بحثاً في بحثه عن أفكار العلاقة ؛ ذلك لأنه ردها جميعاً إلى الأفكار البسيطة — فما هذه الأفكار البسيطة ؟ إن فلسفه لوك كلها قائمة على نظريته في المعرفة ، وتستند نظرية المعرفة عنده إلى تحليله للأفكار .

ما مصدر المعرفة ؟ هو التجربة ونحدها ؛ ثم نستمد أفكارنا ؟ من شيئين الإحساسات Sensations ، والتفكير Reflection ، ويرى لوك أن للعقل الإنساني قدرة رئيسية على استقبال الانطباعات الحسية سواء أتت من خلال الحواس أو عمليات العقل نفسه حين ينعكس على هذه الانطباعات — بتأليف

(١) Locke, J., An Essay Concerning Human Understanding, Ch. 25 ¶ 1.

Ibid. ch. 25 ¶ 9.

الذهن لهذه الانطباعات الحسية نصل إلى ما يسميه لوك بالأفكار البسيطة Simple Ideas ومن هذه الأفكار : اللون ، الصوت ، الذوق ، الحرارة ، البرودة ، الضلالية ، المكان ، الشكل ، الحركة : . . . . . وحين يقارن الذهن بين هذه الأفكار البسيطة ويربط بعضها ببعض نحصل على ما يسميه لوك بالأفكار المركبة Complex I. والفكرة الأساسية هنا هي أن العقل لا يصنع هذه الأفكار من تلقاء نفسه. وإنما يستقبلها من خلال الحواس من العالم الخارجى . ثم يرى لوك أن معرفتنا الجوهر المادى الخارجى عبارة عن ضم جملة من هذه الأفكار البسيطة - أو بمعنى آخر عبارة عن فكرة مركبة - بعضها مع بعض : منها يتألف الجسم المادى .

من هذه الأفكار المركبة أفكار الجوهر ، وأفكار العلاقة . ويصل الإنسان إلى فكرة العلاقة من مقارنة شئ بآخر : يضعهما إلى جانب بعض ويوازن بين عناصر كل منهما ويلاحظ العلاقة بينهما . ونحن لا نعرف الأشياء الخارجية إلا من خلال أفكارنا البسيطة عنها . إذن كل أفكارنا عن العلاقة إنما هي مشتقة من الأفكار البسيطة التى هى كل محتوى عقولنا <sup>(١)</sup>

من هذا التفسير لنظرية لوك فى المعرفة يمكن إدراك أنه كان مفسراً لفكرة العلاقة تفسيراً تجريبياً أصيلاً : لم يتردد فى ردها إلى التجربة الحسية ؛ بل رأى أن فكرة العلاقة أوضح فى الذهن من فكرة الشئ المادى ذلك لأن الشئ الوحيد الذى يمكن الوثوق به هو الأفكار البسيطة والأفكار المركبة أقل فى مرتبة اليقين لأن عمل العقل يدخل فى تكوينها . والعلاقات ناتجة عن الأفكار البسيطة لا المركبة .

استنتج أن الموضوع الذى بحث فيه لوك غير الموضوع الذى بحث فيه جيمس . بحث الأول فى أفكار الذهن ، وبحث الثانى فى الموضوعات المادية نفسها . وواضح أن بحث لوك بحث تجريبى بحث لا تشوبه شائبة . وماذا قال هيوم فى العلاقة ؟ إنه سلك طريق لوك نفسه فى تحليل الأفكار

A. Bahm, Philosophy — An Introduction pp. 50-4. Chapman & Hill. Ltd. (١)

London 1953



عن الأشياء لا تحليل الأشياء ذاتها . بل حين حلل الأفكار لم يبحث في العلاقة على أنها ترد إلى للتجربة أولاً فهذا موضوع لم يبحث فيه . إنه عرّف العلاقة فقال «العلاقة كيف بواسطته ترتبط فكرتان معاً في الخيلة»<sup>(١)</sup> . وذكر أهم أنواعها فقال بعلاقة المشابهة والذاتية والزمن والمكان والكم والعدد . ووضح معاني كل منها . هذا ما قاله هيوم بصدد العلاقات . إن جيمس على حق فقط حين يرى أن هيوم آمن بأن العالم — من حيث الوحدة والتعدد — أجزاء مستقلة ومنفصلة لأنه يبدو أنها كذلك ، وترتكها على انفصالها . قال هيوم ذلك فعلاً وأراد جيمس أن يضيف جديداً إلى هذا الرأي .

أما أن يقال إن هيوم رد العلاقات إلى أشياء غير تجريبية فهذا ما لا نراه . لعل جيمس قرأ نظرية هيوم في السببية وعرف النتيجة التي وصل إليها في هذه الفكرة واعتبر السببية علاقة ، وسحب ما قيل عن السببية على جميع العلاقات . أولعل جيمس أسند رأى هيوم في العلاقات إلى رأيه في السببية . فماذا قال هيوم في السببية ؟

بدأ هيوم بحثه بالتساؤل الآتي : كان لوك قد اعتقد أن لأفكارنا البسيطة علة بالضرورة هي الجواهر المحسوسة فسلم لوك بوجودها دون تحليل بل زعم أن السببية أهم المبادئ العلمية ( وإن كان مذهب لوك ينطوي على إنكار الجواهر المحسوسة ) فتساءل هيوم هل حقاً للأفكار التي في أذهاننا علة ؟

يجيب هيوم بأننا عرفنا هذه الفكرة من التجربة الحسية . ولكن كيف أتت من التجربة الحسية ؟ فليس ومصدرها انطباعاً واحداً — إذن لا بد من وجود انطباعات على الأقل مرتبطين . ولكنه عاد فقال قد يرتبط شيان وليس علة ومعلولا . وصل من ذلك إلى أن اعتقادنا بوجود العلة قائم على استدلال ليس مشتقاً من التجربة . وإذا لم تكن فكرة السببية من التجربة وإذا لم تكن لدينا أفكار فطرية فمن أين العلة ؟ جوابه الأخير بأن العادة Habit or Custom هي مصدر هذا الاعتقاد .

أقول لعل جيمس حين قرأ ذلك اعتقد أن هيوم رد العلاقات بجميعاً إلى أساس غير تجريبي. ويبدو أن هذا خطأ لأن ما يسرى على العلية قد لا يسرى على التشابه أو الكم . . . بالإضافة إلى أن هيوم لم يبحث في العلاقات بين الأشياء بل في العلاقات بين الأفكار .

### التجريبية الأصلية :

أعود إلى تجريبية جيمس الأصلية . قلت إن أنصار المطلق ، والتجريبيين الإنجليز ، وجيمس اتفقوا على أن العالم وقائع منفصلة وحوادث مستقلة . وجاء أنصار المطلق ليروا ضرورة التوحيد فأضافوا عناصر عقلية غير تجريبية . وجاء التجريبيون ليبقوا كل شيء على حاله . فالعالم حقاً هو كما يبدو بهذا الانفصال .

هذا هو الموقف الذي جاء جيمس ليعلن إنكاره لإضافة المبادئ العقلية لتوحيد الكون وليعلن أيضاً أن الانفصال المطلق بين أجزاء الكون لا تؤيده التجربة ماذا قال جيمس في تجريبيته الأصلية بصدد العلاقات ؟

يبدأ جيمس بوضع أساس لبحثه هو اتخاذنا التجربة مصدر كل شيء ومرجعنا الوحيد . إن وجدنا روابط تجريبية بين الأشياء فلا مبرر لإنكار الوحدة في الكون ، وإن وجدنا الانفصال بين الأشياء ينبغي أن نقرره ونعتبره شيئاً واقعاً ولا مبرر لأن نضيف إليها وحدة من عندنا . ويقول في ذلك : « . . . نتخلص من هذه الأشياء المصطنعة [ حلول المطلق والتجريبية العادية ] بفكرتين بسيطتين :

( أ ) الإتصال والانفصال [ عوامل الربط والفصل بين الأشياء ] ظاهرتان متساويتان في الدرجة في كل الحوادث ، ولكليهما وجود حقيقي .

( ب ) إذا أصررنا على أن ننظر إلى الأشياء من زاوية الانفصال فلا نضيف مبادئ ترنسندنتالية للتغلب على هذا الانفصال ؛ بل نفعل العكس . ينبغي أن نؤكد مبادئ الانفصال لنجعل تجاربنا المنفصلة حقيقية وأمرأ واقعاً .

فإن قسبنا في ذلك ينبغي أن نسمح للعوامل الرابطة الواصلة أن تكون أساسية<sup>(١)</sup> ويمكنني القول بأن جيمس دخل إلى بحثه في العلاقات من زاوية يستمولوجية كان قد تعرض لها في نظرية الصدق : قال هناك إن العلاقة بين الذات والموضوع علاقة تجريبية تماماً حين نادى بالتجارب الجزئية الواصلة بين الفكرة وموضوعها : أي أن فكرتي عن شيء ما تقودني — إن كانت صادقة — إلى تجربة واقعية جزئية تتصل بواقعة جزئية أخرى وهذه تتعلق بحادثة ثالثة وهكذا حتى أرى نفسي مواجهاً لموضوع فكرتي . وقال أيضاً « إن الوسائط transitions والنهايات terminations هي كل الحوادث التي تحدث بل إن الوظيفة التي تقوم بها التجربة هي أن تقودنا إلى تجربة أخرى »<sup>(٢)</sup> فليست المعرفة أكثر من الحصول على تجارب رابطة متصلة راهنة أو ممكنة .

ولو كان اعترض فيلسوف مطلق على جيمس وقال له إن هذه الوسائط التي تدعى أنها محقة للاتصال إنما هي التي تفصل بين الذات والموضوع ؛ بينما نحن ندرك الموضوع نرى أنفسنا في صلة مباشرة به لأننا نعبّر الشفرة بلمحة بفضلها يصبح الشيطان واحداً — لو قال المعارض ذلك لرد عليه جيمس بقوله إن هذه المعابر المتصلة Paths هي كل الروابط التي نعرفها . إن وجدت نوعاً من التوحيد المطلق فإنه لن يظهر نفسه بغير هذه العلاقات الواصلة<sup>(٣)</sup> .

بدأ جيمس في التجريبية الأصلية من هذه النقطة المستمولوجية فقال إن العلاقات الكائنة بين الوقائع مدركة إدراكاً حسياً كالوقائع نفسها لو أن العلاقات بين الوقائع هي الأخرى وقائع وأن العلاقات بين التجارب تجارب أيضاً . ويقصد جيمس بذلك أن العالم متصل الأجزاء وحوادثه مرتبطة بعضها ببعض والوقائع متصلة يؤدي بعضها إلى بعض : ولفهم ذلك ينبغي أن يبحث جيمس في العلاقات الواصلة في التجربة .

James : Radical Empiricism p. 51.

Ibid.: p. 63.

Ibid.: p. 58.

(١)

(٢)

(٣)

يرى جيمس أن العلاقات الواصلة موجودة في التجربة ولا تلحقها نحن من صنع عقولنا وإنما يمكن لنا مشاهدتها . يقول إن العلاقات في التجربة كثيرة ومختلفة في الدلالة : فأول علاقة يراها علاقة التقارن في الزمان أو الفترة الزمنية . والحوار في المكان أو المسافة المكانية علاقة أخرى . ثم علاقات التشابه والاختلاف والفاعلية activity وتتضمن علاقة الفاعلية ظاهرات : التغير والمقاومة والميل والارتباط للسببي .

فيمكننا أن ندرك الكون شيئاً واحداً مترابطاً متشابك الأجزاء على الأساس التجريبي لا العقلي المطلق . ويشرح ذلك بقوله . يمكننا تصور كونا من المعية Witness ليس فيه حوار ، أو كونا من الحوار ليس فيه مشابهة ، أو مشابهة ليس فيها فعل ، أو فعل ليس فيه غرض وهكذا . وكلها أكوان واقعية واكل مرتبة الخاصة في الوحدة<sup>(١)</sup> .

وكما كانت هذه العلاقات تجارب واقعية في مجال المعرفة الإنسانية ، كذلك هي علاقات واقعية ووقائع محسوسة في مجال الوجود : أي يمكن إدراكها إدراكاً حسياً مباشراً . فالمكان والزمان والوحدة والكثرة والكم والكيف ليست مقولات عقلية أو قوالب ذهنية نستدعيها لنؤلف بين الأشياء ، أو لا بد منها لكي تكون حوامل لإدراكنا الموضوعات الخارجية كما هو الحال عند أرسطو أو كنط في مقولاتها . وإنما المكان والزمان والتشابه والاختلاف والوحدة والتعدد وغير ذلك هي معان مشتقة من التجربة ومصدرها التجربة ويمكن رؤيتها رؤية تجريبية مباشرة .

ولقد مرّ جيمس على الصخرة التي صادفت أتباع المطلق مثل رويس وبرادلي من الكرام ، ولم يحل فيها تحليلهم - أقصد كيف تربط العلاقات بشيئين ؟ إنها شيء ثالث محتاجة إلى ربطها بكل من الشيئين أولاً قيل أن تربط بينهما ؟ . ومن البديهي أن جيمس يعرض عن الإجابة على السؤال لسبب بسيط



هو أن للتحليل العقلي المجرد أو الإغراق في التأمل النظرى ليس الأساس الذى يبنى عليه فلسفته .

إنه لم يقم بالمذهب البرجمائى وبالتجزئية الأصيلة إلا ليعارض التأمل والتجريد والإغراق في التحليل الفلسفى . انظر : كيف نرد على المطلق في هذه النقطة : إن الوسائط لا تتضمن ثغرات أو وثبات . إن المتصل — كما أفهمه — هو أن كل شئ في الكون مستمر فيما يبدو في الواقع . يكذب الواقع القول بأن العلاقات بين الأشياء محتاجة إلى روابط تربطها هي أولا . يمكنك أن تتصور الكون متبصلا على أى نحو تشاء ولكل نوع من الاتصال بمرتبة الخاصة . ولقد كان جيمس يعلم أن هذا الرد غير مقنع لأن حجة المطلقين أقوى من أن يدحضها مثل هذا الدفاع ، فعاد يقول جيمس « سأترك الرد عليها [اعتراض المطلق] الآن وليس في هذه المقالة مجال البطولة » . ولم يعد إلى هذا الرد في مكان آخر .

والواقع أن جيمس وضع مصادرات فلسفته وهي إنكار منطق التجريد والتأمل وإنكار المبادئ القبلية والتصورات العقلية وجعل المشاكل تبحث بحثاً محسوساً قائماً على التجربة الحسية وعلى عقائد الفهم المشترك . يترك جيمس هذه النقطة المطلقة ويتوسع في شرح رأيه هو في العلاقات .

ذكر جيمس العلاقات الواصلة بين الأشياء ، وأبان إمكان إدراكها حسياً ، ثم رأى أن قواعد اللغة تؤيد ما ذهب إليه : مع ، بجانب ، بعد ، شبيه ، من ، أمام ، مقابل against ، لأن ، من خلال through هذه كلمات تؤكد العلاقات الواصلة ويمكن رؤيتها في عالم التجربة<sup>(١)</sup> . ويقول في موضع آخر : « إن حروف الجر والروابط وحروف العطف وفعل الكينونة وإذن ، قبل ، في ، على ، بجانب ، بين ، شبيه ، مخالف ، — كلها تنشأ من مجرى التجربة الأصيلة وهو مجرى المحسوسات . إنها تفعل ما تفعله الأسماء والصفات<sup>(٢)</sup> .

أدت هذه الملاحظات على روابط الحوادث والوقائع في عالم التجربة إلى اعتبار الكون مجموعة من الأشياء يرتبط بعض أجزائها ارتباط الاتصال ، ويرتبط بعض أجزائها ارتباط الانفصال . ولقد اعتبر جيمس ما كان يسمى انفصالا نوعاً من الاتصال ؛ ولكنه اتصال في مرتبة دنيا . كان يرى أن شيئين منفصلين يمكن لهما أن يرتبطا معاً عن طريق وسائط تجريبية ؛ والعالم كله متصل على هذا الأساس .

ويمكن بسهولة أن ندرك روابط تصل جزءاً من العالم بجزء آخر . ويطلق على هذا النوع من الارتباط في العالم بالوحدة المترابطة Concatenated Union<sup>(١)</sup> .

نستنتج مما سبق اهتمام جيمس بالعلاقات الواصلة وتفسيرها تفسيراً تجريبياً وتفسيره الواسع لمعنى الاتصال . فقد كان يرى أن الأشياء المنفصلة في نظر الكثيرين يمكن أن نراها متصلة على نحو ما . استمع إلى جيمس وهو يحاول أن يضع أمامنا تصوره الواسع للوحدة : « إن بين كل شيئين علاقة مشابهة ، أو علاقة قرب ، أو علاقة معية ، أو علاقة مداخلية in-ness ، أو علاقة تبعية of ness ، أو الوجود معاً ، أو مجرد علاقة الإضافة and-ness<sup>(٢)</sup> .

لقد كان يهدف جيمس إلى الوصول إلى واحدة Monism من نوع تجريبي تسندها التجربة . وإذا فشلنا في وحدة في الوقت الراهن فإننا نصادر على واحدة ممكنة .

يقول : « تميل التجربة الأصيلة إلى الوحدة والفصل معاً . لا تجد سبباً للتشكك من أحدهما وإنما تقبلهما معاً . وثرى أن القوى العاملة في الكون تتجه بمرور الزمن إلى وحدة أعظم<sup>(٣)</sup> .

خاصة الخارجية في العلاقات :

قلتُ إن في بحث جيمس للعلاقات التجريبية الأصيلة فكرتين : الأولى

Ibid.: p. 358. (١)

Ibid.: p. 359. (٢)

Ibid.: p. 358. (٣)

أن أجزاء الكون يرتبط بعضها ببعض بعلاقات واضحة شجرية : فليس الانفصال بين الوقائع مطلقاً ، وليس الاتصال بينها قائماً على افتراض المطلق . وقد شرحت قدر الإمكان — خلاصة رأى جيمس في هذه الفكرة كما وردت في كتبه . أما الفكرة الثانية في نظريته الجديدة للعلاقات فهي أن العلاقات بين الوقائع « خارجية » عن هذه الوقائع أو أن العلاقات بين أجزاء الكون خارجية على تلك الأجزاء . وهى ما سماها جيمس بنظرية العلاقات الخارجية .

ومعنى أن العلاقات خارجية على حدودها أن بين الأجزاء أو الحدود المتباينة من الواقع علاقات هى خارجية أى أنها لا تدخل فى تكوين جوهر الشيء المحسوس الذى تتعلق به ، ولا تؤثر عليه ، ولا تكون شرطاً لإيجاده أو استمرار بقائه . إن الأشياء الجوهر مستقلة ، كل منها قائم بذاته ، له كيانه الخاص دون أن تكون العلاقات بينها داخلية فى تركيب تلك الجواهر ، أو داخلية فى ماهياتها الأساسية : إن شيئاً ما فى العالم المحسوس قائم بذاته ، سواء ارتبطت به هذه العلاقة أو لا ، وبمعنى آخر يمكن القول بأن وليم جيمس يريد للعلاقات أن تكون أشياء مضافة ، وأن تكون طبيعة الأشياء المحسوسة قائمة متميزة قبل هذه العلاقات المضافة . فالعلاقة إذن شىء عارض فى تاريخ حياة أجزاء الكون ، توجد فى وقت ما ويمكن ألا توجد فى وقت آخر . فليست العلاقات روابط خالدة ضرورية فى تركيب الأشياء ، وإنما هى ثانوية إجبارية<sup>(١)</sup> . ويقول جيمس فى ذلك : « هل العلاقات الكائنة بين الأشياء خارجية عنها أم أنها داخلية فى طبيعتها وماهيتها ؟ فى اقولى كتابى فوق المنضدة ، علاقة فوق لا تنطوى على المعنى الداخلى للكتاب ولا لتكون المنضدة . يبدو أنها شىء عارض مؤقت فى تاريخها<sup>(٢)</sup> . »

(١) Barrett, Philosophy p. 158.

(٢) يمكن مقارنة هذا المثال بمثال يضربه برتراند رسل فى كتابه (مشاكل الفلسفة) ص ١٣٩ - ١٤٠ : « افرض أنى فى حجرى . أنا موجود ونحجرى موجودة . ولكن هل (فى) موجودة ؟ ومع ذلك فلها معنى . تدل على علاقة بينى وبين الحجرة : إن العلاقة شىء لكن من نوع غير نوع وجودى ووجود الحجرة . »

وواضح أن هذه الفكرة متضمنة في فكرته السابقة التي نادى فيها بأن الأشياء قد تكون مستقلة عن بعضها البعض ولكن يمكن لها أن تتصل وترتبط بنوع ما من الارتباط التجريبي . وما لم يتصل الآن قد يتصل في الغد ، وما هو متصل قد ينفصل في وقت مقبل . . . إن خارجية العلاقات متضمنة في ذلك القول ؛ ومعروف أن النظرية المقابلة لنظرية جيمس هي أن العلاقات داخلية أي تكون جزءاً أساسياً في تركيب الأشياء التي تتعلق بها . فإذا كانت ا ، ب ، مرتبطتين فمعنى ذلك أنهما يكونان شيئاً واحداً ، أي أنهما جزء من شيء أكبر يحتويه . افترض أننا قلنا إن الخير والشر مرتبطان ، حتى ولو كنتهاتين ، فمعنى ذلك أن هناك نظاماً خلقياً يصبح الخير والشر عضوين فيه أو هما مظهران في ذلك النظام ، يعتمد الأشياء بعضها على بعض في وجودها وفي تركيبها وبقائها ، ولا يمكن أن يستقل بعضها عن بعض . . . إن نظرية العلاقات الداخلية تقرر أن العلاقات تتضمن نوعاً من الوحدة الأساسية بين حدودها . وفي هذا « وقع سينوزا حين قال : إذا عرفنا الجوهر بأنه الشيء المستقل فلن يوجد غير جوهر واحد في العالم ، ولذا فإن أي شيء جزئي هو نحو من جوهر واحد . ولقد قال لوطز أن العقول الإنسانية يعتمد بعضها على بعض من جهات عدة ولذا فإنها كلها تكون عقلاً فريداً واحداً <sup>(١)</sup> » ويكون كل حد في نظرية العلاقات الداخلية يعتمد على علاقته بالحدود الأخرى ، والعكس صحيح أيضاً . وهذا الاعتماد عيني ومنطقي : إن أي شيء جزئي يعتمد اعتماداً منطقياً على الأشياء الجزئية الأخرى المتعلقة به : وتقرر هذه النظرية أن الأشياء تصبح متناقضة مع بعضها بعضاً ( أي يستحيل وجودها من الناحية المنطقية إذا جردت عما يحيط بها من أشياء أخرى . ولكن إذا نظرنا إليها في ضوء الكل فإن الكون يبدو كأنه مربوط رباطاً منطقياً معقولا .

ويرى جيمس عن برادلي قوله : « لا صفة تصف اسماً لأن الصفة لو كانت متميزة من الاسم لما ارتبطت به » وإن كانت غير متميزة ، فإنهما



شيء واحد . حين يستخدم التعدديون موضوعات ومحمولات إنما يفعلون ما ينافي العقل . . يجب أن تكون العلاقة متضمنة للحدود ، كل حد يحتويها وتصبح والحدود شيئاً واحداً . ولو أنه يبدو أن الظاهرتين منفصلتان الواحدة عن الأخرى فإنه يجب افتراض المطلق الذي يقوم بوظيفة التوحيد»<sup>(١)</sup>.

هذه النظرية الداخلية للعلاقة هي النظرية التي يهاجمها وليم جيمس وينادي بالنظرية الخارجية للعلاقة . يرى جيمس أن العلاقة ليست خالدة منذ القدم وليست ثابتة تدخل في تركيب الأشياء وليست رابطة ضرورية بين الأشياء . وهذا . متسق مع منهجه ومذهبه البرجماتي حيث أنكر النظم المقفلة والفروض القبلية وأفكار الضرورة والثبات والخلود والبعد عن التجربة . لقد تمسك ببداية التجربة الحسية وبملاحظتها التي أرشدته إلى أن العلاقات بين الأشياء ليست هي الأشياء نفسها وإنه يمكن لشيء أن يظل قائماً مع ما يطرأ على علاقاته من تغير . ولقد أبان جيمس قيمة العلاقة الزمنية فجعلها أولى العلاقات — كما رأينا في الفقرة السابقة — رأى أن الزمن عامل هام في الجدة والإمكان . وما لم يتحقق الآن قد يتحقق في المستقبل . والعكس صحيح أيضاً .

وهناك اعتراض يعترضه برادلي على جيمس في العلاقات الخارجية . لاحظ برادلي تناقضاً في تفكير جيمس . اعتقد برادلي أن جيمس أثبت الجوهر في تجريبيته الأصلية وأنكره في المذهب البرجماتي . يقول برادلي : « يوجد تناقض في تفكير جيمس . إن المذهب البرجماتي مختلف عن الواقعية عنده : يثبت المذهب البرجماتي أن أجزاء العالم ليست مستقلة عن فكرنا ، وأن الفكر والعالم يكونان كلا واحداً ، وتنكر الواقعية عند جيمس أن للفكر سلطاناً على الأشياء . ويرى المذهب البرجماتي أن العلاقات داخلية»<sup>(٢)</sup>.

وهذا في ظاهره بحق لأن جيمس منكر للجواهر المستقلة في العالم في نظرية المعرفة البرجماتية حين زعم أن الطريق من الفكرة إلى موضوعها طريق متصل

(١) James, W., A Pluralistic Universe p. 69-70.

Jean Wahl.: Les Philosophies Pluralistes D'Angleterre et D'Amerique. (٢)

مترابط الأجزاء : كلها تجارب جزئية محددة تبدأ بالفكرة وتنتهى بالموضوع قال ذلك فى نظريته فى المعرفة والشعور . ولقد أثبت جيمس من جهة أخرى جواهر للأشياء حيث جعل العلاقات بينها خارجية طارئة : كل شىء قائم بذاته مستقل ، والأشياء مرتبط ببعضها ببعض بعلاقات . . .

الواقع أن جيمس لا ينفى الجواهر الجزئية ومع ذلك لا يرى أنها ثابتة وإنما تخضع للتغير من خلال الزمن . أما الشىء الذى ينكره جيمس على برادلى والواحدية هو قولها بالجواهر المطلق والحال الذى يتضمن الأشياء الجزئية جميعاً . لم يثبت جيمس فى تجريبيته وجود جوهر مطلق أبداً .

ولقد أثارت نظرية جيمس فى العلاقات فى الخارجية تعليقات الفلاسفة المعاصرين . بحث أحد هؤلاء الفلاسفة <sup>(١)</sup> طبيعة العلاقة واعترض على تطرف كل من برادلى وجيمس فى داخلية العلاقات وخارجيتها أو فى الواحدية والتعددية . بحث هذا الفيلسوف فى العلية وخرج من بحثه بنتيجة هى أن العالم الذى نعرفه يكون نسقاً يرتبط فيه كل جزئى بباقى الأجزاء بعلاقة الرباط المنطقى . ولا يتلاءم وجود هذه العلاقة مع الصورة المتطرفة من التعدد . ورأى أن طبيعة أى شىء مأخوذة على حدة ناقصة وغير متسقة فى ذاتها بدون النسق كله التى تعتمد هى عليه . إن الأشياء فى ماهياتها ينتمى بعضها إلى بعض ولكن هذا لا يتضمن أن للوجود درجة عالية من الوحدة كأن يكون قائماً فى جوهر واحد أو عقل واحد . ولا يتضمن أن كل العلاقات داخلية فإن بعضها ليس كذلك واعتمدت نتيجته لا على اعتبارات فى طبيعة العلاقات وإنما على اعتبارات حول نموذج معين من العلاقات هو العلية . يقول إيونج : « إن نمو الزهرة يعتمد على قوانين الفيزياء مثل قانون الجاذبية وظروف الجو ودرجة الحرارة التى تعتمد على تركيب المجموعة الشمسية كلها . وهذه القوانين الطبيعية وهذا النسق الفيزيائى عوامل تؤدي بنا إلى ارتباطنا بمجموعة فلكية أعظم من الشمس . وليس معنى قولنا إن الشىء يستدل استدلالاً مباشراً من آخر ، وإنما أن طبيعة أى شىء

( ١ ) الفيلسوف هو إيونج Ewing ودون رايه الجديد فى كتابه « "Idealism" » ص ١٨٢ - ١٩٠

لا يمكن فهمها بدون ضلته. بالعالم ككل. وأن العالم ككل يحدد تطور كل شيء جزئياً ، ولا ينتج عن ذلك أن كل العلاقات داخلية ولذا يبدو واضحاً أن بعضها يختلف حين تبقى حدودها على جالها» (١).

ويرى إيونج بعد ذلك أنه توجد نقطتان أخريان في العلاقات قد تؤدي إلى تعديل النظرية التعددية .

١ - لا تعطينا التجربة علاقات وحدوداً وإنما تعطينا ( المتصل ) أى تدفق الإحساسات والحوادث والوقائع ونحن الذين نجرد منه العلاقات والحدود .

٢ - يبدو أن أتباع نظرية العلاقات الخارجية يفرضون بسهولة أن فاصلاً دقيقاً سريعاً يمكن رسمه بين الطبيعة الداخلية للشيء وعلاقاته الخارجية . ولم يحاول أحد هؤلاء - فيما أعلم - أن يدلنا بالفرق التفصيلي أو يعطينا رأياً منظماً يعين ما هي العلاقات الخارجية وما هي التي ليست خارجية ، ولا أن يقرر ما هي الضمات المنفضلة عن العلاقات . ويتساءل إيونج في النهاية هل وضع الشيء منفصل متباعد - من الناحية المنطقية - عن علاقاته المكانية بالأشياء الأخرى ؟ أو هل شكل الشيء مستقل في تفكيرنا عن العلاقات التي تعتمد أجزاء سطحه بعضها على بعض وعلى الأشياء المرتبطة به ؟

## مذهب التعدد عند جيمس Pluralism

### مقدمة :

يقال إن مذهب التعدد هو ميتافيزيقا المذهب البرجماتي . قال ذلك ولیم جيمس نفسه وتابعه بعض المؤرخين في ذلك القول . ولكن لا يستطيع البرجماتيون احتكار هذا المذهب ميتافيزيقاً لهم وحدهم ، بل يقول به غيرهم أيضاً ، ومن بين الفلاسفة الذين ليسوا برجمانيين ومع ذلك فهم تعدديون فلاسفة واقعية

المعاصرون في الولايات المتحدة الأمريكية سواء كانوا من أتباع الواقعية الجديدة<sup>(١)</sup> أو أتباع الواقعية النقدية<sup>(٢)</sup>.

ولقد قلتُ في أول الفصل أن من المشاكل التي شغلت جيمس طوال حياته الفلسفية (مشكلة الواحد والكثير) أو الوحدة والتعدد. تعرض لها أولاً وهو يبحث في الأخلاق فكتب في سنة ١٨٨٤ مقالا عنوانه مصاعب الجبرية. Dilemma of Determinism : ناقش فيه مسألة الجبرية، وحرية الإرادة وانتهى — أو يكاد ينتهي — إلى رفض الجبرية وإعلان حرية الإنسان. والجبرية متصلة ومرتبطة بأساسين : فلسفه المطلق ، وفلسفه الواحدية فمن يقول بهاتين قائل بالجبرية. والقائل بحرية الإنسان قائل بالتعددية لأنها تتضمن الوحدة والإمكان وهما من أسس حرية الإرادة. — أقول إن جيمس وصل — حين ناقش مشكلة الواحد والكثير — إلى مذهب التعدد من باب الأخلاق.

ولقد وصل جيمس أيضاً إلى مذهب التعدد من باب آخر : هو بحثه في العلاقات التجريبية الأصلية. قال إن الكون أجزاء ، وحوادث منفصلة ، ووقائع مستقلة ، كل منها قائم بذاته ، لا يعتمد أحدها في وجوده على الآخر والعكس صحيح أيضاً.

قال ذلك في التجريبية الأصلية. ووصل منها إلى نتيجة هي أن العالم يبدو في صورة أجزاء منفصل بعضها عن بعض ولا يبدو في صورة كل واحد. ويمكن للأجزاء المفصولة أن ترتبط ، وترتبط بروابط مختلفة والغالب أن الرباط العام الذي يربط أجزاء الكون هو رباط المعية أي أن الأجزاء مشدود بعضها إلى بعض برباط واو العطف<sup>(٣)</sup>. هذا التصور للكون هو القول بالتعدد.

(١) الواقعية الجديدة فلسفة معاصرة أمريكية لها رأيها في المعرفة والميتافيزيقا وفكرتها الرئيسية في المعرفة أن المعرفة مباشرة وأن الصلة بين الذات والموضوعات صلة حدسية وليس هنالك أفكار ترمز إلى الموضوعات في الذهن أي ينكرون النظرية التمثيلية في المعرفة.

(٢) الواقعية النقدية فلسفة معاصرة أمريكية ترد على السابقة بإصرارها على المعرفة التمثيلية أي بين الذات والموضوعات توجد الأفكار والمعطيات.

(٣) James : Pragmatism, p. 156.



وتصور الكون المقابل للتعدد هو تصور الواحدية . والقائلون بالواحدية هم القائلون بالمطلق . تقول الواحدية إن الكون حقيقة عظمى واحدة . كل أجزائه مترابطة متشابكة تتحرك جنباً إلى جنب « إن كل شيء حاضر أمام كل شيء في كل لحظة على نحو كامل فلا يمكن أن يغيب شيء ما عن الأشياء الأخرى لا في وجوده ولا في وظيفته . كل الأشياء متداخلة معاً مترابطة ترابطاً كلياً <sup>(١)</sup> .

يسلم الواحديون بانفصال أجزاء العالم ولكنهم يرون افتراض المطلق يقوم بتوحيدها وتأليفها في كل واحد . بل يعدلون عن هذا التسليم ليقولوا إن الانفصال مظهر وليس حقيقة . الانفصال والاستقلال . ضروري من الناحية العملية فحسب : وإنما الكون كله يعبر عن شيء واحد وارتباط أجزائه ببعض ارتباط ضروري خالد ثابت لا يتغير . ذلك لأن الروابط — أى العلاقات — بين الأشياء ثابتة داخلية في ماهياتها الأساسية .

جاء وليم جيمس ليهاجم هذه النظرية . وهو قد قالها ضمناً في التجريبية الأصلية للعلاقات . ولكنه يفرد لها غير ذلك اهتماماً خاصاً فيحلل الواحدية ليبسط ما بها من عناصر ويتبين ما فيها من حقائق <sup>(٢)</sup> وواضح من غير شك أن أساس التحليل الذي سيتبعه في مناقشة الواحدية هو المنهج البرجماتي . ويقال إن جيمس كان راضياً عن الواحدية أول عهده بالفلسف لأنه رأى فيها الأساس الصوفي الذي نقنع به طبيعتنا العقلية والخلقية والروحية . لكنه حين تعمق في فهمها بدأ يدرك أن القول بها بأى ثمن تفكير خاطئ <sup>(٣)</sup> .

### تحليل الواحدية — لم أنكر جيمس الواحدية ؟

تساءل جيمس فقال : « هب أن الواحدية هي الصادقة فما معناها إذن ؟

( ١ ) James : Pluralistic Universe p. 322 .

( ٢ ) أفرد جيمس فصلاً خاصاً للوحدة والتعدد في برجماتيزم في المقالة الرابعة وعنوانها One & Many

( ٣ ) Jean Wahl : Les Philosophies Pluralistes p. 119 .

ما القيمة العملية للواحدية بالنسبة لنا ؟ بإجابتنا ننتقل من الغامض إلى المحدد ومن المجرد إلى المحسوس . لو آمنا بالواحدية سيطراً على العالم بالنسبة لنا اختلاف واضح متميز فيما يحمل من صفات «<sup>(١)</sup>» . ولقد حلل جيمس الواحدية تحليلات عدة أرى أن أغلبها لا يدخل في عداد البرهنة الجادة وإنما هي ألصق بالأحاديث الشعبية .

أهم تحليل له عن الواحدية هو فكرة الوحدة النوعية بين الأشياء .

يرى أن الأشياء توجد في أنواع . وما يسرى على جزئى في نوع ما يسرى على أى جزء آخر داخل في هذا النوع ويمكن التدرج من سلسلة الأنواع إلى سلسلة الأجناس ؛ يمكن التدرج إلى أن أنصل إلى ما سماه جيمس ( الوحدة النوعية المطلقة) : ويقصد بها إمكان وجود جنس واحد أعظم تدرج تحته كل الأشياء بلا استثناء مثل « الأشياء » و « ما هو مفكر » وغير ذلك . وفى إنكار هذه الوحدة فى الأشياء قضاء على المنطق لأن المنطق يحمل ما يمكن حمله على كل النوع الذى هو جزئى فيه ؛ بل نصبح بإنكاره عاجزين عن الانتقال الفكرى من تجارب ماضية إلى تجارب مقبلة<sup>(٢)</sup> .

يعتقد جيمس بعد إثبات هذه الفكرة أنه ربما كان وجود الوحدة النوعية فى الأشياء هو الدلالة البرجماتية العظمى لقولنا إن العالم واحد .

هذا هو أهم ما جاء فى تحليلاته . قال تحليلات كثيرة أخرى لا تقل قيمة عما سبق . يقول مثلاً إن العالم موضوع واحد للحديث ، أى أنه حد واحد مجرد يدل على العالم كشىء واحد . هل يمكن أن ننظر العين فى اتجاهين متقابلين فى وقت واحد ؟ كذلك لو قلت إن العالم متعدد كأنك تقول إن للعقل أن ينظر إلى الواحد على أنه أجزاء<sup>(٣)</sup> .

James : Pragmatism p. 132. ( ١ )

Ibid : p. 140. ( ٢ )

Ibid : p. 133. ( ٣ )

« وكذلك يقول إن العالم متصل بالأجزاء متشابك مترابط ؛ وأقل أساس لهذا الارتباط هو الزمان والمكان . ويذكر في ذلك قضايا كثيرة . يقول : « يمكنك أن تمر من نقطة لأخرى في الكون الواحدى دون أن تبخشي السقوط . إن أجزاء الكون متشابكة مترابطة وليست كذرات الرمل منفصلة ؛ حتى هذه الذرات مستقرة في مكان » (١) .

ومن تحليلاته الباذجة اعتقاده أنه توجد أنواع عديدة من ارتباط الأشياء بعضها بعض بحيث تكون كل مجموعة من الأشياء نسقاً واحداً . فمثلاً تربط بين الناس وحدة التعارف أو الصداقة . إذا كان محمد يعرف عليا ويعرف علي إبراهيم فإنه يمكنك - باختيار حدود وسطى كثيرة - أن تحمل رسالة من محمد إلى أميرة في الصين أو إلى رئيس الأقزام في أفريقيا . ومثل الوحدة التي يوجدها نشاط الإنسان في مصلحة البريد أو نظام المستعمرات أو القنصليات أو نظم المعاملات التجارية - كل ذلك يوجد الاتصال بين الناس (٢)

### ج - الواحدية والتصوف

ولقد أراد جيمس أن يبرز عناصر الواحدية أكثر مما سبق فرأى أن الصورة الدقيقة للواحدية هي التصوف . ينظر الصوفي دائماً نظرة واحدية . ولقد ساق جيمس بعض مقتطفات من آراء أحد صوفية الهنود الذين زاروا أمريكا في عهده وألقى بعض محاضرات هناك .

يقول الصوفي الهندي فيفكاناندا Swami Vivekananda : « إن الفصل بين الرجل والرجل ، وبين الرجل والمرأة ، وبين الرجل والطفل ، وبين الشعب والشعب ، وبين الأرض والقمر ، والقمر والشمس ، والفصل بين الذرة والذرة سبب كل شقاء . وتقول الفيدانتا : لا يوجد هذا الفصل . إنه مجرد ظاهرة عرضية . إذا وصلنا إلى أعماق الأشياء لا نجد غير الوحدة : لن نجد غير

(١) Ibid : p. 134.

(٢) James : Pragmatism p. 135-8.

الوحدة بين الرجل والرجل ، بين النساء والأطفال ، بين الأحناس والأجناس ، بين المرتفع والمنخفض بين الغنى والفقر ، بين الآلهة والناس : الكل واحد . ولن يضلّ من اعتقد بهذه الوحدة . ماذا يضلّه ؟ إنه يعرف حقيقة الأشياء وسر كل شيء . مم يأتيه الشقاء ؟ فيم يرغب ؟ لقد تابع حقيقة الأشياء في الواحد - وحدة الأشياء»<sup>(١)</sup>.

إن الواحدية الصوفية هي أكثر الواحديات تطرفاً ، أو إنها أقصى ما يستطيع الواحدى أن يصل إليه . إن الصوفى لا يعتقد بأنفصال الأشياء ، عن بعضها البعض ؛ وينبغي أن نتغلب على هذا الانفصال بالوحدة أو بتصور المطلق . بل إنه منكر للفصل من أساسه . لا توجد كثرة أو تعدد . لا يعتقد أننا أجزاء من الواحد ؛ لأن الواحد ليست له أجزاء . إن كلاً منا الواحد المطلق .

#### د - موقف جيمس من الوحدة والتعدد :

هذا هو تحليل جيمس للواحدية تحليلاً براجماتياً . وصل منه إلى إنكار الواحدية المطلقة كما وصل إلى إنكار التعددية المطلقة . ما أسباب ذلك ؟ إن التجربة هي السبب الذى دعانا لهذا الإنكار . إن التجربة لم تنحرف بعد إلى أى الطرفين ، ولم نصل بعد إلى نتيجة حاسمة لتنضم إلى أى من المذهبين . إننا نرى أدلة تجريبية للوحدة وفى نفس الوقت نرى أدلة تجريبية أخرى للتعدد . يرى جيمس اعتماداً على هذا الأساس التجريبي « إن العالم واحد حيث نجرب ارتباط الأجزاء بعضها إلى جانب بعض ، والعالم متعدد حيث نجد عدم الارتباط . ليس العالم واحداً وحدة مطلقة وليس متعدداً تعدداً مطلقاً . . . إن العالم واحد حيث ترتبط أجزأه بروابط محددة والعالم متعدد حين لا نجد هذه الروابط المحددة»<sup>(٢)</sup>.

ويعن جيمس فى الإخلاص لتجربيته البحتة التى بدأها فى العلاقات

( ١ ) Ibid : p. 151-4.

( ٢ ) Ibid : p. 148-56.



فيقول : « لا داعي لأن نسأل هل العالم عنصر واحد أو عدة عناصر ؛ بل ينبغي أن نسأل أين يوجد هذا العنصر أو تلك العناصر ؟ أين تبدو الوحدة أو أين تبدو الكثرة ؟ لا نبحث عن مصدر العالم أو أصله ، وإنما نحاول أن نحدد العلاقات البكائية بين أجزائه فحسب » <sup>(١)</sup> .

إن جيمس هنا برجماني كما هو تجريبي أصيل : صم أذنيه إلا عن نداء التجربة : وأعرض عن البحث في التأمل النظري أو في الأصول والمبادئ والعلل الأولى . وتمسك فقط باقتفاء آثار النتائج — والنتائج المحسوسة أي الدقيقة والمحددة والجزئية . نظر إلى الكون نظرة تجريبية فلم يلاحظ الوحدة المطلقة ؛ كذلك لم يلاحظ التعدد المطلق لأنه رأى مظاهر للوحدة ودلالات من الروابط الواصلة .

ولقد استند جيمس في إنكاره للواحدية إلى أسباب وجيهة غير أساس التجربة . إن الاعتقاد بالواحدية يوقعنا في مأزق عسيره الحل وينقذنا من هذه المآزق الاعتقاد بالتعددية — لا التعددية المطلقة ولكن تعددية خاصة به . ما هذه المآزق ؟ .

اعتقادنا بالواحدية لا يفسر لنا مشكلة الخطأ في المعرفة ، ولا النقص في الطبيعة ولا الشر في الأخلاق <sup>(٢)</sup> . ذلك لأن أساس الواحدية هو تصور الكون على أنه شيء كامل كله ، خير كله ، صادق كله . كل شيء فيه كامل الصنع ولا يطرأ عليه جديد ولكن الواقع الحسي لا يؤيد ذلك فإننا نرى مخالفات للقوانين وأشياء تغيب وتزول ليحل محلها أشياء أخرى وأشياء تبدأ ناقصة وتظل كذلك أو تستكمل ما بها من نقص في المستقبل . فالواحدية لا تجيب عن سؤال النقص . ثم مسألة الخطأ مسألة شائكة عند الواحدين : يرون أن المعرفة قد تمت من الأزل . لا جديد في المعرفة لأنهما مطلقة والمطلق هو هو في كل زمان ومكان وليس متعلقاً بشيء وكل المعارف صادقة بالضرورة ومن ثم فلا معنى للخطأ .

J. Wahl : Les Philosophies Pluralistes p. 120. (١)

James : Pluralistic Universe p. 124. (٢)

ثم هذا العالم الضروري الكامل الصادق عالم جبرى لا مجال فيه لحرية الإرادة أو للاختيار فكل شيء قد حتم من البدء والقوانين صارمة لا معنى للصدفة فيها ولا معنى للإمكان . كذلك الواحديون لا يرون للشر وجوداً حقيقياً وإنما يرون أنه خير أقل .

وجيمس منكر للجبرية في الأخلاق والحتمية في الطبيعة والكمال في تركيب الكون .

كان برادلى قد قال « إما أن نعتقد بالانفصال المطلق وإما أن نعتقد بالوحدة المطلقة وعلى الإنسان أن يختار أحدهما . ومن الطبيعي ألا نختار الاستقلال المطلق لأنه غير معقول <sup>(١)</sup> .

فجاء جيمس ليرد بقوله : « إن القول باختيار أحدهما بالضرورة ليس الحل الصحيح . نريد حلاً وسطاً *Via Media* <sup>(٢)</sup> » ويقول أيضاً : ليس لسينوزا ولا هيوم أنصار اليوم : سيطرت على الأول فكرة الوحدة في كل الأشياء ، وسيطرت على الثانى فكرة الانفصال المطلق . ولم يستطع أحدهما أن يوفق بين الوحدة المجردة والتباين المحسوس . إن الطريق الوحيد للتخلص من هذا المأزق هو الوقوف موقفاً وسطاً بين الوحدة والتباين <sup>(٣)</sup> .

واقف جيمس فعلاً موقف الموفق بين الواحدى والتعددى . ولم يختار اسماً ليميز فلسفته الجديدة عن كلا الطرفين . كان أصاب في تسميته للتجريبية الأصيلة ليميز نفسه من العقلين والتجريبيين على السواء . لكنه لم يختار اسماً في مذهبه التعددى ليميزه من التعدديات المطلقة . كان يسمى مذهبه بالتعددية ، وكان يسميه أحياناً بالتعددية الأصيلة *Radical Pluralism* . ويبدو لى أن اختيار هاتين الكلمتين اختيار سيء لأن التعددية الأصيلة ليست غير التعددية المطلقة التى رأى إنكارها .

(١) Ibid., p. 75-6, 310.

(٢) James : Pluralistic Universe p. 83.

(٣) James : Essays in Pragmatism p. 5, 6.

أستطيع أن أسمى تعددية جيمس (التعددية البرجماتية) لتمييزها من التعدديات الأخرى .

إن التعددية البرجماتية تتميز عن الواحدية المطلقة في أنها تسعى إلى الوحدة التجريبية لا الواحدة العقلية وتتميز عن التعددية المطلقة في أنها لا تترك الانفصال قائماً دون رباط وإنما يمكن أن يتصور الانفصال اتصالاً على نحو ما .

### التعدد عند جيمس :

ونخلاصة مذهب جيمس في التعدد أن أجزاء الكون مستقل بعضها عن بعض . وقد لا يكون هذا الاستقلال دائماً وثابتاً بل قد ينقلب إلى اتصال وارتباط حتى ولو بأدنى معانيه . قد يستمر هذا الاستقلال إلى الأبد ولكن هذا الاحتمال ضعيف لأن التجربة تؤكد لنا سعى الكون إلى وحدة .

وقد يحل محل هذا الاستقلال القائم ارتباط في المستقبل من أى نوع . وهذا الارتباط القائم الممكن بين الأشياء ليس خالداً وثابتاً وإنما قد يتغير ويحل محله رباط جديد على ضوء ما قلناه في خارجية العلاقات . ويمكن النظر إلى الكون — المستقلة أجزأؤه بعضها عن بعض — على أنه مرتبط ببعضه ببعض على نحو ما : قد يكون الارتباط ارتباط معية أو ارتباط مشابهة أو ارتباط عليا أو ارتباطاً في الغرض ونحو ذلك . وبهذا المعنى يقول جيمس :

« لا يزال عالمنا المتعدد عالماً واحداً . إن كل جزء من أجزاء العالم — ولو أنه يمكن ارتباطه برباط مباشر مع غيره — إلا أنه يمكن أن يرتبط بعلاقات ممكنة غير مباشرة بكل جزء آخر مهما كان بعيداً . . . ليس الكون مرتبطاً ارتباطاً تضمن ينطوي بعضه في بعض وإنما هو أشبه شيء بالنموذج المنظوم بعضه إلى جانب بعض Strung-along type أو بنموذج الاتصال والملاصقة والارتباط . . Continuity, contiguity concatenation<sup>(١)</sup> » .

إن الوجود — في نظر جيمس — كثرة لا متناهية ينفصل كل شيء عن

الآخر في وجوده ووظيفته وبقائه ؛ ويمكن لها جميعاً أن ترتبط ارتباطاً خارجياً .  
إن الكون شبيه بجمهورية اتحادية أكثر منه إمبراطورية أو مملكة ؛ ومعناه أن  
الأشياء كلها لا تخضع لقانون حتمي واحد أو لسلطة واحدة : الكل يتجه  
لغاية واحدة . لأن الأشياء يستقل بعضها عن بعض . لكل وظيفته واتجاهه  
ولكل بعض الحرية في السلوك والعمل ومع ذلك يجمع الكل رابطة ما . ولا مانع  
من أن تكون الأهداف متعددة والغايات متباينة .

لا نريد للكون أن تكون العلاقة بين أجزائه علاقات خالدة وروابط ثابتة  
ولنما نريد له أنه يمكن أن يرتبط شيء بشيء دون أن يكون هذا الرباط جوهرياً  
أو أساسياً ليخضع للتغير والزوال .

ليس من الضروري أن توجد كل العلاقات بين الأشياء في الوقت الحاضر  
ولنما ينبغي أن نفسح المجال لعلاقات ممكنة . ويعبر جيمس عن هذه الفكرة .  
وهو يحاضر في كلية ما نشستر في أكسفورد :

« . . . إن الكلمة ( أو ) تدل على وجود أصيل إذ يمكنني أن أنظر فوق  
أو يمين أو شمال وفي كل حالة يمكنني الفراغ أو الأثير من رؤية وجوه المستمعين  
المختلفة . ومع ذلك فوجودي مستقل عن كل وجه <sup>(١)</sup> » .

لم يرد جيمس بعد هذا كله أن يؤكد أن التعدد هو الصادق وأن الوحدة  
هي الكاذبة — قال فقط أن التعدد فرض ، وفرض ملائم . لم فصل بعد بصده  
إلى جعله يقيناً . ولكن البرجماتزم حين تعالج مشكلة الوحدة والكثرة تضع  
نفسها إلى جانب التعدد : « إن المذهب البرجماتي — وهو يعلق المناقشة بين  
الوحدة والكثرة على التحتميق التجريبي — يجب أن يضع نفسه بوضوح إلى  
الجانب التعددي <sup>(٢)</sup> » .

ويقول في موضع آخر : « إن المنهج البرجماتي — حيث هو منهج لامذهب

( ١ ) James : Pluralistic Universe p. 323-4.

( ٢ ) James : Pragmatism p. 161.



سيضطر إلى أن يكون مخلصاً للنظرية التعددية القائلة بأن أجزاء الكون يرتبط بعضها ببعض برباط واو العطف<sup>(١)</sup> .

ما خصائص مذهب التعدد البرجماتي :

نقص الكون : إن النظر إلى الكون نظرة تعددية. معناها النظر إليه على أنه شيء ناقص غير تام الصنع وتسد ثغرات النقص الذي به باستمرار دون أن يتم تماماً . أو يتم النقص بلا تحديد . إن عالماً غير تام الصنع في الآونة الحاضرة تصور مقبول بل ملائم<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أن قولنا بأن الكون ما كان أو ما هو كائن أو ما سيكون وهو كائن منذ الأزل قول يوقعنا في مفارقات كثيرة .

مقولة الزمن : إن العالم التعددي عالم بدأ ناقصاً ويتم نفسه باستمرار — لم يكن تاماً منذ الأزل ولكنه يتم نفسه في المستقبل . والزمن هو صورة هذا العالم ولن يتم النقص إذا أغفلنا قيمة الزمن . يرى جيمس أن الزمن ضرورة لإتمام النقص بل لا يمكن فهم تطور هذا الكون أو استمرار وجوده إذا أغفلنا الزمن<sup>(٣)</sup> . ولن تجد عند جيمس مبررات منطقية لهذه الأقوال . لم أعثر على أسباب القول بنقص العالم . إنه يعتقد أن التعدد فرض ولكنه فرض مقبول بحل مشاكلنا الطبيعية والخلقية . إنه يصادر على نقص العالم ولذا يضع الزمن في الجانب الأول من الأهمية في سلسلة المقولات .

الصدفة : من البديهي أن القائل بنقص العالم وبفعل المستقبل في الوقائع منكر للحتمية قائل بأن الصدفة مقولة أساسية لنظام العالم . ولكن لا تنتظر من جيمس أن يحدثك عن الصدفة حديث فيلسوف ميتافيزيقي يعرفها ويحلل مصدرها وعناصرها ووظيفتها وصلتها بأصل العالم أو بالقانون — لا تنتظر ذلك وإنما هو يراها مقبولة تخدم مزاجه الخلقى كما رأى الزمن والنقص مؤديين إلى حل لبعض

( ١ ) James : Pragmatism p. 166.

( ٢ ) Ibid.

( ٣ ) James : 'Dilemma of Determinism' in 'Essays in Pragmatism' p. 63.

المشاكل . يقول جيمس « . . لا نغنى بالصدفة سوى أنه لا شيء في العالم — مهما كان كبيراً — يمكن القول بأنه يتحكم تحكماً مطلقاً في مصائر الأشياء الأخرى من العالم . لو قلت إن للصدفة وجوداً حقيقياً فلست جادا في ذلك . لسنا متأكدين من أننا في عالم به صدفة أو ليست به . ولكن يبدو لي أنه كذلك وأنا أعيد ما كررته من قبل أن هذا السؤال ( الصدفة في الكون ) سؤال لا حل له من الناحية النظرية البحتة . كل ما أرجو عمله أن أصل إلى الفرق بين عالم تسوده مصادفات وعالم جبرى . . . أنا أريد عالم الصدفة . قل فيها ما تشاء ولكنى أرى أن الصدفة لا تعنى أكثر من التعدد . . إن تشبثت بعالم كامل الصنع فإنى لا أزال أعتقد أن عالماً به صدفة أفضل وأحسن من عالم ليست به »<sup>(١)</sup> .

وكان تصور جيمس للصدفة أن معناها الاختيار . القول بالصدفة معارض للقول بالجبرية . والجبرية قول الواحدية المطلقة وبذا يكون الاختيار والصدفة قول التعدد .

ويعرّف جيمس الاختيار بأنه القول بأن للأجزاء قدراً من التدخل الحر على بعضها . وأن التحقيقات الراهنة تطفو من على بحر واسع من الممكنات اختيرت منها هذه التحقيقات . معنى الاختيار أن للممكنات وجوداً بل تكون جزءاً من الواقع . . يرى الاختيار أن مقولة الإمكان مقولة ثالثة ( إلى جانب الضرورة والاستحالة ) بل هو المقولة الرئيسية<sup>(٢)</sup> .

الإمكان : إن الخاصية الأساسية للكون المتعدد هي أنه يترك المجال للإمكان إمكان أن يتم العالم الناقص من خلال الزمن وعلى أساس الحرية في الطبيعة . ولم يكن جيمس جاداً في الحديث عن الإمكان حديثاً فلسفياً عميقاً كما أراد بيرس مثلاً حين زعم أن عالم الكلّيات ما هو إلا عالم إمكانيات تحقق أحدها فصار العالم ، وحين حلل الإمكان إلى مقولات ثلاثة هي الصدفة والقانون والعادة ،

( ١ ) Ibid : p. 47-61.

( ٢ ) James : Dilemma of Determinism p. 41.

وأفاض في كل منها تحليلاً موضوعياً — لم يفعل جيمس ما يقرب من ذلك ؛ وإنما رأى أن الإمكان عنصر في الكون يحقق الحرية فقال به . انظر إلى جيمس وهو يقول : . . . لا نتائج يصل إليها العلم في هذه النقطة [ هل يوجد إمكان ] سوى إنه مؤسس على أمور الواقع الذي يحدث . ولكن ألا توجد أية درجة من الضمان تقول لنا إن الشيء الذي حدث فعلاً يعطينا دليلاً أو معلومات على أن شيئاً آخر قد يحدث أو لا يحدث ؟ كل ما يقدمه العلم أنه يثبت وجود وقائع بوجود وقائع أخرى . وإذا لم يكن لدينا غير شهادة الوقائع فستظل مسألة الإمكان سرا . وسيكون من العسير أن تكون الوقائع منيرة للجبريين والاختياريين معاً — أرى أن الإمكان شيء يصادر على وجوده الرجل الذي يريد التصور المقبول لدى العقل » (١) .

هذه هي خصائص مذهب التعدد البرجماتي . نرى منها أن جيمس كان مهتماً بنتائج اعتقدها لأنه رآها ملائمة لحاجات الفرد وميسرة لحل بعض مشاكله ولم يهتم ببحث هذه النتائج بحثاً نظرياً دقيقاً . والواقع أنه لم يقصد بالتعدد فرضاً ميتافيزيقياً يعرض فيه رأياً في أصل العالم . لا . كان يقصد به أنه قاعدة لأبحاث خلقية ودينية ستأتي بعد .

## الفصل الخامس

### الدين والأخلاق عند ولیم جیمس

#### مقدمة :

إذا كان ولیم جیمس قد قال فی كتابه «براجماتزم» : . . لا توجد رابطة منطقية بين المذهب البرجماتي - كما أفهمه - ونظرية سميتها ( بالتجريبية الأصلية ؛ إن هذه النظرية الأخيرة تقوم على قدميها ؛ ومن الممكن إنكارها وتظل براجماتيا » ؛ فإني أرى من الممكن القول إنه يمكننا أن نؤمن بنتائج أبحاث ولیم جیمس فی العقيدة دون أن نكون براجماتيين ، أو أن تكون براجماتيين ونحن مفكرون لديانة ولیم جیمس .

إن القارئ العادي حين يقرأ لصاحب المنهج البرجماتي يعتقد - ولو إلى حد ما - أنه مفكر آخر غير صاحب صنوف من التجربة الدينية . ذلك لأن الأساس الذي اتخذه ولیم جیمس فی تبرير العقيدة الدينية ، وفي تقريره وجود جوانب خفية في الطبيعة الإنسانية ، وتقرير وجود الله وصلتنا به . . . أساس يعتمد على الذاتية إلى حد كبير . والموضوعة العلمية تنكر معظم ما وصل إليه جیمس من نتائج في فلسفته الدينية . إذ أنها لا تخضع للتحقيق التجريبي الدقيق .

ولكن هذا الاختلاف لم يمنع جیمس من استغلال منهجه البرجماتي في أبحاثه الدينية : إنه يستخدمه في التخلص من الفلسفات الدينية المجردة ؛ ويجعله معيار الصدق في بعض المعتقدات وأنواع السلوك وبآثارها ونتائجها . دفع جیمس إلى أبحاثه في الدين عوامل كثيرة أذكر منها : تربيته الدينية ؛ وممارسته للأبحاث النفسانية Psychical Researches <sup>(١)</sup> في أثناء انشغاله

( ١ ) الفصل العاشر من كتاب إرادة الاعتقاد لولیم جیمس عنوانه « نتائج البحوث النفسانية » .



بالتنويم المغنطيسى ودراساته السيكولوجية لحالات مرضية ؛ فقد أوضحت له هذه الأبحاث بنتائج تجريبية تتعلق بالنواحي الخفية للشعور الإنسانى ؛ ومن دوافع جيمس أيضاً للبحث الدينى تأثره بالمذهب « الهيجلى الحديد » وخاصة بالفيلسوف جرين T.H. Green ؛ إن إنكار جيمس للنتائج التى وصل إليها هذا المذهب دفعه إلى تكوين رأى مستقل فى الدين ؛ كما أن لدراسة جيمس لسير الأدباء والفلاسفة ممن لهم نزعات صوفية أثر كبير فى أبحاثه .

ولم يبحث ولم جيمس فى العقائد كرجل دين ولا كعالم فى تاريخ الأديان وإنما يبحثها كعالم سيكولوجى . سیدرس النزعات الدينية Religious Propensities والوجدانات الدينية R. feelings ، والدوافع الدينية R. Impulses دراسة سيكولوجية بحثة (١) ؛ وسيجعل مادته دراسة سير الأدباء الصوفية .

## للإنسان حق مشروع فى أن يعتقد بأمور الدين

الإيمان عنصر فى الطبيعة البشرية : قبل أن يقوم جيمس بأبحاثه السيكولوجية فى النزعات الدينية عند الإنسان يقدم بحثاً آخر فيتساءل هل البحث فى الدين أمر مشروع ؟ وهل للإنسان حق اعتناق معتقدات دينية (٢) .

يجيب جيمس بالإيجاب : للإنسان حق مشروع فى الاعتقاد . بل الإيمان عنصر أساسى من عناصر الطبيعة البشرية . ويعرف الإيمان بأنه الاعتقاد بشىء يمكن أن نشك فى وجوده من الناحية النظرية البحثية . وحين ينكر الذهن وجود شىء أو يتشكك فيه لا يقوم ذلك دليلاً على أنه غير موجود : لأن

(١) James : Varieties of Religious Experience, Longmans, 1952. p. 4.

(٢) موضوع هذا التساؤل وجوابه مسجل فى مقالة جيمس الشهيرة إرادة الاعتقاد، التى صدرت أولى مقالات كتاب كامل سمي باسمها . ولقد قال جيمس بعد نشر هذا الكتاب إنه كان يجب أن يسميه حق الاعتقاد .

الذهن ليس كل شيء في الطبيعة البشرية ؛ في هذه الطبيعة ذهن ووجدان وإرادة<sup>(١)</sup>.

ويرى جيمس أن للسلوك دافعين : فإما أن يكون الدافع هو طبيعتنا الغريزية والإرادة ، أو أن يكون الدافع هو الذهن . ويدافع عن الدافع الأول وقيمته في تقرير الاعتقاد الديني<sup>(٢)</sup> . ويصوغ جيمس نظريته هذه فيقول : « نظرتي — أنه : يجب أن يكون لرغباتنا الحق المشروع في تقرير الاختيار بين القضايا حين لا يمكن تقريره على الأساس الذهني . ذلك لأنك حين تقول ( لا تقرر حيثئذ شيئاً ، بل اترك المسألة مفتوحة ) ، فإنك تقرر قراراً عاطفياً هو الآخر ؛ كأنك قلت « نعم أو لا » . يريد جيمس أن الذهن ليس الأساس الوحيد لاختيار صحة فرض أو كذبه ؛ وإنما توجد أسس أخرى أهمها الوجدان والرغبة والعاطفة . فإذا أعوزنا البرهان العقلي على وجود شيء ، أو أعوزنا التبرير الذهني لتحقيق فرض ما ، فلن يكون هذا دليلاً على إنكار الشيء أو رفض الفرض ، وإنما نبحث عن معيار آخر . »

### الإيمان فرض نافع :

وينحش جيمس أن تفهم كلمات الرغبة والعاطفة ونحوهما فهما خاطئاً ، فينقلب كلامه ذاتية مسرفة فيقول إن الإيمان استعداد السلوك . وهي فكرة مأخوذة عن تشارلز بيرس . ولكن على حين كان يقصر الأخير الاعتقاد على الأفكار العلمية ؛ إذا بجيمس يستخدمها في العقائد الدينية والحلقية — يرى جيمس إن الإيمان استعداد للسلوك ؛ وبمعنى آخر يرى أنه فرض نافع وليبيان ذلك عند جيمس أقول إنه كان يسمى أي شيء تقترحه ليكون جزءاً من عقائدنا يسميه فرضاً . والفرض عنده نوعان : فرض حي وفرض ميت والفرض الحي هو ذلك الذي يمكن قبوله والسلوك وفقاً له بالنسبة للمقترح ؛ أما الفرض الميت

James : Essays in Pragmatism, Hafner, N.Y. 1948. p. 22. ( ١ )

Ibid. pp. 88-9. ( ٢ )

فهو للفرض الذى ليس له من أثر على سلوك الفرد . وليست الحياة أو الموت صفتين فى الفرض نفسه ، وإنما هما صفتان ذاتيتان فى المفكر ذاته : إن رغبة المفكر رغبة أكيدة فى السلوك وفق فرض ما يكسب هذا الفرض أعلى درجة من الحياة . فإذا اكتسب فرض ما رغبة فى السلوك سمي عقيدة . كأن العقيدة فرض « أمكن تحقيقه تحقيقاً تجريبياً لدى صاحبه »<sup>(١)</sup> ولا يترك جيمس خطوة التحقيق هكذا غامضة عابرة ، وإنما يؤكد أن الفروض — فى مجال التحقيق — نوعان : منها ما يمكن إثباتها أو إنكارها بسرعة ، ومنها ما يستلزم إثباته زمناً طويلاً . فمثلاً قد تستنفد بعض النظريات العلمية مجهود أجيال لكى نتأكد من صحتها : كنظرية دارون فى التطور ، وفروض حركات المادة ؛ إذ أن العالم ينبغى أن يتوقع النتائج المثبتة والمكذبة الفرض ، فإذا غابت النتائج المكذبة أمكنه القول بصدق الفرض إلى حد ما . يقول جيمس إن وجود الله وخلود الإنسان وحرية الإرادة من الفروض التى يحتاج المعتقد بها إلى زمن طويل لتحقيقها ومن الطريف قول جيمس مرة فى معرض الحديث عن صدق موضوعات الدين : « . . . إن الدليل العلمى على أنك على حق قد لا يتضح تماماً قبل أن تقوم الساعة ( أو قبل وجود مرحلة أخرى من الوجود يعبر عنها بذلك التعبير ) »<sup>(٢)</sup>.

### الإيمان يحقق نفسه بنفسه :

وأريد أن أوضح فكرة جيمس فى أن الوجدان والرغبة هما مصدرا تثبيت العقيدة الدينية أو الخلقية وليس الذهن . يخطو جيمس خطوة جريئة حين يعلن أن الإيمان يحقق نفسه بنفسه ويقصد بذلك « أن الرغبة فى شيء ما تخلق وجود ذلك الشيء ، وأن الرغبة فى حقيقة معينة معناها وجود هذه الحقيقة . . . وأن الاعتقاد فى واقعة ما يساعد على خلق هذه الواقعة »<sup>(٣)</sup>.

( ١ ) James : Essays in Pragmatism. p.p. 88-9.

( ٢ ) James : Will to believe and other essays in Popular Philosophy Longmans

Green. ed. 21st, 1927. p. 62.

( ٣ ) James : Essays in Pragmatism. pp. 104-5.

إن الفكرة البرجماتية الأساسية — عند جيمس ومن قبله ومن بعده — هي أن الاعتقاد صحيح بقدر ما يدفع إلى سلوك ؛ أو أن الاعتقاد صادق ، إن كان السلوك الناتج مطابقاً له .

ويصوغ جيمس هذه القاعدة على طريقته الخاصة فيقول إن أية فكرة — لكي تكون صادقة — ينبغي أن يصاحبها اعتقاد شخص فيها ، وذلك شرط أساسي لصدقها . ذلك لأن النجاح يتوقف على طاقة الفعل ، وتتوقف الطاقة بدورها على إيمان منا بأننا لن نفشل ، ويتوقف هذا الإيمان بدوره على إيماننا بأننا على حق . وبذلك يصبح الإيمان خالقاً لموضوعه أو محققاً لنفسه بنفسه . ويوضح جيمس فكرته بمثال — يقول :

« . . . افترض أنني الآن متسلق جبلا من جبال الألب . وافترض أنني أجهدت نفسي في الحركة . ومن سوء طالعي وصلت إلى مكان لا منجى منه إلا بقفزة هائلة وليس لدى من التجارب السابقة ما يبرهن على مقدرتي على أن أقفز تلك القفزة . ولكن الأمل والثقة وحدهما هما اللذان يجعلانني أعلم أنني لا أخفق فيها . وسيعطيان أعصاب قدمي قوة تجعلها تنفذان ما قد يكون — من غير هذه الانفعالات النفسية — أمراً مستحيلاً . ولكن افترض العكس أي افترض أن انفعالات الخوف واليأس وسوء الظن تملكتنى وشعرت أن من الخطيئة أن يعتمد المرء على فروض لم تدعمها التجارب السابقة . فماذا يحدث ؟ سأتردد كثيراً ، وقد أصاب برعشة ، وقد أرى بنفسى — في ساعة من ساعات اليأس — فتزل قدماي وأسقط في الهاوية . إن الحكمة في هذه الحالة أن أعتقد فيما أريد ؛ لأن الاعتقاد شرط أساسي وأولي لتحقيق ما أرجو من غرض . إن هناك حالات يبرهن فيها الاعتقاد على نفسه : اعتقد وسوف تكون على حق إذ سوف تنجى نفسك . أو شك وستكون على حق أيضاً ولكن سوف تهلك نفسك والفرق الوحيد ( في الحالين ) هو أن الاعتقاد يجلب لك الخير والنفع ويحقق ما أردت . »

هذا معنى قول جيمس إن الاعتقاد بوجود شيء يوجد فعلاً خاصة إذا



انطوى الاعتقاد على رغبة أو حاجة أو انفعال — ومعروف أن هذه النظرية تستند إلى أساسين : أعني النظرة التفاضلية للحياة ، والاعتقاد بأن الإنسان حر مختار فيما يفعل .

ويعتقد جيمس إن العالم ليس خيراً وليس شراً في ذاته ، وإنما هو ما نصنعه فيه . وهو يصادر على التفاؤل ويقول لنا نريد العالم أن يكون خيراً كله ، ويأتى ذلك من اعتقادنا بأنه كذلك . وما يدعونا إلى هذه المصادرة هو أن ننتجها حسنة مفيدة بالنسبة لنا<sup>(١)</sup>.

## الوجدان لا الذهن هو الذى يثبت الاعتقاد بالدين

### مقدمة :

وصلت إلى أن الاعتقاد في الدين مشروع ، وأن للبحث فيه مبرراته وأن ذلك ليس مناقضاً للعقل حيث يمكن تحقيق الاعتقاد بالتجربة عن طريق نتائج النافعة للأفراد . وقبل أن يفصل جيمس الحديث في هذه النتائج النافعة : ما هى . وأين تكون . وما دلالتها ؟ يضع أساساً آخر ( والأساس الأول هو حق الاعتقاد ) وهو أن الذهن كوسيلة البرهنة على موضوعات الدين ليس حقاً : وإنما الوجدان هو الوسيلة الوحيدة لتثبيت الدين في نفوس الناس . وطريقة جيمس في الوصول إلى ذلك الأساس هى استعراض الفلسفات الدينية التى تدعم الدين تدعياً ذهنياً وتبرهن عليه بالعقل البرهاني وتحليلها وبيان أنها فشلت في إقرار العقائد .

ويمكننى على أى حال أن أحصر المذاهب الفلسفية الدينية التى عرضها جيمس في ثلاثة : الأديان السماوية . علم اللاهوت عند المدرسين . المدرسة الهيجلية الجديدة .

( ١ ) سأتناول موضوع التفاؤل بشكل أوسع ، وموضوع حرية الإرادة بالتفصيل في فقرة الأخلاق

## الأديان السماوية :

لا يفرق جيمس بين اليهودية والمسيحية والإسلام تقريباً ، ويطلق عليها جميعاً اسماً واحداً هو الدين السماوي تارة ، وعلم اللاهوت تارة أخرى ، والمذاهب المؤلفة تارة ثالثة ؛ أو يدعوها جميعاً بالثنائية . يعتقد جيمس أن صفة أساسية تشترك فيها كل الأديان السماوية هي أنها ثنائية : ذلك لأنها تصور الله والمخلوقات وجودين متميزين الواحد منهما عن الآخر . وتضيف إلى الله صفات تبعد به كل البعد عن أن يشابه الإنسان . وليس العالم المخلوق جزءاً منه أو ظلاً له ، وإنما هو خارج مستقل عنه . وتقول الأديان إن خلق الله للإنسان مغاير لخلق العالم الطبيعي إذ أن الإنسان جوهر مستقل عن العالم وليس متطوراً عن بعض الكائنات فيه . وصلة الله بنا صلة توجيه منه وتأثير فينا ، وطاعة عمياء منا . والحقيقة موضوعية لصلتها بالله وهي مستقلة عن الإنسان خالدة ، وقائمة سواء أعرفها الإنسان أم جهلها<sup>(١)</sup> . وتقوم الأديان في أساسها على أداء طقوس مفروضة سواء أكانت تقديم قرابين أم ضحايا أم عبادات وصلوات . ولا بد من تأديتها رضى الأفراد أم كرهوا . وأن مقدار إخلاص المعتقد يقاس بمقدار طاعته لهذه الأوامر وبعده عن النواهي المدونة في الكتب<sup>(٢)</sup> .

ويعتقد جيمس أن إيمان الناس في العصر الحديث بالأديان المنزلة بدأ يزول تدريجياً — إن لم يكن قد زال نهائياً . وذلك لأسباب كثيرة منها أن الأديان تقوم على التخويف والتهديد والعقاب والرهبة . ومنها فرض العبادات والاعتقاد بأنها أساسية وهي التي تميز الإيمان من الكفر مع أنها ظواهر سطحية في نظر الكثيرين اليوم . ومنها نهضة العلم والنقد الفلسفي . فلقد أظهر العلم أن الإنسان واضع القوانين ولم يتلقاها من الله ، وأن القوانين خاضعة للتغير والتعديل وليست خالدة . ولقد أبان دارون وغيره أن فكرة العناية الإلهية والتدبير خرافة ،

( ١ ) James : Pluralistic Universe. pp. 25-27.

( ٢ ) James : V.R.E. p. 29.

وأن النظام الغائي غير موجود ، إذ أن فكرة النظام تفسير إنساني مصطنع لا وجود له في الكون ذاته . كل ذلك قلل من شأن سلطة الله في العالم والعباد .

وأما النقد الفلسفي فقد كان يقصد به جيمس الموجة التعددية وموجة المطلق هما مختلفان في النتائج حقاً ولكنهما يتفقان في تقدير قيمة الفرد وأنه عنصراً فعالاً في إدارة دفة العالم وتعديله وإصلاحه وتعبيره . وأن العالم لا يبدو أنه كامل منذ البدء ، وإنما هو يستكمل ذاته بلا تحديد كما يرى التعدديون . وكذلك يشعر أتباع المطلق أن الهوية مطلقة بين الذات الجزئية والذات الكلية وليست الذات الكلية هي الله فقد تتألف هذه الذات من مجموع الذوات مرتبطة ببعضها بتلك العلاقات الداخلية<sup>(١)</sup>.

### علم اللاهوت عند المدرسين :

يعرض وليم جيمس هنا دفاع الآباء عن العقائد المنزلة دفاعاً برهانياً عقلياً . وأدلتهم على وجود الله وحديثهم عن صفاته ولقد حصر جيمس أدلة اللاهوت على وجود الله في ثلاثة أدلية : دليل العلة ، والتدبير Design ، والقانون الخلق<sup>(٢)</sup>.

يقال عادة إن العالم الطبيعي محتاج بالضرورة لعلة أولى يمكن أن يرد إليها . وتحوى هذه العلة الأولى كل أنواع الكمالات . ويسمون هذا الدليل بالدليل الكوزمولوجي ويقال عادة إن العالم الطبيعي يسير وفق قوانين جبرية خالده وأن بعض الظواهر مناسبة للبعض الآخر وبعض القوانين متسق مع البعض الآخر بحيث يؤدي هذا الاتساق بين الظواهر والقوانين إلى النظام والاطراد والغائية والوحدة .

ويقال عادة إن وقائع الأخلاق تفترض وجود واضح لقوانين الأخلاق . ومن الحرج أن نجعل مصدر الإلزام إنسانياً ، لأن ذلك سوف يجعل الإنسان

( ١ ) Ibid : p. 429.

( ٢ ) James : V.R.E. p. 428.

مقياس الأشياء جميعاً؛ وقد يطيح هذا بالأخلاق . إذن لا بد أن تجعل المصدر الخلقى خارجاً على الإنسان — في الله .

ولم يكلف جيمس نفسه جهداً كبيراً في مناقشة هذه الأدلة على وجود الله وبيان قصورها؛ واكتفى بما قاله السابقون . قال إن السببية مبدأ غامض لدرجة أنه لا يستحق أن تقوم عليه كل العقائد — وليست السببية مبدأ موضوعياً وإنما هو من صنع الإنسان . تعود الإنسان أن يرى سابقاً ولاحقاً وأنهما يرتبطان في معظم الحالات فاعتقد بأن الارتباط عِلْسِيٌّ، وليس للعلية دلالة بعد ذلك، ووضح أنه أخذ هذا التعليق على العلية عن هيوم . وقال أيضاً إن أفكار دارون أطاحت بفكرة العناية الإلهية والتدبير . إن في العالم عنصرى النظام والاضطراب معاً ، وليس عنصر النظام وحده . حقا توجد ظواهر وعلاقات بين تلك الظواهر ، يناسب بعضها بعضاً، ولكن توجد إلى جوارها ظواهر وعلاقات لا صلة بين بعضها وبعض ، ومنفصل بعضها عن بعض . كل ما في الأمر أننا نضع أعيننا على الوقائع المطردة ، ونترك ذلك الحشد الضخم من الوقائع والأشاج المتنافرة . ولقد صدق دارون حين اعتقد أنه إذا كان لا بد من تدبير في الكون فإنه تدبير شيطان ، أو عناية علة مضطربة ؛ لأن هنالك كائنات تموت وتنهار ، وظواهر تخرج من لا شيء وقيام أشياء على أكتاف أشياء أخرى وهلاكها ونحو ذلك (١) .

ويعرض جيمس دفاع الآباء عن الصفات الإلهية كما عرض دفاعهم عن الذات . أخذ اللاهوتيون صفات الله كما وردت في الكتب المقدسة ، وراحوا يبررونها تبريراً جدلياً . قالوا مثلاً إن الله — من حيث هو العلة الأولى — مختلف عن جميع مخلوقاته ، لأن وجوده من ذاته . ويستتبع الذى وجوده من ذاته أن يكون ضرورياً مطلقاً ، ويعنون بذلك أنه لا يمكن ألا يكون ، ولا يمكن أن يحدده شيء آخر . وهذا يجعله غير محدود من خارج Unlimited from without وغير محدود من داخل : ذاك لأن التحديد عدم والله هو الوجود ذاته . وتؤدي



هذه اللانهاية في الله أن يتصف بالكمال التام . والله واحد لا شريك له لأن الكامل اللامتناهي لا يسمح بند له . وهو روح لا مادة فيه ، وبسيط ؛ لأنه لو كان مركباً من أجزاء ، لاحتاج إلى مبدأ يوحد بينها . وهو بسيط من الناحية الميتافيزيقية كذلك بمعنى أنه لا يمكن التمييز بين ماهيته من وجوده . وبهذه الفكرة نستبعد كل تمييز مألوف بين القوة والفعل ، وبين الجوهر والعرض ، وبين الذات والصفات . ونفى القوة عن الله يضطره أن يكون ثابتاً ، وهو فعل دائماً لأنه إذا كان في الله شيء بالقوة فإنه إما أن يفقد التحققات أو يكسبها وكلاهما يناقض كماله ؛ ومن ثم فهو لا يتغير .

هذه بعض حجج اللاهوتيين في صفات الله فكيف يناقشها جيمس ؟ إنه يستعين بمبدأ بيرس للقضاء على هذه البراهين . وجد في بيرس عوناً كبيراً على تحليل صفات الله تحليلاً برجماتياً . وأريد أن أبين أولاً ( مبدأ بيرس ) أو (المبدأ البرجماتي ) في تصور جيمس . يروي جيمس عن بيرس قوله « إن العقائد قواعد للعمل والسلوك . . . إذا وجدت تفكيراً لا يحدث فرقاً في النتائج العملية فلا دلالة له . لكي تقوم تفكيراً ما فإننا محتاجون إلى تحديد السلوك الممكن أن ينتج عنه [ لأن ] هذا السلوك هو كل دلالة التفكير بالنسبة لنا . . . ولكي نصل إلى وضوح كامل لأفكارنا في شيء ما ، نحتاج إلى الإحساسات سواء منها المباشرة أو البعيدة المتصور توقعها منها ، إلى السلوك الذي يجب أن نعد أنفسنا له في حالة ما إذا كان هذا الشيء صادقاً . إن فكرتنا عن هذه النتائج العملية هي كل فكرتنا عن الشيء إذا كانت لهذه الفكرة دلالة على الإطلاق » . هذا هو مبدأ بيرس أو المبدأ البرجماتي . ويساعدنا هذا المبدأ في بحثنا الحالي لنقرر ما إذا كان لكلام المدرسين في صفات الله دلالة أولاً .

وحين يستخدم جيمس المبدأ البرجماتي في صفات الله يرى أنها تخلو من أي دلالة معقولة ، رغم أنه يعترف بأن لها قوتها المنطقية . والمقصود بالدلالة هنا الأثر العملي الذي ينطبع في سلوك الفرد من وراء اعتقاده بصفة أو بالآخرى . فأية صفة من الصفات الإلهية مثل الوجود بالذات أو الكمال أو اللانهاية أو

اللامادية . . . لا تحدث خلافاً في سلوك الفرد نحو الله أو نحو الحياة العملية . إذا كنت معتقداً بالله فإنني سأسلك في الحياة بنحو يطابق اعتقادي سواء علمت أنه روح وفعل وواحد أم علمت أنه ليس كذلك . ليس لهذه الصفات من أثر في حياتنا حتى لو كنا معتقدين بوجود الله . إنه لا يوجد فعل معين أفعله يعتبر نتيجة لاعتقادي ببساطة الله . إن بساطته لن تؤثر في سلوكي .

ولكن جيمس يرى أنه قد يكون لبعض صفات الله الخلقية شيء من الدلالة على الأساسى البرجماني - وإن كانت دلالة لا يعتد بقيمتها الكبيرة في نهاية الأمر . يقول جيمس إن إضافة صفة القداسة لله تجعلني أعتقد أن الله لا يريد إلا الخير . ولإضافة العلم الكامل لله أثر على سلوكي لأنها ستجعلني أعتقد أنه يمكنه رؤية أفعالي في الظلام . وتصور العدل الإلهي يؤثر على سلوكي حيث إن عقابي أمر محتم حين يرى مني عصياناً . وحب الله العباد يحماني على الاعتقاد بأنه ميال للغفران وقبول التوبة ونحو ذلك <sup>(١)</sup> .

إن جيمس رغم ذلك لا يقدر قيمة تلك الصفات الخلقية في السلوك الديني للأفراد ثم إن هذه الصفات ليست بذات أثر فعال على كل الناس . وترك جيمس دلالات هذه الصفات مستنداً إلى المصادرة التي يستند إليها وهي أن الوجدان لا الذهن هو الذي يقرر العقيدة الدينية أو الخلقية . إن الفكر يصنف الوقائع الدينية ويفسرها ، لكنه لا يخلقها . الذهن وظيفة في ترتيب العقائد وتنظيمها بعد أن تكون قد استقرت من النفس فعلا . الوجدان وظيفته الأساسية الأولية وللذهن الوظيفة الثانوية .

### المذهب الهيجلي الجديد Neo-Hegelianism <sup>(٢)</sup> :

يتعرض وليم جيمس لهذا المذهب كثيراً ، وكان يتصور جيمس أن هذا

( ١ ) James : V.R.E. pp. 437-8.

( ٢ ) المذهب الهيجلي الجديد اسم يطلق على المدرسة التي قامت في إنجلترا وأمريكا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والتي تأثرت بالفكر المثالي الألماني القائم على فلسفة كمنط وهيجل . ولقد =

المذهب هو التيار الفلسفي الذي يدافع عن أساس روحي ديني للفلسفة دون الرجوع إلى نصوص للدين أو عقائد المنقولة من للكتب أو الآباء ؛ وإنما بطريق البرهنة المنطقية الجدلية المستندة إلى فلسفة المطلق .

توماس هل<sup>١</sup> جرين ( ١٨٣٦ - ١٨٨٢ )

رائد الهيكلية الجديدة في إنجلترا ، وأستاذ الفلسفة الخلقية في أكسفورد ، وله الفضل في شيوع المذهب الجديد بنشر كتابه عن هيوم<sup>(١)</sup> . ويمكن القول بأن أصول فلسفة جرين هجوم على تجريبية هيوم ، ونفعية مل ، وتطورية سبنسر ، والمذهب الترابطي Associationism في تفسير العقل . ولم يكن تابعاً مخلصاً لفلسفة هيكل كما قد يفهم ، وإنما أراد أن يؤسس ميتافيزيقا مثالية تضاف إلى العلم الطبيعي مسترشداً فيها بفلسفة هيكل . ويمكن تلخيص أهم آرائه في القضايا التالية :

ليس العالم الطبيعي كل ما في الكون على ما يرى سبنسر وأتباعه ، وليس الإنسان مخلوقاً بيولوجياً فحسب ؛ لأنه لو كان كذلك فكيف تسنى له وضع نظريات لتفسير القوى الطبيعية حيث لا يفسر الشيء بذاته ، وليس مجرد تابع الانطباعات والإحساسات يؤدي إلى معرفة . - الواقع أن العالم الطبيعي لا تمكن معرفته إلا إذا كان يوجد مبدأ روحي يوحد بين الظواهر الموجودة ولا يمكن للطبيعة أن تكون نظاماً متسقاً دون هذا المبدأ . ومن ثم فالعالم الطبيعي - على اختلاف ما فيه من أجزاء منفصلة متباعدة - نسق من الوقائع المتصلة ذات العلاقات المترابطة ترابطاً ضرورياً . وهذا يوحى بعقل خالد أو يوحى بشعور يتضمن الكل . هل نعرف شيئاً عن هذا الشعور الكلي ؟ لا نعرف عنه شيئاً

= كانت بداية انتقال هذه الفلسفة إلى إنجلترا في مطلع القرن ١٩ عن طريق الأدباء من أمثال كولردج ، و كارليل ، وردزورث ، ورسكن Ruskin . ولكن عناية الإنجليز بهذه الفلسفة لم تكن شديدة إلا بعد ظهور كتاب J.H. Stirling وعنوانه The Secret of Hegel . وأهم أصحاب المذهب من إنجلترا : T.H. Green وأهم تلاميذه : E. Caird وأخوه J. Caird و Bradley و Bosanquet . وأهم أتباعه في الولايات المتحدة Palmer و Royce .

( ١ ) T.H. Green : Intorduction to Hume's Treatise of Human Nature. ١874.

إلا آثاره علينا : إنه يمكننا من معرفة العالم — وبذلك نصل إلى نتيجة لجرين أساسية في فلسفته هي أن المعرفة مستحيلة دون تصور وجود هذا المبدأ الخالد . ولا تتركب المعرفة من مجرد انطباعات وإحساسات فقط ، وإنما ينبغي أن توجد نفس تحوى هذه الإحساسات وترتبها . ومن هنا أمكن القول أن الإنسان — عند جرين — ليس كائنا بيولوجيا فحسب ، وإنما هو كائن روحى ، وبه مبدأ غير طبيعى . وظيفة هذا المبدأ جعل المعرفة ممكنة . وله وظيفة أخرى هي إدراك المثل الأعلى الخلقى اللازم في تحديد السلوك . يرى جرين أن الإنسان يتصور إمكان أن يكون على حال أفضل مما هو عليها ، ويتصور إمكان تحقيق هذا الحال . إن كمال الروح الإنسانية هي خير الإنسان الأسمى . وليس من الضرورى أن يتحقق هذا الخير الأسمى في نفسى أنا ، فقد يتحقق في نفسى أو في نفس أخرى . ومن هنا نصل إلى الكمال الخلقى المطلق أو فكرة المجتمع المثالى . فى مثل هذا المجتمع يتعامل الأفراد كأنهم أصدقاء زملاء وقد يرى فرد ما كماله متضمنا فى كمال آخرين . وينتقل جرين من هذه الاستدلالات إلى أن إحدى صور الخير الأسمى بل أفضلها هي الصورة الدينية ؛ وفيها يرتفع قلب الإنسان إلى الله . إنه المبدأ الخالد الذى يمكننا من معرفة عالم الظاهرات والذى بفضلله وجدنا المبدأ الخلقى فى ذاتنا<sup>(١)</sup> . وتصور جرين لله أو المبدأ الروحى قائم على تصوره المثالى للكون : إنه يعتقد أنه يمكن أن يتحول كل شىء إلى تصورات ، ويمكن لكل تصور أن يندرج فى تصور آخر أكبر منه وأوسع ، وما ينطبق على الظاهرات الطبيعية ينطبق على كل شعور فردى أى أن العقول الفردية ما هي إلا مظاهر سطحية من العقل الأكبر الذى يمكن أن يسمى الله . وليس الله سوى مجموعة من علاقات . إنه يتضمن فى ذاته كل المجردات أو إنه مركز مثالى لإشعاعات غير محددة توجد بها كل المتناقضات كما يوجد بها الخير والشر والصواب والخطأ<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) Thilly & Wood : A History of Philosophy. Henry Holt 1952. pp. 558-62.

( ٢ ) Gilbert Maire : James et le pragmatisme Religieux. Denoël et Steele.



### چوزيا رويس ( ١٨٥٥ - ١٩١٦ ) :

كان أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد ، وقائد الحركة المثالية الجديدة في الولايات المتحدة . ويمكن أن يعتبر أحد المؤثرات التي تأثر بها وليم جيمس في العقيدة الدينية لأن جيمس يشير إلى أحد كتبه في الفلسفة الدينية كثيراً ؛ ويمكن أن يعتبر أيضاً الرمز الخطير لفلسفة المطلق الأمر الذي نبه جيمس إلى ضرورة مواجهته والدفاع عن نظرياته في العلاقات الخارجية ، وفي المذهب التعددي . يمكن تلخيص أهم أفكار رويس - فيما نحن بصددده - في قضايا موجزة : إن الصفة الأساسية التي يمكن أن نحملها على عالمنا هذا هي أنه فكري أي أن العالم ما هو إلا نسق معين من الأفكار . وكل واقعة في العالم يمكن أن تفسر تفسيراً عقلياً . وفي كل إنسان عقل ، بل ما الإنسان إلا عقل . وفي كل عقل أفكار . وليست أفكار الإنسان كل شيء ، وإنما يوجد نسق من الأفكار خارج عقولنا - أي يوجد عقل كلي . وبدا لرويس أن عالماً لا يتصف بهذه الصفات العقلية هو عالم معتم . وعلى الإنسان أن يختار إحدى اثنتين : إما أن يقول بعقل ترنسندنتالي ، أو يقول بالمجهول ولكن المجهول جهلاً مطلقاً لا وجود له ، ولا دلالة لتصوره . فلا مفر من القول بالعقل المطلق . والعالم الذي نعيش فيه موضوع معرفتنا ، لأنه عبارة عن مجموعة أفكار أو مجموعة عقول . ولكن كيف نصل إلى هذه الأفكار القائمة في عقول خارجة علينا ؟ يرى رويس أننا لا نصل إلى أفكار خارج أفكارنا ، ولا نستطيع الوصول إليها ، ولا ينبغي أن نرغب في ذلك . حل المشكلة في نظره هو أن يقوم بين كل العقول التي يتكون منها العالم الواقعي وبين عقلي هوية مطلقة : إن العالم واحد بل عالم ذات واحدة . إن العالم الخارجي الذي نعرفه على أنه موضوع إنما بينه وبين عالم الذات هوية مطلقة . ومن ثم يمكن تصور « ذات عميقة » تنطوي عليها جميع اللذات وتتضمن كل الحقائق : يسميها رويس بالالوجوس Logos . ويقول عن الالوجوس إنه حلال المشكلات والعلم بكل شيء .

وله رأى فى الأخلاق قائم على تصور المطلق ومستند إلى آراء جريرن فيما أرى، خلاصته إن الولاء للولاء Loyalty for loyalty أمر ضرورى ومعناه أن ولأ الإنسان لعة كبرى قد يجعل كل ولأ ممكناً . ويتضمن الولاء الإيمان بعة كلية لها دلالتها الروحية . ويعتبر مبدأ الولاء لذاته وهما لا معنى له إلا بوجود وحدة روحية نجد فيها كل القيم<sup>(١)</sup>.

### تعليق جيمس على المطلق :

جاء وليم جيمس ورأى أن الدين السائد فى الأوساط الفلسفية هو ما رآه جريرن فى إنجلترا ورويس فى أمريكا . وتصور أنهما أرادا أن يخلصا الدين من الوجدانات الفردية من جهة ومن العقائد المنزلة من جهة أخرى ؛ فأخذوا على عاتقهما إقامة الدين على أساس موضوعى — بمعنى إقامته على أسس عقلية وأن القول بالمطلق متضمن فى القول بالله .

أما رأى وليم جيمس فى هذا النوع من الفلسفة الدينية فهو أنها لم تؤد الغرض المقصود منها ، فإنها لم تقم ديناً ولم تقر عقائد . ذلك لأن جيمس مستند إلى مصادرة أساسية أو فرض أساسى هو أن الذهن ليس الوسيلة الصحيحة لإقرار العقيدة الدينية وإنما وسيلة ذلك هى الغريزة والوجدان وأن الذهن وظيفته فقط فى تنظيم العقيدة أو تنسيقها أو التعرض لها بالتعديل والتهذيب .

يشعر جيمس بأن الدين فى مأزق حرج : إما أن نقول مع أصحاب المذهب العقلى والمذهب المطلق أقوالهم البرهانية ولا جدوى منها فى سلوك الأفراد لأن الذهن ليس كل الطبيعة الإنسانية وإنما يصاحبه الوجدان والإرادة . وأما أن نخلص للعلوم التجريبية وإذن سنبتل الدين وسنغنى فقط بالوقائع . ولكن الدين عنصر من عناصر الطبيعة البشرية . يقول جيمس، إن المذهب البرجماتى حل وسط بين المذهبين العقلى والتجريبى : سيأخذ العقل من العقلى ، والحس من التجريبى — يقصد بذلك أنه يعتمد على التجربة — فى إقرار الدين ( التجربة النفسية

والدينية ) وسيحاول أن ينظم هذه التجارب في نسق برهاني مؤتلف بعد ذلك .  
 لم رأى جيمس أن الوجدان لا الذهن هو الأساس في إقرار الدين ؟  
 سيقول إن الدين يعتمد على إيمان بعالم غير منظور . ولن يوصلنا الذهن  
 إلى الاعتقاد به ، وعجز الذهن عن البرهنة على وجوده لا يبرر رفض هذا الوجود  
 وهو ما عرضه في حق الاعتقاد . وسيرى أن الوجدان والغريزة يحققان وجود  
 هذا العالم الخفي مستنداً في ذلك إلى دراسته السيكلولوجية في تحليل الجوانب الخفية  
 من طبيعة الإنسان .

## ضرورة الاعتقاد بعالم غير منظور

### تجاهل الدين السماوى :

قلتُ فيما سبق أن وليم جيمس قرر أن الاعتقاد عنصر أساسى في طبيعة  
 الإنسان وأن الإيمان مطلب مشروع للإنسان . وعرضتُ محاولة جيمس في بيان  
 فشل الفلسفة اللاهوتية والمطلقة في إقرار العقائد الدينية . ويخلص من ذلك  
 إلى أن الذهن لا يقر العقائد . فيجب على جيمس أن يدافع عن وجهة نظره في  
 أن وجدان الإنسان هو الذى يوصل إلى الاعتقاد الدينى . سيصل جيمس إلى  
 هذه النتيجة عن طريق أن تجربة الإنسان أثبتت — في حالات عديدة —  
 وقائع مؤكدة تنطوى على الاعتقاد بوجود عالم غير منظور : وله وجود حقيقى  
 واقعى وليس مجرد تصور . وسيجعل هذه النتيجة نقطة الارتكاز في الدين الذى  
 يقدم لهذه النتيجة بمقدمات كثيرة .

يفرق جيمس بين نوعين من الدين : الأديان السماوية ، والديانات  
 الشخصية . ويعلن أنه لم يهتم بالأديان السماوية وسيوجه همه إلى الديانة الشخصية .  
 يقول : « . . . سأتجاهل الدين السماوى تماماً في هذه المحاضرات ولن أعنى  
 كثيراً باللاهوت ولا بالأفكار حول الآلهة ذاتها . وسأحدد نفسى — ما وسعنى

الجهد — بالديانة الشخصية البسيطة»<sup>(١)</sup>.

ويحدد جيمس حديثه عن الديانة الشخصية بالتحليل السيكولوجي للديانة أى ما معنى الوجدان الدينى أو الدافع الدينى أو النزعة الدينية فى الإنسان ؟

لا توجد عاطفة دينية أولية :

لم يستطع علم النفس أن يرشد جيمس إلى وجود عاطفة يقال إنها العاطفة الدينية . إن العاطفة الدينية لا تتكون من شىء ذى طبيعة سيكولوجية خاصة ، ولا نعثر على نزعة تسمى النزعة الدينية فى الإنسان . بل لا يوجد عندنا أساس لافتراض وجود « انفعال دينى مجرد » كعاطفة عقلية أولى نجدها فى كل تجربة دينية بلا استثناء ؛ وإنما نجد مخزناً عاماً من انفعالات ، قد تثيرها موضوعات دينية معينة<sup>(٢)</sup> . إننا قد نجد الخوف الدينى أو الحب الدينى أو الرهبة الدينية وهكذا . ويمكن التعبير عن الخوف الدينى لدى إنسان بأن تصيبه هزة فى نفسه نتيجة إثارة فكرة العقاب الإلهى فى نفسه . وما الحب الدينى إلا انفعال طبيعى بالحب موجهاً نحو موضوع دينى معين وهكذا<sup>(٣)</sup> . ولكن الانفعال الدينى بالمعنى الدقيق لا وجود له . كل ما هنالك وجدانات ترتبط بموضوعات دينية يتركب منها وجدان مركب نسميه الوجدان الدينى .

عالم غير منظور :

بعد أن ألقى جيمس الضوء على صعوبة تعريف الدين عن طريق العثور على نزعة دينية خاصة فى الإنسان ، عرفه بأنه مجموعة وجدانات وأفعال وتجارب يعانها الأفراد فى وحدتهم كلما أدركوا أنهم على علاقة مع أى شىء يُعتبر إلهياً ؛ ويتصور جيمس الدين — حسب هذا التعريف — تصوراً أوسع من المعنى المألوف للدين . إنه يتصوره علاقة الإنسان بشىء غير منظور ،

( ١ ) James V.E. p. 20.

( ٢ ) Ibid p. 28.

( ٣ ) Ibid p. 29.



دون أن يتحتم أن يكون هذا الشيء إلهاً أو ما يشبه الإله . وهو تصور نجده واضحاً في تيارات فلسفية كثيرة من تلك التي تدافع عن الدين : قد نقول عن فرد إنه متدين دون أن يكون معتقداً بوجود إله . قد يكون الفرد مؤمناً لمجرد أنه يتصور وجود العنصر الإلهي في طبائع الأشياء ، أو يتصور أن الكون تركيباً روحياً خاصاً . إننا نسمى هذا التصور تصوراً دينياً رغم أنه لا ينطوي على وجود إله حقيقي محدد .

يعرف جيمس الدين بأنه الاعتقاد بعالم غير منظور وأن خيرنا الأسمى كائن في إيجاد الملائمة الناجحة بيننا وبين ذلك العالم<sup>(١)</sup> .

ولو صدر هذا التعريف من مفكر يعلن تمسكه بدين سماوي لما كان بذى خطر ؛ ولكن الخطر يكون حين يصدر من عالم نفس اتخذ الأساس التجريبي الفسيولوجي في دراساته النفسية ، وحين يصدر من الشائر على الفروض العقلية التي لا تحقق تحقيقاً حسيماً ورائد الحركة البرجماتية — لذا وجب على جيمس أن يبذل جهده الضخم في الدفاع عن هذا التعريف . وواضح أن دفاعه سيكون دفاعاً سيكولوجياً .

يبدأ جيمس دفاعه بقوله إن كل مواقف الإنسان سواء كانت عملية أو خلقية أو انفعالية أو دينية — يمكن أن تصدر عن موضوعات الشعور . وموضوعات الشعور — في رأيه — هي كل شيء نعتقد في أنفسنا بأن له وجوداً واقعياً . ولا يتحتم أن يكون هذا الوجود حسياً ، بل قد يكون وجود بعض موضوعات الشعور غير حسى . إن من الموضوعات ما هو حاضر أمام الحس ، ومنها ما هو حاضر للذهن فقط . وقد يكون للموضوعات اللاحسية سلطان وقوة أكثر من موضوعات الحس . وموضوعات الدين عند المعتقدين به إنما هي من قبيل الموضوعات اللاحسية للشعور . ويقصد جيمس بهذه الموضوعات تصور صفات الله ، والثالوث ، وأسرار عملية الخلاص ، والعشاء الرباني<sup>(٢)</sup> . يؤدي هذا التحليل

(١) James, V R E P. 53.

(٢) Ibid., P. 54.

لوضوعات الشعور إلى نتيجة هي أنه يبدو — كما لو كان يوجد في الشعور الإنساني — إحساس بواقع غير منظور : إحساس بحضور موضوعي لأشياء بعيدة عن متناول إحساساتنا . وكلما اشتد إحساسنا بهذا الواقع الخفي ازدادت حرارة العقيدة . إن المعتقد بهذه الموضوعات لا يرى أنها مجرد تصورات وإنما يراها حقائق يمكنه إدراكها إدراكاً مباشراً شبه حسي .

وقد يبدو قول جيمس بالإدراك المباشر للواقع غير المنظور قولاً غريباً . ولكن تزول الغرابة إذا علمنا أن التجربة عند جيمس تتناول التجارب النفسية ، والتجارب الدينية ، وليست مقصورة على التجارب الفيزيائية وحدها . إن جيمس يثق بالتجارب الدينية لدى الصوفية وبالتجارب النفسية في التنويم المغنطيسي وما أوحته نتائج العلاج الروحاني<sup>(١)</sup> — يثق جيمس بها ويتخذها وثائق ولا يوجد ما يدعو إلى تكذيب أصحابها<sup>(٢)</sup> .

ويعلم جيمس أن المذهب العقلي يتهمه برفع الوجدان فوق مرتبة العقل ، وبتقليل قيمة البراهين المنطقية في إثبات وجود شيء أو إنكاره . ورد جيمس على هذا المذهب حاضراً ؛ وهو أن للفلسفة العقلية قيمتها ، لكنها لا تصلح أساساً لإقرار عقيدة دينية أو خلقية . يجب أن يكون الأساس هنا هو الاعتقاد الغريزي أو البرهان الحدسي الذي لا يتبع استدلالاً واضحاً دقيقاً . إن الشيء العميق فينا هو الوجدان لا العقل ، وما البرهان إلا شيء عرضي ينظم الوجدانات ويرتبها فقط .

« الواقع أننا فيما يتعلق بالميتافيزيقا والدين نجد للأسباب المفصلة والبراهين المنطقية قوتها حين تكون وجداناتنا عن الواقع قد انطبعت فينا فعلاً . إن حدودنا وعقولنا يعملان جنباً إلى جنب . . إن اعتقادنا الغريزي هو الذي يضع هيكل

(١) شارك جيمس في مجهودات «جمعية البحوث النفسانية» التي تأسست بأمريكا سنة ١٨٨٢ وأهم أعضائها :

F.W.H. Meyers, R.H. Hutton, B. Stewart W.F. Barrett, Sidgwick

وكان غرضهم القيام بتجارب على من لهم قدرة على رؤية الأشياء غير المنظورة ، وتجارب على التنويم المغنطيسي .

(٢) هل نثق بالتجارب الدينية ثقة موضوعية أولاً ، موضوع فقررة قادمة .

الحقيقة الأساسية دائماً وأن<sup>١</sup> ليست فلسفتنا اللفظية إلا ترجمة منسقة . . الغريزة تقود والذهن تابع<sup>(١)</sup>.

ويجد جيمس سنداً له من كُنْط في نقد العقل العملي . يرى كُنْط أنه توجد موضوعات ليست موضوع معرفة نظرية على الإطلاق مثل الله وتدبير الخلق والروح وحريتها والحياة الأخرى ونحو ذلك ؛ ولكن لها محتوى حسي محدداً أو دلالة تجريبية معينة وإذن فلا مفر من المصادرة على وجودها دون بحث تحليلي عقلي. يقول جيمس ويعترف أنه لا يوجد أساس نظري لوجود عالم غير منظور ؛ ولكن له دلالة في ميدان العمل : أى يمكننا أن نسلك كما لو كان يوجد إله ، وكما لو كنا خالدين ، وستجد أن هذه الكلمات تؤدي إلى خلاف أساسي في حياتنا الخلقية . كيف نصل إلى الاعتقاد بالعالم غير المنظور موضوع بحث آخر لجيمس : سيقول إن في الشعور الإنساني جوانب خفية غير الجانب الواعي من حياتنا المألوفة توجد مناطق في الشعور الإنساني خفية وسامية تتصل بهذا العالم في حالة التجارب الصوفية وسأتحدث عنها تفصيلاً في الفقرة القادمة .

ولكن أريد أن أتساءل الآن : لم فكر جيمس في إقامة مثل هذا الفرض ؟ أو ألقى سؤالاً براجماتياً : هل لافتراض وجود عالم غير منظور نتائج عملية ؟ يجيب جيمس بأن هذا الفرض (فرض نافع) أو (فرض حى) لأن التسليم به يؤدي بالإنسان إلى التفاؤل . ولقد كتب جيمس مقالاً عنوانه «هل للحياة قيمة» ؟ قال فيه إن الحياة تستحق أن نحياها ، إذا اعتقدنا بأن هذا العالم ليس إلا جزءاً من الوجود ، وأنه يوجد إلى جوار عالمنا المحسوس قوى روحية خالدة وتوجد هذه القوى في عالم غير مرئي . اعتقادنا في هذا العالم غير المنظور مصدر اعتقادنا بأن عالمنا المنظور خير للإنسان . ومعنى الخيرىة ملائمة عالمنا لحياة خلقية ودينية ناجحة<sup>(٢)</sup> . يعطينا الاعتقاد في العالم غير المنظور مجالا جديداً وقوى جديدة نستعين بها حين نفقد معركة هذه الحياة ، ونصاب بالعجز أو اليأس إننا حينئذ نشعر بالأمل والسعادة حين نرتقى في أحضان ذلك العالم الفسيح<sup>(٣)</sup>.

J mes : V.R.E. P.74. ( ١ )

J mes : Will to believe, Longmans. ed. 275, 1927. Pp. 39-62. ( ٢ )

J mes : V.R.E. P. 48. ( ٣ )

## الشعور وما وراء الشعور

إن النتائج التي وصل إليها جيمس في فلسفته الدينية هي أن الاعتقاد في موضوعات الدين أمر مستساغ مشروع ، وأن الدين في جوهره اعتقاد في عالم غير منظور ، وأن بيننا وبين هذا العالم صلة وعلاقة . ووصل جيمس في بيان هذه الصلة أن الذهن ليس حلقة الاتصال ولكنه الوجدان والحدس . وأثبت أن الذهن ليس حلقة الاتصال على أساس فشل الفلسفات الدينية القائمة على استدلال منطقي وبرهان عقلي . يبقى بيان جيمس أن إقرار الدين في النفوس وتثبيت عقائده من شأن الوجدان . سيقدم جيمس بيان ذلك عن طريق متابعة الحالات الصوفية فإنها ستظهر لنا أن في الإنسان قوى وقدرات تمكنه من أن يحيا حياة أخرى غير هذه الحياة المألوفة لدى العامة .

### الديانة الحقيقية هي التصوف :

حقيقة<sup>١</sup> ينبغي أن يفتن لها دارس<sup>٢</sup> الفلسفة الدينية لجيمس هي أنه لا يفرق بين الديانة الحقيقية والتصوف . الدين والتصوف لفظان مترادفان . ويؤيد هذه الحقيقة أشياء كثيرة منها قول جيمس « . . . إن حالة الإيمان وحالة التصوف لفظان يستبدل أحدهما بالآخر من الناحية العملية .<sup>(١)</sup> وما يؤيد هذه الحقيقة أنه أنكر الأديان السماوية وتجاهلها وأنكر المفهوم المألوف للدين إذ أن التصوف المألوف للدين هو الاعتقاد بدين سماوي وتصديق ما جاء في كتابه المنزل وكل ما يحويه هذا الكتاب من أفكار وعقائد دون شك أو طلب البرهنة العقلية على صحتها ، ومتابعة هذا الاعتقاد بسلسلة مفروضة من العبادات والأوامر .

لقد حصر جيمس اهتمامه في الديانة الشخصية ، وحددها بأنها اعتقاد



الفرد بعالم واسع خفي له أثره الفعال عليه في حياته الراهنة . وتنطوي هذه الديانة على تجارب شخصية صوفية . ومما يؤيد هذه الحقيقة أيضاً أن الحياة الدينية الصحيحة — كما سأبين من بعد — هي حياة القداسة Saintliness وللقدّيس أوصاف وخصائص منها التقشف والزهد والصفاء والطاعة والفقر ؛ وهي خصائص الصوفي الصحيح .

ولا تسألني عن تعريف 'جيمس' للتصوف إذ يتدنر أن نجد جيمس يعرف ألفاظاً ؛ خصوصاً إذا كان مقبلاً على بناء نسق دقيق . إنه لا واجه التصوف لم يعط لنا تعريفاً محدداً عنه وإنما يعرفه من خلال عرضه لخصائص الحياة الصوفية ومظاهرها ونتائجها على صاحبها والناس .

#### خصائص الحالات الصوفية :

يبدأ ببيان خصائص الحالات الصوفية للشعور وهي أربعة خصائص :

١ — الحالات الصوفية لا يمكن وصفها ولا التعبير عنها : يريد بذلك أنه ليس من السهل أن نعبر عنها في صورة لفظية دقيقة أو أن ننقل مضمونها للآخرين ولذا فهذه الحالات للشعور أكثر شبيهاً بحالات الوجدان States of feeling منها بحالات الذهن .

#### ٢ — الحالات الصوفية حالات إدراكية :

ويعني بها أن هذه الحالات — ولو أنها شبيهة بالحالات الوجدانية — إلا أنها تبدو لأصحابها حالات معرفة بمعنى أن الصوفية يصلون من تجاربهم الصوفية إلى حقائق عميقة . وليس الوصول إليها برهانياً ولكنها Illuminations أو إلهامات Revelations ولها دلالات قيمة وسلطان ضخيم على أصحابها

٣ — الحالات الصوفية سريعة الزوال : إنها حالات لا تستمر طويلاً . ويحدد جيمس للتجربة الدينية نصف ساعة أو ساعتين على الأكثر إلا في حالات تادرة . وبالرغم من أنها سريعة الزوال إلا أن أثرها ثابت في ذاكرة صاحبها وإن كان الثبات غير تام .

٤ - الحالات الصوفية حالات سالبة : إن الإنسان لا يحدثها بإرادته :  
حقاً تكون التجربة الدينية في أغلب الأحيان نتيجة انتباه شديد لموضوعات  
دينية ونتيجة القيام بأعمال بدنية معينة ، ولكي الصوفي حين يعاني تجربته يشعر  
لما لو كانت إرادته الشخصية معطلة لا دخل له في تجربته وكما لو كانت توحد  
قوه عليا خارجية تطغى عليه<sup>(١)</sup> .

### مظاهر القداسة :

إن المتدين عند جيمس هو القديس Saint . والقديس هو من كانت  
الانفعالات الروحية عنده مركز الطاقة الشخصية<sup>(٢)</sup> . وبمعنى آخر يتساءل  
جيمس عن حقيقة الدين تساؤله البرجماني فيقول : إذا كان للدين وجود  
حقيقي فيكون له آثاره في نفوس المعتقدين به فما آثار الحياة الدينية على الفرد ؟  
وما الاختلاف الذي نلاحظه في سلوك الفرد المتدين عن سلوك غيره من الناس ؟  
ويجب ولیم جيمس بأنه يمكننا أن نضع للآثار الدينية في الإنسان لفظ  
« القداسة » فالقداسة إذن اسم مجموع ليضم آثار الدين في فرد من الأفراد  
ويمكن حصر مظاهر القداسة - في اعتبار جيمس - في ستة خصائص :

١ - الشعور بالوجود في حياة أكثر سعة من حياتنا في عالمنا الأرضي  
وينطوي هذا الوجود الفسيح على قوة عقلية لها وجود حقيقي لا مجرد تصور . إن  
القديس يشعر بهذه القوة كما لو كانت شيئاً محسباً Sensible . وإذا كنا  
نتحدث عن القداسة المسيحية . فإنه يمكن أن تتجسم هذه القوة العقلية  
الفعالية في الله<sup>(٣)</sup> .

٢ - الشعور بوجود علاقة صداقة بين القديس وبين تلك القوة العليا .  
والشعور بأن أسمى رغباته هي الخضوع لسلطانها . ومن الطبيعي أن تنشأ في

( ١ ) James : V.R.E. pp. 371-2.

( ٢ ) Ibid : p. 266.

( ٣ ) Ibid : p. 266.

غمرة هذا الشعور قدرات مختلفة كالصبر والجلد والعزم للقضاء على انفعالات إنسانية كالخوف والاضطرابات وتحل محلها اتزان يضفي سعادة على صاحبه وواضح أنه من البديهي للقديس على هذا النحو أن يدرك إدراكاً فعلياً أنه ينبغي عليه أن يتخلص من رغبات الأنانية ومن شهواته الحسية وأن يتحول المركز الانفعالي عن إرضاء الذات إلى المشاركة في هذا الوجود الواسع الفسيح<sup>(١)</sup>. وسنرى أن بقية خصائص القداسة عند جيمس ما هي إلا خطوات القديس يعانيها للتخلص من حياة حسية ، والدخول في حياة روحية .

### ٣ - الحب الخالص لله :

إن الإنسان القديس يقع في حب خالص لله إذا ما ضعفت قواه الذهنية أي توقفت القوى البرهانية الاستدلالية عن العمل لإدراكه أنها ليست وسيلة للوصول إلى الله وأقبل بغريزته على الله ؛ فإن ذلك الإقبال الغريزي سيطرده جميع العواطف الإنسانية الحسية والمنافع الدنيوية<sup>(٢)</sup>. وينبه جيمس هنا إلى أن هذا الحب - إذا ما تطرف وبلغ فيه - يصبح التصعب . ولن يصبح الفرد في هذه الحالة قديساً بل سينقلب ذا ميول عدوانية تجعل قداسته رذيلة لا فضيلة<sup>(٣)</sup>.

### ٤ - الصفاء :

ينشأ الصفاء عند القديس نتيجة إحساسه بأنه متوجه بكل قدراته وملكاته وعواطفه نحو الله . ومن مظاهر الصفاء أن يعتقد القديس أن حبه للأب والابن والإخوة والأصدقاء مفسدة لحب لله ، وأن يعتقد أن واجبات العائلة وواجباته نحو المجتمع من معاملات ومجاملات ووسائل التسلية المختلفة كلها عوائق في سبيل

( ١ ) James : V.R.E. pp. 267-8.

( ٢ ) Ibid : pp. 333-5.

( ٣ ) يشير جيمس إلى مظهر من مظاهر القداسة الضالة تقديس بعض المسلمين لعل بن أبي طالب ووصفه بالإمام المعصوم وأنه مستحق للعبادة من دون الله .

الصفاء . وينبغي أن يقضى عليها وأن ينقطع للخلوة ومعناها عند جيمس أن يقسم القديس يومه إلى ساعات منظمه للقيام بأعماله الدينية<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - الإحسان :

ليست هذه الخاصة بيان علاقة بين القديس والله ، وإنما بيان علاقة بينه وبين الناس تنشأ نتيجة الخواص السابقة . يقول جيمس إن المحسن هو من جعل علاقته مع الآخرين قائمة على العطف والحنان وأن يزول التنافر والبغضاء بينه وبين الناس ، وأن يحب أعداءه ، وألا يقاوم الشر بمثله . ولهذا دلالة يذكرها جيمس فيما بعد عن قيمة الصوفية في توجيه المجتمع .

#### ٦ - الزهد :

ومعناه الاعتدال في الطعام والشراب والبساطة في الملبس والعفة عما في أيدي الآخرين . وقد لا يكتفى الزاهد بهذا النوع من الحياة وإنما يتعداه إلى أخذ جسده بالشدة والعنف ، أى يعذبه بجوع ، أو حرمان ، وأداء طقوس مرهقة ، لاعتقاده أن ذلك موصل إلى الله .

#### نقد القداسة الخالصة Critique of Pure Saintliness

يعتذر جيمس لكنظ في اقتباسه هذا العنوان . وكان جيمس يريد به تحليل خصائص القداسة السابقة وعدم الاكتفاء بمجرد عرضها . ويتناول تحليل جيمس للقداسة من ناحيتين : قيمة القداسة وعيوبها .

يرى جيمس أن القديسين هم فاعلو الخير في المجتمع بل وعاملون على زيادته بين أفرادهم باستمرار . وهم يصعدون في سلوكهم بدافع التفاؤل وعدم



اليأس . قد ينخدع القديس في معاملاته مع الآخرين — إن وُجد مجال لها وقد لا ينتفع به غيره من الناس ، ولكن يجب أن نتأكد أن له وظيفته الأساسية في نهضة المجتمع : إنها وظيفة حيوية وأساسية في التطور الاجتماعي . لهم آثار في تغذية الروح الاجتماعية ، ومهما ضعفت هذه الآثار فلها قيمتها على مر العصور . حقاً قد تدمر القوة الأعداء ؛ ولكن لا تنس أن مبدأ القديس « لا تقاوم أعداءك » سيجعل من الأعداء أصدقاء . وهو ما تفشل القوة دائماً في الوصول إليه . ولذلك يعتقد جيمس — أن الأحلام السياسية التي يسعى إليها بعض المصلحين — ولو أنها قد لا تكون ملائمة للظروف الراهنة ، وقد يستحيل تطبيقها — إلا أنها عميقة الأثر في تطور الجماعة ، وكأن المصلحين قديسون يرون إمكان المملكة الفاضلة<sup>(١)</sup> .

ومع ذلك فللقدااسة عيوبها . قد تكون حياة القدااسة هي الحياة الصحيحة لو أن كل الناس قديسون . ولكنهم نقر قليل ، وساوكهم مخالف لسلوك الجماعة . وإذن فلا تكيف بينهم وبينها ، وعن هذا الطريق ينكر المجتمع التصوف لأن الإجماع ليس منعقداً عليه . ثم إن صفات القديس قد لا تلائم نوع الحياة التي نعيشها في عصورنا الحديثة : إن مبدأ القديس في معاملة الناس ليس بذى ثمرة : إن الشر لا يقاوم إلا بالشر والنار لا يخمدها إلا النار . ولن نؤدب اللصوص إلا بالسجن والجلد ولن نخلص المتشردين والغشاشين مما بهم من تشرد وغش عن طريق العطف عليهم واللين معهم<sup>(٢)</sup> .

بل يتوسع جيمس ويعبر عن حكم الرأي العام في العصور الحديثة عن أفكار الزهد والعبادة . يرى أن الزهد قائم على الاعتقاد بأن في الإنسان عنصر الشر وأنه ينبغي التغلب عليه وذلك بإماتة الجسد وتعذيبه . ولقد أطاح شيوع التفاؤل وأثر العلوم على علو قيمة الإنسان وتقديره لنفسه — أطاح ذلك بأفكار الزهد والتقصيف ويرى جيمس أن الإله الذي يستطيع تعذيب الناس في خلوات

James : V.R.E. p. 350. ( ١ )

Ibid : p. 348. ( ٢ )

ويرضى عن يرهق نفسه في سلسلة عنيفة من العبادات إله ليس فيه منزع للخير<sup>(١)</sup> .

وسأعرض في سياق البحث أن جيمس تناقض مع نفسه في فكرتين :  
العنصر الشرير في الإنسان والقيام بالصلوات . أنكرهما في معرض نقد القداسة  
الحالصة لكنه سيرى أنها لازمان ضروريان حين يريد إقامة « علم الأديان »  
تري هل نسي هناك أنه أنكرهما هنا ؟ ! .

### المناطق البعيدة في الشعور :

حديثي في خصائص الحالات الصوفية للشعور ، وخصائص حياة القداسة  
حديث عرضي استلزمه سياق البحث . ما أريد أنا أن أبحث عنه هو الوصول  
إلى أن الشعور المؤلف اليقظ في حياة الفرد اليومية ليس كل شيء في حياته  
الشعورية ؛ وإنما توجد مجالات خفية للشعور الإنساني . نبحث على هذه المجالات  
حين ندرس حالات الصوفية فإن دراسة هذه الحالات تظهرنا على مجالات خفية  
من الشعور . لهذه المجالات الخفية هدف عند جيمس هو أنها حلقة الاتصال  
بين الإنسان والعالم غير المنظور : يعتقد المتدين بعالم غير منظور ، وسبب  
اعتقاده به هو إدراكه له عن طريق شعوره الخفي . وهذا ما كان يعنيه جيمس  
حين قال إن الوجدان لا الذهن هو الذي يثبت الاعتقاد الديني أي أن في  
طبيعة الإنسان مجالات غير ذهنية لتصل إلى العالم الخفي .

لقد وصل جيمس من خلال دراساته للتنويم المغنطيسي وأبحاثه في العلاج  
الروحاني ودراسته سيراً كتبها أدباء مشهورون لهم نزعات صوفية – وصل من  
ذلك إلى حقيقة هامة هي أن شعورنا اليقظ الراهن ليس إلا نمطاً واحداً من  
أنماط الشعور الإنساني . ويجب ألا نغفل أن وراء هذا الشعور اليقظ شعوراً  
خفياً آخر لعله أكثر عمقاً وسعة وتأثيراً في حياتنا الشاعراً . يقول جيمس ؛  
« .. إن شعورنا اليقظ السليم أو ما نسميه الشعور العقلي Rational Consciousness

نمط واحد من أنماط الشعور . وأنه توجد هناك صور أخرى للشعور ( بالقوة ) تختلف عن هذا النمط تمام الاختلاف ونحن نحيا حياتنا بلا شك في ظل تلك الأنماط . . ولا يمكن أن نكون فكرة كاملة عن الكون — في عمومته — إن أهملت تلك الأنماط من الشعور (١) .

ويروى جيمس بنفسه أن هذه الحقيقة نتيجة وصل إليها بعد قيامه بملاحظات وتجارب كثيرة واقتنع بصدقها ولم يززع اعتقاده بها شيء .

ولقد تأكد جيمس من خلال دراساته الصوفية ودراسته للقداسة وخصائصها أن القديس في حالات غيبوبته — مما له أثره الثابت في حياته اليقظة المألوفة — يشعر بوجود كون فسيح أكثر سعة من العالم الأرضي ويشعر أن بينه وبينه علاقة انجذاب وتعاطف وصدقة بل يشعر أنه خاضع له أو ينبغي أن يكون خاضعاً له . ومن المجال أن يكون ( الشعور العقلي ) مصدر الوعي بهذا الكون إذن فمن الملائم أن نفترض وجود مناطق خفية بالقوة من الشعور يمكنها الاتصال بهذا الكون العظيم .

ومن الطريف في بحث جيمس في الشعور الإنساني قوله إنه وصل من تجارب كثيرة إلى أن للأثير والكحول وأوكسيد النيتروس أثره على الإنسان إذ ينبه ملكات صوفية للطبيعة البشرية : ذلك لأنها تخدر الإنسان ، وتبعده عن الإحساس . بالعالم الراهن ، وتوجده في مجال غريب يحس بأشياء وموجودات وحقائق مباينة لهذا العالم المحسوس .

« . . . أنا أعرف أكثر من فرد مقتنع بأن الغيبوبة الناتجة عن أكسيد النيتروس أدت إلى إلهام ميتافيزيقي هام . . وعمق الحقيقة ينكشف له حين يزداد فعل المخدر وتختفي الحقيقة بذهاب المنبه (٢) وتيقظ المناطق البعيدة من الشعور باستخدام هذه المنبهات .

( ١ ) James : V.R.E. pp. 378-9.

( ٢ ) James : V.R.E. pp. 378-9.

## النفس الكامنة السامية « المستورة Subliminal Self »

وقد يبدو غريباً من جيمس أن يتحدث في (شعور خفي) وراء الشعور المؤلف ذلك لأنه يعتقد أن علم النفس الصحيح ما قام على أساس فسيولوجي تجريبي بل إنك لتجد أول صفحة من صفحات كتابه الشهير (مبادئ علم النفس) تحدثنا عن العلاقة بين الجسم والعقل قائلة إنه «لا يمكن دراسة الوقائع العقلية دراسة صحيحة مستقلة عن البيئة الفيزيائية . . . والغلطة الكبرى لعلم النفس العقلي القديم كانت اعتبار الروح وجوداً روحياً مطلقاً وأن لها ملكات خاصة بها ، يفسر بواسطتها التذكر والتخيل والتفكير والإرادة وغيرها . ولكن علم النفس الحديث يدرك أن ملكاتنا الداخية تتكيف بتعلقها بمظاهر العالم الذي نعيش فيه»<sup>(١)</sup>.

ولكن الغرابة قد تزول إذا أحطنا بثلاثة نواح في فلسفة جيمس : أعني حديثه عن النفس . وأبحاثه في (البحث النفساني) ومعرفته (للشعور الكوني) . لقد عقد جيمس فصلاً بأكمله في كتابه «علم النفس» عن النفس رغم أن المنهج الفسيولوجي التجريبي يلاحق كل صفحة من صفحات الكتاب . وما يعينني في فصل (النفس) هنا هو تقسيم جيمس لها : يذكر تقسيمه بنظرية أفلاطون أو أرسطو في النفس أو نظرية كمنط في الأنا الترنسندنتالية . وبعد أن يذكر تقسيماته للنفس وتحليلاته وبعد أن يرهق نفسه والقارئ في تلك التحليلات يعترف أنه بذلك قد خرج من نطاق علم النفس فيقول : «يبدو أن النتيجة المنطقية هي أن حالات الشعور هي كل ما يحتاج إليه علم النفس . لكي يعكف عليه . قد ثبت الميتافيزيقا أو اللاهوت وجود الروح ولكن افتراض وجود الروح - في علم النفس - كبداً جوهرى موحد فرض زائف»<sup>(٢)</sup>.

أما ملخص تقسيم جيمس للنفس الإنسانية فهو قوله يمكن اعتبار النفس موضوعاً للمعرفة ، ويمكن اعتبارها ذاتاً عارفة . ويسمى النفس كموضوع

(١) James : Principles of Psychology. pp. 1-2.

(٢) James : Psychology. A Briefer Course. Macmillan. London 1892. p. 203.



للمعرفة النفس التجريبية . ونسمى النفس كذات عارفة النفس الحالصة وحين نتحدث عن النفس التجريبية ونريد أن نحلل عناصرها نجد أنها ثلاثة عناصر : النفس المادية ، والنفس الاجتماعية والنفس الروحية — وحديثه عن كل عنصر حديث مستفيض قد لا يعنى البحث في الدين فيما عدا فكرة يقولها حين يعرض رأيه في النفس الاجتماعية .

يعرف جيمس النفس الاجتماعية بأنها ذلك الإدراك الذى يحصل للإنسان عن نفسه من رفاقه . ويرى أن للإنسان نفوساً اجتماعية كثيرة وكأن كلا منها ذات فردية مستقلة . ويبرر جيمس تعدد النفوس الاجتماعية في الفرد الواحد بأننا نبدو لأصدقائنا وعمالنا ورؤسائنا ومستخدمينا وأولادنا بصور مختلفة : كل منها يعبر عن ناحية معينة مخالفة للآخرى . ويرى أن كل نفس من النفوس الثلاثة — المادية والاجتماعية والروحية — قد تكون بالفعل وقد تكون بالقوه . وأن « النفس الاجتماعية بالقوة هي أوسع النفوس بل تستحوذ على اهتمامنا وذلك لأثرها على سلوكنا وصلتها بحياتنا الدينية والحلقية<sup>(١)</sup> .

ويبحث جيمس عن نفس يسميها النفس الاجتماعية المثالية Ideal Social Self ويقول إن الإنسان يلجأ إليها . وقد لا تكون قريبة منه وإنما بعيدة عنه . ولكن بعد الإنسان عنها لم يمنع من شعوره بانفعال فيه يحثه على اقتفاء أثرها والوصول إليها . وقد لا يتحقق هذا الوصول في حياة الفرد بل قد يموت دون أن يصل إليها ، وفي ذلك مجال نتوقع فيه للأجيال القادمة أن تصل إلى هذه النفس المثالية . هل يريد جيمس بها المطلق أو الله ؟ لا . إنه يقصد بها وصول الإنسان إلى كماله — ككائن اجتماعي — وفي ذلك نلمح أثر أخلاق جريرين أو رويس . ويقول إن الذى يساعد الإنسان على تحقيق هذا الكمال أو الوصول إلى هذه النفس الاجتماعية في مستقبل قريب أو بعيد (هو أعلى قاض ممكن) ويعتقد جيمس في هذا القاضى أنه رفيق الإنسان . هو الله ، والعقل والمطلق والرفيق الأكبر — أنه يعيننا على تحقيق كمالنا الإنساني .

وبنحتم جيمس قوله بأن معظم الناس يحملون في قلوبهم صلة بهذا القاضى .  
« إن عالماً بلا ملجأ داخلى مثل هذا إنما هو الهاوية الرهيبة » .

### البحث الروحانى :

أتم جيمس كتبه فى علم النفس : الكبير والمختصر فيما بين سنة ١٨٩٠ و ١٨٩٢ . ولكن للبحث فى الروح بقية . فلقد صدر كتابه عن (إرادة الاعتقاد فى سنة ١٨٩٧ وكان الفصل العاشر والأخير متضمناً مشاركته فى جمعية الأبحاث النفسانية Society of Psychical Research وذكر فى هذا الفصل خلاصة ما رأى من نتائج لهذه الجمعية .

قال هناك إن هذه الجمعية نشأت فى إنجلترا فى عام ١٨٨٢ وكان أبرز مؤسسها هو سيد جويك Sidguick <sup>(١)</sup> وأصبح لها فرع فى أمريكا فيما بعد . ولم يظهر هذا الفرع تقدماً محسوساً إلا بعد أن استدعى هودجسون Hodgson <sup>(٢)</sup> إلى أمريكا .

وكانت أهم أغراض الجمعية : القيام بتجارب علمية على التنويم المغنطيسى والوسطاء Mediums ومن لهم القدرة على رؤية الأشياء غير المنظورة Clairvoyants وغرضها الثانى هو جمع شواهد تتعلق بظهور العفاريت والمنازل المأهولة بالجن وظواهر شبيهة بذلك . وأهم الموضوعات التى شغلت نشاط الجمعية هى تجاوب الأرواح Telepathy ، والوساطة ، والنظرة البلورية Crystal Vision .

(١) سيدجويك (١٨٣٨ - ١٩٠٠) آخر المدافعين الإنجليز عن مذهب النفعية فى الأخلاق . وأحد مؤسسى جمعية البحوث النفسانية . وكتب كتباً عن منهج علم الاقتصاد وميدانه ، وعن فلسفة كمنط .

(٢) Hodgson (١٨٥٢ - ١٩١٣) فيلسوف إنجليزى وأحد مؤسسى Aristotelian Society وخدم فيه أربع عشرة سنة . كتب كتاباً فى أربعة مجلدات عن The Metaphysic of Experience واعتقد فى نفسه أنه أصلح موقف كمنط ، وأكله باتجاه الفرد نحو العالم المادى حين أضاف عالمًا غير منظور نضطر إليه اضطراراً عملياً وخلقياً ليس مدعماً بالتأملات العقلية .

أما عن تجاوب الأرواح فيرى جيمس أن الخيالات المعتمدة عليها حقائق موضوعية ، مع أنها ليست حقائق مادية . وأما الوساطة فمعناها إمكان تأثر عقل شخص ما تأثيراً مباشراً بعقل شخص آخر يقوم بالتجربة عليه . وأوصلت تجارب الوساطة أعضاء الجمعية إلى نتائج يقول جيمس عنها إنها حقائق ولا يمكن أن تكون آتية من قبل الحواس أثناء اليقظة . وأما عن النظرة البلورية فيقصدون بها أن بعض الأشخاص الذي يركزون بصرهم على البلور يشعرون بشيء من الذهول ويرون بعض الرؤى .

وكان من أكبر العاملين في هذه الجمعية ميرز Meyrs الذي كتب مقالات عديدة . فيما سماه النفس الكامنة السامية ( المستورة ) يقول ميرز : « كل واحد منا في الحقيقة وحدة نفسية أكثر انبساطاً مما يعرف فهو شخصية لا يمكن أن تعبر عن نفسها تعبيراً كاملاً في أي ثوب مادي ولكن هناك شيئاً منها لا يعبر عنه الحس أبداً . . . إن الأجزاء الخفية في عقولنا قادرة — تحت ظروف خاصة — أن تؤثر وأن تتأثر بالأجزاء الظاهرة من عقولنا » (١) .

من مشاركة جيمس في هذه الأبحاث وصل إلى نتيجة هي « أني أدركت أن لنا جميعاً نفوساً كامنة سامية يمكن أن تغير من حياتنا العادية في أي وقت وهذه النفس — في أدنى مراتبها — عبارة عن مخزن لذكرياتنا المسيئة . أما في أعلى مراتبها فلا نعرف عنها شيئاً » (٢) . ويستخدم جيمس هذه النتيجة في دراساته الدينية فيقول إن المتدين يجد نفسه مرتبطة بالجزء القائم فيما وراء الشعور من وجودنا . وأنه توجد منطقة في الطبيعة الإنسانية لها صلة وثيقة بالمنطقة الإلهية أي بالعالم غير المنظور . هذه المنطقة هي الشعور الخفي أو ما وراء الشعور المؤلف ، أو بروز النفس الاجتماعية بروزاً أوضح من النفس المادية . ويقول إن في النفس الكامنة السامية . كل ذكرياتنا الكامنة وكل الرغبات

(١) James : Will to Believe. p. 315.

(٢) ibid P 321.

الغامضة ودوافع الحب والكراهية بل ويصدر عنها كل حدوسنا وفروضنا  
ونخيلاتنا وخرافاتنا وعقائدنا وآرائنا وبوجه عام كل العمليات التي لا يؤمن بها  
العقل. أنها مصدر أحلامنا وعنها تصدر التجارب الصوفية التي نعانيها بل هي التي  
تتصل بالمركز الأساسي الذي يغذي ديننا<sup>(١)</sup>.

### الشعور الكوني :

بينت قدر الإمكان مؤثرات جيمس السيكلولوجية والروحانية للاعتقاد  
بوجود مناطق خفية من الشعور ، أو قوى خفية من النفس عن طريقها يمكن  
للإنسان أن يصل إلى معرفة عالم غير منظور وهو جوهر الدين عنده .

وأرى أن مؤثراً آخر كان له قيمته في اطمئنان جيمس إلى نتائج أعمى  
ظهور نظرية الشعور الكوني Cosmic Consciousness . ويذكر جيمس أنه  
قرأ كتاباً لطبيب عقل من كندا<sup>(٢)</sup> ذكر فيه أن للإنسان شعوراً غير الشعور  
اليقظ المؤلف أطلق عليه الشعور الكوني . ويصفه صاحبه بأن الإنسان تلمع  
في ذهنه ومضات - في حالات خاصة - لا يستطيع وصفها ، ومع ذلك لها  
أثر عليه ؛ إذ يعتقد بصحتها بل يعتبرها الحقيقة الكبرى . من هذه الحقائق  
التي يذكرها الطبيب الكندي ويعزوها إلى الشعور الكوني إدراك الإنسان أنه  
كائن خالد . ويشرح ذلك بقوله إن الإنسان في أمثال هذه الحالات الصوفية  
لا يعتقد بأن له حياة خالدة في المستقبل وإنما يعتقد أنه يتصف بصفة الخلود  
فعلاً . والناس كلهم بخالدون .

ويذكر المؤلف خواص لذلك الشعور فيقول إن الخاصة الأولى للشعور  
الكوني هي شعور الإنسان بالكون أي شعوره بالحياة والنظام في الكون ويفسر  
ذلك بأن الإنسان يدرك في لحظات ومضاته وإلهاماته أن كل الأشياء تعمم مجاً

( ١ ) J mes : V.R.E. P 473.

( ٢ ) M Bucke : Cosmic Consciousness : study in the evolution of the 1901.



لغاية واحدة هي خير كل منها . وأن المبدأ الأساسى لذلك العالم الأرضى بل لكل العوالم الموجودة هو ما نسميه الحب . وأن سعادة كل منا وسعادة الجميع شىء محقق مؤكد .

والخاصة الثانية للشعور الكونى هي أن يشعر الإنسان — وهو فى غمرة الحالة الصوفية — أنه أصبح عضواً فى نوع جديد أبرز صفاته الخلود وشعور بالحياة الأبدية . ولذلك دلالة عظمى — يقصد الدلالة الخلقية ومعناها وجدان بالسمو والزهو والفرح .

### قيمة التصوف :

وليم جيمس محب للحقيقة مخلص لها . إن أساس نتائجه التى وصل إليها — أقصد وجود العالم غير المنظور ووجود النفس الكامنة — أساس صوفى . فلو انهار هذا الأساس لانهارت تبعاً لذلك النتائج القائمة عايه . وبالرغم من ذلك فإن جيمس لم يتردد فى بيان عيوب التصوف كمنهج ونتائج . وسيتبين أن التصوف — فى نظر جيمس — ليس وسيلة كاملة لإقرار العقائد الدينية . أبان عيوبه وقصوره . بل سينكر جيمس التصوف وسيقيم شيئاً آخر يكون أساساً للعقيدة الدينية — أقصد « علم الدين » يستمد له أصوله من روح التصوف مهما شمل كل ما فى التصوف بعد ذلك من خصائص ومميزات وخياة . مما سأفصل فيه بعد حين .

فيتساءل جيمس : هل للتصوف قيمة ؟ ويجيب : نعم . للتصوف قيمة عند الصوفية أنفسهم دون غيرهم من الناس . بل للتصوف عند الصوفية قيمة عملية وأخرى نظرية . وتنحصر القيمة العملية فى أن الصوفى يشعر بالسعادة والأمان ، وهما آتيان من صلته بالكون الفسيح الفائق على الطبيعة<sup>(١)</sup> . أما كيف تتحقق هذه الصلة بين النفس الكامنة فى الإنسان وبين هذا الكون الفائق فإنها تتحقق بالصلاة وسأحدث عنها فى فقرة مقبلة . والقيمة العملية

الأخرى للتصوف أن للصوفية وظيفتهم في تربية الجماعة مما عرضت له من قبل .  
أما القيمة النظرية للتصوف عند الصوفي فهي قيمة يستمولوجية : إنه يلم  
بحقائق لا يتسنى لغيره الإلمام بها . يكتسب الصوفي حقائق متصلة بهذا العالم  
مثل معرفة أمور المستقبل ، وفهم سريع دقيق للنصوص الدينية ، واكن هذه  
الحقائق بسيطة إذا قيست بحقائق أخرى ميتافيزيقية يصل إليها الصوفي بطريق  
الإلهام . ويستشهد جيمس ببعض ما يورده الصوفية عن أنفسهم ليشير إلى مقصده  
من الحقائق الميتافيزيقية . . يروي جيمس عن سنت أجناطيوس أنه قال :

إن ساعة من ساعات التأمل علمتني حقائق عن أشياء إلهية أكثر مما  
تعلمت من كل الآباء . . . إذ رأيت ذات يوم في حالة تأمل وأنا أهبط سلم  
كنيسة الدومنيكان فكرة الحكمة المقدسة في خلق العالم . ولقد افقتنت روحى  
في تأمل آخر بالله ودفعني هذا إلى تأمل السر العميق للثالوث المقدس<sup>(١)</sup> .

وتقول سانت تريزا : « مُنحتُ أن أدرك في لحظة واحدة كيف ترى كل  
الأشياء في الله . لم أدركها في صورتها الحقيقية ومع ذلك فالصورة البصرية  
التي رأيته عليها كانت في غاية الوضوح<sup>(٢)</sup> . وتقول في نص آخر : إنني رأيت  
وفهمت حكمة العذراء ومكانها في السماء<sup>(٣)</sup> .

ويتساءل جيمس بعد ذلك هل يعتقد الصوفي أن هذه حقائق ؟ نعم . بل  
لهذه المعارف سلطة الإلزام عند من يعانون الحالات الصوفية . قد لا يصدق  
الناس المتصوف في أقواله وقد يرمونه في السجن أو في مستشفى الأمراض العقلية  
لكنهم لا يستطيعون أن يحولوه عن أفكاره . ولا يقيم الصوفي اعتباراً للمذهب  
العقلي وحبججه بل قد يسخر منه . حقاً ما وصل إليه من معارف بعيد عن متناول  
الشعور المألوف لكنها تنطوي على إحساسات عضوية يوقن الصوفي بوجودها لأنه  
اكتسبها بإدراك مباشر لا يقل يقينه به عن يقيننا في إدراكنا الحسى<sup>(٤)</sup> .

Ibid : p. 401. ( ١ ) .

Ibid : p. 402. ( ٢ ، ٣ )

James : V.R.E. p. 415. ( ٤ )

هل للتصوف قيمة عند غير الصوفية ؟ يجيب جيمس بالنفي . إن الذى لم يعان التجربة الصوفية لا يعتقد بحقائق صوفية . وما يعتقد به الصوفية مؤكداً لا يمكن أن يلزمونا به . كل ما يمكن قوله لنا إن ما سموه حقائق نسبها نحن (فروضاً) . وإذا اعتقدنا بفروضهم فلن يكون ذلك لأسباب منطقية واقتناع عقلية وإنما على أساس عاطفي فقط .

ويزيدنا جيمس تحليلاً فيقول إن الفروض الصوفية كان يمكن أن تنال إجماعاً منا أو شبه إجماع لو أن الصوفية أنفسهم أجمعوا على اتفاق فيما بينهم في فروضهم . لكنهم مختلفون فيم يصلون إليه من حقائق : يرى بعضهم أن الحقيقة الكبرى هي وحدة الوجود ويرأها البعض الآخر في الواحدية ويرأها فريق ثالث في الثنائية<sup>(١)</sup>.

#### علم الدين Science of Religion

رأينا مع وليم جيمس أن الأديان السماوية لم تعد موضع ثقة المستنيرين في عصرنا الحديث ، لأنها تضمنت ثنائية متطرفة بين الله والعباد ، وأن عبور الهوة بينهما غير مستساغ وأن أداء طقوس بفروضة شرط أساسى للصلة بين الله والفرد والإسراف في العبادة محبوب عند الله .

ورأينا معه أيضاً أن الفلسفة اللاهوتية منها والترنسندنالية لم تعد أساساً يدعم الإيمان بالله ذلك لأن الإيمان ليس من شأن الذهن وإنما من شأن الغريزة والإرادة فبحسب .

ورأينا معه أخيراً أن التصوف ليس الأساس الموضوعى ليجبر الناس على الاعتقاد بحقائقه ، ثم إن الحياة الصوفية قد لا تلائم الحياة الاجتماعية المتطورة في كثير من صورها .

وصل جيمس من ذلك إلى أن أيّاً من هذه النظم لم يدعم الدين ولم يوجه الإنسان نحو حياة دينية صحيحة . فرأى من واجبه أن يضع بضعة (فروض) يضمها

أسساً وقواعد لديانة موضوعية . « ما دامت قد قلبت فروضاً فعناه أنى لا أطمح في أن تكون حججى ملزمة ضرورية ، وإنما سأقدم شيئاً يمكن أن يتناسب مع الوقائع بطريقة لا يجد المنطق العلمى مجال اعتراض علينا<sup>(١)</sup> .

والحق أن جيمس لم يكن يعرض علمه الحديد عرضاً دقيقاً ينتقل من مقدمة إلى نتيجة ، وتتسلسل القضايا وترتب ترتيباً منطقياً . لا . وإنما ذكره في أجزاء مختلفة من كتابه الأساسى فى الدين . « صنوف التجربة الدينية » ، كلمة هنا وكلمات هناك .

ويمكننى حصر هذا العلم فى العناصر الآتية : مقدمات العلم ، أسسه ، الله ، الصلاة .

مقدمات علم الدين : يضع جيمس مقدمتين :

( أ ) الرغبة فى إثبات الأفكار العامة المشتركة فى كل الأديان بلا استثناء واستبعاد الأفكار الموجودة فى دين والساقطة فى دين آخر حتى لا نهم بالتناقض<sup>(٢)</sup> والتقليل من محتوى علم الدين وجعل عناصره أقل عدد ممكن لكى نخلصها من التطرفات الفردية<sup>(٣)</sup> . ونتيجة ذلك أننا نستبعد ما فى الأديان من أساطير وخرافات وعقائد متحجرة جامدة dagmas<sup>(٤)</sup> .

( ب ) اتباع منهج استقرائى بحث أى جعل التجارب الدينية المباشرة والوقائع الصوفية مادة بحثنا ، واستخلاص نتائج منها ، ونعمنها ، ونستخرج ما بينها من خصائص عامة<sup>(٥)</sup> .

أساسان لعلم الدين : ( أ ) أساس وجدانى ( ب ) أساس ذهنى .

( أ ) الأساس الوجدانى : نادى وليم جيمس — كعالم سيكولوجى — أن

( ١ ) James : V.R.E. p. 501 .

( ٢ ) Ibid : p. 42, 505 .

( ٣ ) Ibid : p. 494 .

( ٤ ) Ibid : p. 424 .

( ٥ ) نفس الكتاب والصحيفة .



إحدى وسيلتين تحدد سلوك الفرد : إما فكر أو وجدان . قد يدفع الفكر إلى السلوك تارة وقد يدفع الوجدان إليه تارة أخرى . ويوجه جيمس انتباهه إلى بعض المذاهب الدينية فيرى أن المذهب الرواقى والديانتين البوذية والمسيحية تتميز جميعاً بأثر الوجدان كموجه للسلوك الدينى . ويخلص من هذه الملاحظة إلى أن تاريخ الأديان يدلنا على أثر الوجدان لا الفكر فى تدعيم العقائد . ويعتقد الاعتقاد الجازم الذى لا يشك فيه أن النظريات التى تنشأ لتدعيم الدين سواء كانت فى صورة كتب مقدسة أو فى صورة فلسفات برهانية ما هى إلا أشياء ثانوية فى تدعيم الدين : إنها تكمل العقائد التى هى فى أساسها قائمه فى النفس أو تصلح بعض ما فيها<sup>(١)</sup> . ويقصد جيمس بالوجدان أن الإنسان يجد من طبيعته البشرية دافعاً إلى الاعتقاد بالدين . مقصد جيمس من الطبيعة البشرية هنا هو اعتقاده بوجود مجالات خفية من شعورنا متصلة ومرتبطة بعالم غير منظور . إن جيمس قصد دلالة أخرى للوجدان — كأساس فى إقرار العقيدة — هى أن أثر الاعتقاد بالدين هو حصول صاحبه على السعادة والتفاؤل والأمل فى حياته الراهنة . يشعر الإنسان بحاجته الملحة للدين لأنه ينتج هذه الآثار التى يراها جيمس لازمة لتعينه على حياته الأرضية وقد نتجت هذه النتائج من وراء الاعتقاد بعالم منظور كله خير وسعة .

لا يهم جيمس أن هذا الأساس للدين أساس يدعمه العقل أو لا يدعمه ؛ ولكنه يريد عالماً يتحقق فيه التفاؤل والأمل وتزداد خبرات الشخص فيه . وجد جيمس هذا العالم حين نعتقد بالدين . واقصد قلتُ إن ما يقوله جيمس يرويه على سبيل الفرض ذلك لأنه يعلن أن الإيمان بالدين شىء ذاتى قد ينفع وقد لا ينفع : اعتقد على مسئوليتك الخاصة فإن وجدت نتائج ملائمة لحياة خلقية ناجحة كان الدين حقيقة صحيحة . وإن كان العكس فاتركه .

ويستعير جيمس قضية من الدكتور لويبا حين يقول : « الله غير معروف وغير مفهوم ولكنه مستخدم ( فى حياتنا ) . إننا نستخدمه أحياناً كواهب الطعام

لنا ، ونستخدمه أحياناً كسند لنا في الأخلاق ، أو كصديق ، أو موضوع للحب . فإذا برهن الدين على أنه نافع لنا فإن الشعور الديني لن يسأل عن شيء بعد ذلك : هل هو موجود حقاً ؟ وكيف يوجد ؟ وما هو ؟ هذه أسئلة لا جدوى فيها لا نطلب الله وإنما نطلب الحياة . والحياة الواسعة المثمرة المرضية<sup>(١)</sup> .

### ( ب ) الأساس الذهني :

يرى جيمس أن للذهن وظيفته الثانية بعد الوجدان — في ترتيب العقائد وتنظيمها . وإذا كان لعلم الدين أساس ذهني فإنه ذلك الذي يجعله علماً موضوعياً إلى حد كبير .

يتساءل جيمس : «هل يوجد شيء عام مشترك في الدين تؤيده شهادة إجماعية ؟ ويجب : نعم .. . يوجد شيان مشتركان في كل الأديان على اختلافها هما :

قلق واضطراب ، والتخلص منه . والقلق إحساس بأن في طبيعتنا شيئاً خاطئاً . والتخلص منه إحساس بأننا قد نلقت أنفسنا من هذه الخطيئة بإيجاد رباط قوي مع قوى علياً<sup>(٢)</sup> .

وأريد أن أفصل هذه الفكرة عند جيمس لأن لها خطورتها أقصد أن جيمس لم يتردد في الهجوم على الأديان السماوية لإعلانها أن الخطيئة والشر عنصر أساسى في الإنسان وأن الإنسان ينبغي أن يكفر عنها بكثرة العمل ليتطهر منها — وفي هذا نزعة تشاؤم حاول جيمس أن يستبدل بها النظرة التفاؤلية .

اعتقد جيمس — حسب هذا النص — أن بالإنسان عنصرين : عنصر خاطئ وعنصر طيب . إن الإنسان يعاني خطأ في نفسه ويحاول أن يتغلب عليه . وإذا حاولت أن أسأل جيمس عن دلالة هذا الخطأ هل هو خطيئة آدم بجين

Leuba : Contents of Religious Consciousness, in the Monist p. 536, ( ١ )  
July 1901.

James : V.R.E. : p. 498. ( ٢ )

عصى ربه وخرج من اللجنة أم هو الشعور بالإثم الذى توارثناه عن الآباء والأجداد: فإننى لا أبجد بياناً عند جيمس .

يظهر أن جيمس أخذ الفكرة عن الأستاذ لوبا Leuba الذى رد المظهر الإلهى للحياة الدينية إلى المظهر الخلقى لهذه الحياة . إن لوبا يعرف الحياة الدينية بأنها إحساس بالنقص الخلقى مصحوباً بالحنين واللهفة إلى سلام الوحدة . ويشير الدين دائماً إلى رغبات انفعالية تابعة من الإحساس بالإثم وضرورة التخلص منها<sup>(١)</sup> .

ولقد تأثر جيمس فى رأيه فى طبيعة الإنسان بمفكر آخر اعتقد أن فى عقل المتدين شيئين :

- ( أ ) شعوره بالنقص والخطأ والإثم ، وشغفه بالهروب منه .  
 ( ب ) مثل أعلى يود الوصول إليه . والشعور بالإثم جزء واضح من شعورنا أكثر من تخيل المثل الذى قد نهدف إليه<sup>(٢)</sup> .

هذان مصدران تأثر بهما جيمس فى رأيه فى الأساس الذهنى للدين . رأى أن يضيف إليهما جديداً . ماذا قال ؟ قال جيمس إن الدين كائن فى مكافحة الإنسان لعنصر الشر الذى فيه . ولن يتم ذلك إلا باستغلال العنصر الطيب الذى فيه وأداء هذا العنصر وظيفته . ووظيفة هذا العنصر الطيب هى اتصاله بعالم آخر ( هو العالم غير المنظور ) .

ولا بد أن يستند هذا العنصر الطيب إلى أغوار عميقة فى الطبيعة البشرية ذاتها . أقصد أن جيمس ربط هذا العنصر فى الإنسان بما وراء النفس الشاعرة Subconscious أو النفس الكامنة السامية Subliminal .

( ١ ) Leuba : Studies in the Psychology of Religion, 1896. p. 309.

ومأخوذ من كتاب أنحاء التجربة ص ١٩٧ .

( ٢ ) : ومأخوذ من كتاب جيمس السابق : Strarback : Psychology of Religion.

## الله في تصور جيمس :

إن النفس الكامنة والعنصر الطيب في الإنسان متصلان بعالم غير منظور يستمدان منه العون ويتأثران به . هذا العالم غير المنظور الذي أتحدث عنه من أول هذا الباب يمكن أن يكون هو الله في تصوير جيمس . دلت التجارب الدينية جيمس على أن النفس الكامنة متحدة ومتصلة بعالم خفي كبير . « هيا نقترح أن هذا الشيء الآخر ( يقصد العالم الخفي ) الذي نشعر بأننا مرتبطون به في التجربة الدينية هو الاستمرار اللا شعوري لحياتنا الشعورية . وحين نبدأ من هذه الفكرة نكون مخلصين للعلم الأمر الذي لم يتيسر للأديان<sup>(١)</sup> .

لعل جيمس يقصد بهذا النص أن الأديان فرضت الله قوة خارجة على الإنسان ولا صلة بينه وبين الإنسان حتى استحال وجود صلة معقولة بينهما . وجاء هو ليفرض أن القدرات العليا العقلية الكامنة هي التي تحس بوحدة مع قوة خارجة علينا . وهو إحساس حقيقي لا ظاهري . ويقول : « سم هذا العالم ( الكبير الخفي ) المجال الصوفي أو المجال الخارق للطبيعة Supernatural . وليس هو بالمجال المثالي الخالص إذ له آثار علينا في العالم . حين نتصل به يتم في نفوسنا المحدودة عمل معين . وينبغي أن يكون العالم الذي ينتج آثاراً في عالم آخر عالماً موجوداً بذاته<sup>(٢)</sup> ثم يقول :

« .. إن الله نداؤنا الطبيعي ..... وسأسمى ذلك الجزء السامي من الكون الله<sup>(٣)</sup> .

## ماذا يعرف جيمس عن الله ؟

رأينا أن جيمس نبذ البرهنة العقلية على وجود الله أو صفاته في معرض الحديث عن نقده للفلسفة اللاهوتية أو الترنسندنتالية حيث أن لا قيمة لها ولا أثر لها على سلوك الإنسان . لم يتحدث جيمس في صلة الله بالعالم أعني هل هو قديم

( ١ ) James : V.R.E. : p. 502.

( ٢ ) Ibid. : p. 506.

( ٣ ) Ibid. : p. 507.



أو حادث. يكتفى بأن يقول إنه الخالق دون أن يحلل صفة الخلق. ولم يتحدث في حساب أو عقاب في الآخرة وإنما يكتفى بأن يقول « يوجد إحساس بأننا ناجون بالرغم من كل مظاهر جهنم. وجود الله ضمان النظام السامى الذى يحافظ عليه محافظة دائمة مستمرة. قد يحترق هذا العالم أو يتجمد يوماً ما — كما يقول العلم — ولكن إذا كان هذا جزءاً من نظامه فالمؤكد أن المثل العليا تتحقق في كل مكان. ولذلك فإن وجود الله يقتضى أن الفاجعة Tragedy مؤقتة وجزئية وأن الانحلال ليس النهاية المطلقة »<sup>(١)</sup>.

ولقد ذكر جيمس بعض صفات الله رأى أن يضيفها إلى علم الدين. الله شخصية ذهنية Personalite mentale<sup>(١)</sup> دفعه إلى هذه الصفة رغبته في القضاء على الثنائية المتطرفة في الأديان السماوية بين الله والناس. ترى الثنائية أن الإنسان من طبيعة مخالفة تمام المخالفة لطبيعة الله، وأن طبيعة الله مجهولة بل لا يصح التحدث فيها، وكل ما ينبغى عمله أن نتلقى الأوامر والنواهي من الله، ونطيعها دون مناقشة أو شك في صحتها. وقد يكون بعض هذه الأوامر منطوياً على تعذيب للناس ومع ذلك فالله يطلبها — أقول دفع جيمس إلى وصف الله بالشخصية أنه اعتقد أن الله والإنسان من طبيعة واحدة، وأن الاختلاف في الدرجة فحسب. في الإنسان جزء خاطئ ناقص وجزء سام أما الله فهو السمو كله. والجزء السامى الإنسانى مرتبط بالوجود السامى الإلهى. إن الله أعلى مراتب السمو. وعلى الإنسان لا أن يصعد إلى الله أو يتقرب منه كما يرى التصوف بل إن عليه أن يحقق كماله الإنسانى بمعونة الله أى أن يتغلب الجزء الطيب في الإنسان بحيث يزول أثر النقص فيه.

وفكرة الشخصية عند جيمس مأخوذة عن جون ستوارت مل فإنه يصف الله بهذه الصفة. ولا يقتصر جيمس على ذلك بل يأخذ من مل ما تنطوى عليه الشخصية في جانب الله.

Jean Wahl.: Les Philosophies Pluralistes d'Angleterre et d'Amerique. (١)

Alcan, Paris. 1920. p. 157.

إن الله محدود وليس العليم بكل شيء وهو الخاضع للزمن .  
 . إن الله محدود في علمه أى أن ذواتاً شاعرة تعرف وقائع لا يعلمها هو ؛  
 والذات الإلهية قد تجهل أشياء تعرفها ذوات إنسانية<sup>(١)</sup> . لم قال جيمس ذلك ؟  
 قال ذلك بدافع التعددية أو التجريبية الأصيلة . إن أبرز عناصر هذا  
 التعدد هو الإمكان . أى أن العالم لم يتم تكوينه من الأزل ولكنه يتم باستمرار  
 على أيدي الناس . فقد تم أشياء في العالم على أيدي الناس لا يعلمها الله .  
 الواقع أن جيمس لم يكن مخلصاً لفكرة مل بالمحدودية في الله كل الأخلاص .  
 يقول : « .. خطة الخالق في الكون ترك مجالاً لكثير من التفاصيل ولكن كل  
 الإمكانات معلومة لديه »<sup>(٢)</sup> . ثم يقول في نص آخر : وليس من المهم أن نعرف  
 ما إذا كان الخالق هو الذى يقرر الإمكانات ويحدد المصادفات تقريراً  
 وتحديداً مطلقاً : كل يأتي في وقت معين ، أم أنه يترك هذا التجديد للمخلوقات  
 المحدودة مثلنا . . ما يهمنا أن الإمكان حقيقه واقعة . . سواء أهو الذى يحل  
 الإمكانات ، أو يباشرها عن طريقنا ، أعتقد أن ذلك قليل الأهمية ما دامت  
 النتيجة لا تكون إلا هنا والآن<sup>(٣)</sup> .

وما دمنا عرفنا مصدر فكرة جيمس في محدودية الله أى المصدر التعددى  
 فإن من السهل إدراك معنى أن الله خاضع للزمن : لا يعنى أن الله ليس خالداً  
 وإنما يعنى أن الله لم يخلق الكون من الأزل وإنما الخلق وعمل الله فيه قائم في  
 مجال الزمن . والزمن صورة الإمكان .

وأهم فكرة متضمنة في فكرة الشخصية عند الله هي أن الله رفيق للإنسان  
 صديق له معين له على الوصول إلى كماله ، مساعد له في التغلب على الشر  
 الذى في العالم . ليس مصدر خوف لنا أو رهبة وإنما مصدر حبنا لأنه رمز  
 تفاؤلنا في هذه الحياة .

ولو سألت جيمس هل الله واحد أم يوجد معه شركاء ؟ أجابك أنه

( ١ ) J. Wahl : Les philos. pluralistes p. 157 .

( ٢ ) ، ( ٣ ) James : Dilemma of determinism .

مشارك . ويسألك هو لم يجب أن يكون الله واحداً ؟ لم يكون الله ملكاً متعالياً على كل قوة . . . إننا نريد مواطنين أحراراً في جمهورية كلية . إن العالم شبيه بدولة جمهورية شعبية يقدس كل عضو فيها أعمال الآخر ، وفوقهم معين أكبر»<sup>(١)</sup>.

يبقى سؤال أخير في تصوير جيمس لله . هل لله وجود موضوعي عند جيمس ؟ هل الله موجود سواء أكان موضوع إيمان الإنسان أم لم يكن ؟ هل الله من خلق الإنسان وتصوره ؟ إن روح كتابات جيمس لا تؤدي إلى الحكم بأن الله وجوداً موضوعياً بالمعنى الدقيق . قال في إرادة الاعتقاد إن اعتقادك في وجود الله يبرر وجوده ويحققه وقال إن لوجود الله في نفسك أثراً على سلوكك أي سيخلق التفاؤل والخير وسيحقق الأمن والسعادة . هذا ما رأيناه .

ويظهر أن جيمس أراد أن يفلت من هذه الورطة (وهي أن الله خلق الإنسان) فرأى أن الآثار الناتجة لنا عن تصور الله صادرة عن وجود حقيقي فعلاً . لو لم يكن الله موجوداً حقاً لما أنتج هذه الآثار . « .. إن هذا الذي ينتج آثاراً في عالم آخر يجب أن يكون عالماً موجوداً بذاته . ولذا يشعر أنه لا مبرر فلسفي للقول بأن العالم الصوفي أو العالم المعقول عالم غير واقعي وغير موجود»<sup>(٢)</sup>.

### الصلاة :

يبقى شيء آخر يصل إليه جيمس في علم الدين : وهو كيف تتحقق الصلة بين الإنسان والله ؟ جوابه أن الصلة تتحقق عن طريق الصلاة . يعتقد جيمس أن الصلاة حلقة الاتصال بين الله والإنسان . بل إن الصلاة ماهية الدين الصحيح . ولا يعني جيمس بالصلاة صلوات الدعاء بل يرى أن صلاة الدعاء نوع واحد من أنواع الصلوات . « إن الصلاة نوع من العلاقة

(١) J. Wahl : Les philos. pluralistes. p. 160.

(٢) James : V.R.E. : p. 506.

الداخلية أو المحادثة الباطنية مع قوة مقدسة»<sup>(١)</sup>. وتتكون الصلاة — عند جيمس من الشعور الموجود عند الأفراد بعلاقتهم مع قوى لميا يشعرون أنهم مرتبطون بها. هل للصلاة نتائج؟ يجيب جيمس بالإيجاب: «إننا بالصلاة نرى قوى غير منظورة ونرى أثراً لها في حياتنا. حقاً كل هذا شيء ذاتي ولكن لا تنس أن الدين يجب أن يقوم أو يزول بالاقتناع بأن آثاراً من نوع ما تحدث فعلاً»<sup>(٢)</sup> ويظهر أن جيمس تأثر في قيمة الصلاة بمفكر ديني نشر كتاباً له في عصره ويستشهد جيمس ببعض فقرات منه. يقول المفكر الفرنسي: «الدين محادثة أو علاقة إرادية مشعور بها بين روح ما، وقوة غامضة يشعر فيها الإنسان أنه يعتمد عليها، وأن مصيره مرتبط بها. وتتحقق هذه الصلة بالله عن طريق الصلاة. أن الصلاة هي الدين العملي أي أنها الديانة الحقيقية. إن الصلاة تميز الظاهرة الدينية من تلك الظواهر الشبيهة بها مثل الظواهر الخلقية والدينية... ولا أفهم من هذا اللفظ عبارات غير مجدية ولا مجرد تكرار لصيغ معينة وإنما هي تلك الحركة التي تقوم بها الروح وتضع نفسها في علاقة شخصية مع قوة غامضة تشعر الروح بوجودها. فإن حرماننا من هذه الصلاة حرماننا من الدين»<sup>(٣)</sup>.

## علم الأخلاق عند وليم جيمس

لم يهتم وليم جيمس بعلم الأخلاق اهتمامه بالمنهج الفلسفي أو نظرية الصدق أو نظرية الدين وإنما نجد له في الأخلاق آراء منبثة في مختلف آرائه: نرى كلاماً خلقياً في أبحاثه الدينية وفي نظريته في التعددية الأصيلة أو في كتبه

(١) Ibid : p. 454.

(٢) Ibid : p. 456.

(٣) A. Sabatier : Esquisse d'une philosophie de la religion. 2e. ed. 1897. (٣) pp. 24-5.



السيكولوجية حين يتحدث عن الانتباه أو العادة أو الغريزة أو الإرادة .  
ورأيت أن أجمل أهم آرائه في الأخلاق في العناصر الثلاثة الآتية :  
الإلزام الخلقى — مذهب التفاؤل الخلقى . ويسميه جيمس المليونرزم  
Meliorism وحرية الإرادة الإنسانية .

### الإلزام الخلقى :

يرى جيمس أنه لا معنى لقيام علم أخلاق في عالم ليست به حياة إنسانية .  
إن عالماً به عناصر مادية ومركبات كيمياوية لا نجد منه مدلولاً للخير والشر  
والفضيلة والرديلة والحسن والقبح والإلزام . لا يمكننا أن نقول إن جسماً مادياً  
أكثر خيراً من جسم مادي آخر . إنه موجود أو غير موجود وكفى . ولذلك يرى  
جيمس أن الأخلاق تقوم في عالم به كائنات ، لها مطالب ورغبات وإحساسات  
ومشاعر — هذه الكائنات هي بنو الإنسان<sup>(١)</sup> . فعلم الأخلاق قائم إذن في  
عالم إنساني .

وينكر جيمس علم الأخلاق العقلي المطلق الذي نجده متضمناً مواعظ  
وإرشادات عن النضال ، وترك الرذائل ، أو تلقى الإنسان لقواعد خالدة  
وقوانين ثابتة وطاعتها : يقول جيمس إن مثل هذا العلم لا دلالة له ولا معنى .  
إن مصدر العلم الأخلاقي إنساني بحث . وذلك لأن الإنسان هو الكائن الخلقى  
الوحيد في هذا العالم . ولذا فالمعقول أن يكون الإنسان مصدر الخير والشر  
والفضيلة والرديلة . إن الخير خير بالنسبة له والشر شر بالقياس إليه . ومن ثم  
أمكن لجيمس أن يقول «إن الإنسان هو الخالق الوحيد للقيم في ذلك العالم  
وليس للأشياء من قيمة خلقية إلا باعتباره هو»<sup>(٢)</sup> .

وما دام وصل جيمس إلى هذه النقطة فإنه جاعل مادة بحث الفيلسوف

(١) James : Essays in Pragmatism. p. 29.

Ibid. (٢٠)

الخلقى المثل المتحققة فى هذا العالم والتجارب الفعلية التى يعانىها الأفراد ويقومون بأدائها .

وينتهى من ذلك إلى القول بأن المطالب الملزمة والرغبات المشروعة هى الحاصلة على إجماع شعبى . سنعتبر الحسن ما رأى معظم الناس إنه كذلك ، وما ينكره الإجماع فهو قبيح . «إن الآراء الذائعة حق وإن القانون المعيارى الحق هو ما يعتقده الرأى العام، ومن الحماسة لكثير منا أن يحاولوا التجديد فى الأخلاق»<sup>(١)</sup> . ينبغى أن نتمسك بالحسن والقبيح فى عرف المجتمع . وللمن فعله وأثره فى تطور الفضائل ، فقد ينهض بعض الأفراد ويرون آراء أو يتمسكون بأفعال جديدة يعتقدون أنها أكثر خيراً مما درج عليها الناس ، فتتغير الفضائل إذا قبلتها الجماعة .

ويحاول جيمس أن يربط الأخلاق بالدين ليضع له الأساس الموضوعى فيقول : « إنه يبدو لى - وتلك نتيجة النهائية - أن العالم الخلقى المستقر المنظم الذى يبحث عنه الفيلسوف الخلقى لا يمكن أن يوجد كاملاً إلا حيث توجد قوة مقدسة ، ذات مطالب عامة شاملة . فإذا وجدت هذه القوة فإن منهجها فى إخضاع أحد المثل للآخر سيكون المنهج الصحيح لتقدير القيم . . لذلك ينبغى علينا - كفلاسفة - ومن أجل تحقيق غاياتنا من إيجاد نطاق خلقى واحد : أن نفترض وجود الله »<sup>(٢)</sup> .

### التفاضل الخلقى :

المليورزم Meliorism ( التفاضل الخلقى ) اصطلاح يصطنعه جيمس للدلالة على الموقف القائل بأن العالم ليس خيراً فى ذاته ، وليس شراً فى ذاته وإنما يمكننا أن نجعله خيراً بمكافحتنا الشر الذى فيه ؛ أو المليورزم اصطلاح

( ١ ) James : Essays in Pragmatism p. 82 .

( ٢ ) Ibid.: pp. 86-7 .

يقف به جيمس موقفاً وسطاً بين مذهبي التفاؤل والتشاؤم . يرى جيمس أن الخير ليس ضرورياً ، ولا مستحيلاً ، ولكنه ممكن . وأن الشر كذلك ليس أساسياً وعنصراً من عناصر الكون ولكنه شيء يمكن التغلب عليه . ويعلن جيمس أن التفاؤل والتشاؤم شيان إنسانيان أى أن الإنسان إذا اعتقد بأن العالم خير وسلك في الحياة وفق اعتقاده هذا ، فإن العالم يصبح خيراً حقاً . وإذا اعتقد بالتشاؤم : أى أن العالم شر وسلك وفق ذلك فإن العالم يصبح شراً حقيقياً . ومعنى الخيرية عند جيمس ملائمة عالمنا بالحياة خلقية ودينية ناجحة .

والحق أن مذهب التفاؤل الخلقى ليس مذهباً خلقياً فقط ، وإنما هو منبث في فلسفة جيمس الدينية والميتافيزيقية : أعنى أن جيمس حل — عن طريق التفاؤل — مشكلة الخلاص Salvation في الدين ، والحدة في مذهب التعدد الميتافيزيقي ، والشر في الأخلاق .

### التفاؤل والخلاص :

رأينا أن عنصراً أساسياً من عناصر الدين عند جيمس هو الاعتقاد بعالم غير منظور . ومبرز هذا الاعتقاد أن له آثاراً على حياتنا هو أثر التفاؤل : أى أن العالم الخلقى قد يوجد نوعاً من الأمان والابتهاج والارتياح ويبصرنا إلى أن العالم خير ومصدره واسع فسيح وأن الكون أوسع مما نرى وأنه يوجد مجال إمكان للحصول على السعادة . إن أصابنا عجز أو يأس في عالمنا . والتفاؤل الدينى بهذا المعنى متصل بمشكلة الخلاص في الديانة المسيحية .

أراد جيمس ألا يقرر الخلاص كما نادت به العقائد المسيحية ، وألا ينكره كما رأى التشاؤميون الذين نادوا بأن الخلاص مستحيل . وأراد أن يقف موقفاً وسطاً بقوله إن الخلاص ممكن . وإمكان الخلاص عنده قائم على أساس برجماتي . يرى جيمس أن الخلاص محتمل ويزداد احتمالاً كلما زادت الظروف التي تدعو إليه . إن لكل منا مثلاً يطالب بها ويرغب فيها فإذا ما حقق فرد منا

رغبة يهدف إليها ، فإنه يكون قد حقق لحظة من لحظات الخلاص<sup>(١)</sup>. اعتبر جيمس الخلاص إمكاناً حياً للوصول إلى الكمال ، لأحكاماً مجردة ، أو عقائد غير إنسانية .

. ونظرية جيمس في الخلاص مرتبطة بنظريته في الميتافيزيقا أى مذهب التعدد. لأنه منطوق على الإمكان .

إن العالم يُزَادُ فيه باستمرار ، ويخلق خلقاً متصلاً . لأنه به فجوات ونحن المائلون لها . وعملنا هذا هام لنا وللعالم : إننا نشعر أننا منشئون عاملون لهذا العالم ونطمئن إليه ولا نرهبه ، ويصبح العالم ميداناً لنشاط ممكن للإنسان ، يقول جيمس :

« ما الشروط التي لو توفرت لجعلت إمكان الخلاص حقيقة واحدة ؟ إنها ذلك المزيج من الأشياء التي تعطينا الفرصة لأن نملاً ما فيها من فجوات . . . هل عملنا ذاك يحقق خلاص العالم ؟ نعم . . . ولا معنى للخلاص إذا فهمنا أن العالم نشأ دفعة واحدة كاملاً تاماً . ولكن يمكن فهم الخلاص إذا كان يتحقق الكمال على دفعات ، بإضافات جزئية — إضافة أجزاء جديدة إلى جانب بعضها »<sup>(٢)</sup>.

### التفاوت والبشر :

قلت إن جيمس يرى أن مذهب التفاؤل يحل له مشكلة الشر في الكون . ونذكر أني قلت في عرضي لمذهب التعدد أن جيمس برره للمصاعب القائمة في مذهب الواحدية . أبرز مأزق يخلفه المذهب الواحدى هو استحالة التخلص من الشر ، واستحالة تفسيره . بل إن أصحاب المطلق وعلى رأسهم هيجل يعتبرون الشر عنصراً ضرورياً في الكون وأنه يجب علينا أن نتحملة ونحافظ على وجوده

( ١ ) James : Pragmatism p. 286.

( ٢ ) Ibid : pp. 288-9.



لأن له وظيفة أساسية في تقدم البناء الأخير للحقيقة .

يعلن جيمس أن مشكلة الشر مستحيلة الحل على الأساس الميتافيزيقي وإنما يمكن حلها على أساس عملي<sup>(١)</sup>. وبمعنى آخر لم يسأل جيمس : ما الشر وما دلالة . وإنما يسأل كيف نتغلب عليه . لقد تغلب جيمس على الشر بما قاله في التفاؤل الخلقى (المليورزم) ليس العالم خيراً في ذاته ولا شراً وإنما يصبح خيراً باعتقادنا أن العالم كذلك أو شراً إذا اعتقدنا أنه شر . يقول جيمس : «اعتقد أن العالم خير واسلك وفق اعتقادك ستجد أنه خير ؛ لأنك لو اعتقدت أن العالم شر وسلكت وفق ذاك الاعتقاد فإنك تخلق بذلك عواطف اليأس والعجز والقنوط وسيصبح العالم شراً حقيقياً . . . إن العالم خير يجب أن نقول ذلك ما دام هو عبارة عما نصنعه فيه ؛ وسنصنع فيه الخير»<sup>(٢)</sup>.

ويعتقد جيمس أن الإنسان السليم العقل Healthy-minded ينظر إلى الأشياء على أنها حسنة وخيرة أما المريض Sick Soul فإنه ينظر إليها على أنها شر في ذاتها . ويصبح الإنسان متفائلاً إذا اعتقد بخير العالم لأنه سوف يجد العالم يلبي رغباته ، ويخدمه ، ويرفع عنه الاضطراب والقلق . وحينئذ لن يفكر في الشر وسيعتبر أنه شيء غير موجود أو سيتجاهله على الأقل .

بل يقول جيمس أكثر من ذلك : « إن معظم ما نسميه شراً يرجع إلى النحو الذى يأخذ الناس به الظواهر . يمكنك أن تجعل الشر خيراً بتغيير بسيط في الموقف الداخلى للإنسان المتوقع للشر : ( أى تغيير ) من موقف الخوف منه إلى موقف نضاله . وستصبح لدعة الشر حلاوة إذا قبلنا مواجهته بطرب وابتهاج . أنكر ما في الوقائع من سوء واحتقر شبح سوئها ، وأدر ظهرك لها . فإن الشر الذى فيها قد يزول»<sup>(٣)</sup>.

( ١ ) James : V.R.E.: p. 125.

( ٢ ) James : Essays in Pragmatism p. 31.

( ٣ ) James : V.R.E.: P. 89.

## حرية الإرادة :

مقدمة : يؤمن وليم جيمس بأن الإنسان مختار في أفعاله ، وليس مجبراً عليها . ونظريته في الحرية أساسية لإقامة أجزاء كثيرة من فلسفته . لا يقوم مذهب التعدد القائم على الإمكان إلا إذا توفرت الحرية للإنسان . ولا يقوم مذهب التفاؤل الخلقى إلا إذا كان الإنسان حر الإرادة . وحين يبحث وليم جيمس في المشكلة يهرب من الأساس الميتافيزيقي للحرية فائلاً إن من المحال الوصول إلى إثبات الحرية الإنسانية على أساس ميتافيزيقي كما فعل في مشكلة الشر . ونتوقع بطبيعة الحال أن يترك الأساس الميتافيزيقي للحرية ليعتبرها على أساس سيكولوجي . وهذا حق ولكن سنرى أنه سيأتي في نهاية بحثه السيكولوجي في الإرادة ليعلم أنه لا حل للحرية على أساس سيكولوجي أيضاً .

لقد حل جيمس مشكلة الحرية على أساس ذاتي أي افترض أن الإنسان حر الإرادة وطلب منه أن يسلك كما لو كان الافتراض صحيحاً ويقول إن الإنسان سيجد نفسه حينئذ أنه حر الإرادة وأنه يستطيع خلق أفعال جديدة .

## سيكولوجية الإرادة :

سأتناول في هذه الفقرة نقطتين :

- ( أ ) ما الفعل الإرادي ، وما التحليل السيكولوجي لهذا الفعل ؟
- ( ب ) ثم هل الفعل الإرادي حر ؟ ومعنى آخر هل لا بد أن يكون الفعل الإرادي صورة معينة محددة يستحيل تصور غيرها ، أم أن من الممكن أن يصدر الفعل الإرادي على صورة ما وأن يصدر على صورة أخرى . لو قلنا إن صورة الفعل محددة سنقول إن إرادة الإنسان ليست حرة ، وإن قلنا العكس أمكننا أن نعتقد بحرية الإرادة .

نبدأ أولاً بتحليل جيمس للفعل الإرادي .

للفعل الإرادى عنصران : فكرة فى عقل فرد ما ؛ وتحول هذه الفكرة إلى فعل حركى . ويكون هذا الفعل الحركى — بطبيعة الحال — الأثر الناتج لسيطرة الفكرة على عقل الفرد :

يعتقد وليم جيمس أن العنصر الثانى — ما ينتج عن الفكره من حركات جسمية — شىء فسيولوجى بحث فى أساسه : أى يخضع لقوانين فسيولوجية تتعلق بالحوادث العصبية والعقد العصبية ونحو ذلك . وبذا يخرج جيمس البحث فى هذا العنصر من ميدان علم النفس ، ويدخله فى ميدان الفسيولوجيا : إذ خطوة الحركة ، أو الفعل ذاته الناجم من قوة الفكرة خطوة لا أثر للعقل فيها وإنما هى خطوة ثانوية .

« . . . الغايات الوحيدة التى تنشأ عن إرادتنا يبدو أنها حركات جسمية . . . ولذا نبدأ من الحكم بأن الآثار الخارجية المباشرة الوحيدة لإرادتنا هى حركات جسمية . . . ويجب أن تكون الحركات الإرادية وظائف ثانوية للكائن العضوى لا وظائف أولية . وهذه أول نقطة يجب إدراكها فى سيكولوجية الإرادة . أما الأشياء الأولية فهى الأفعال المنعكسة والحركات الغريزية والانفعالية » (١) .

تنحصر مهمة سيكولوجية الإرادة — عند جيمس — إذن فى فكرة ما حين تؤثر على العقل التأثير الذى يهدف إلى أن يكون لها آثار خارجية فى السلوك .

هكذا يحدد جيمس بحثه فى الإرادة بتحديد أولياً : يبدأ بعده فى تحليل الفعل الإرادى ذاته . يرى جيمس أن المظهر الأول للحياة الإرادية محال التفسير ومعنى ذلك أن الحركات الصادرة عن فرد ما تكون أول أمرها بطريق الصدفة أو بطريق الفعل المنعكس ، أو بنحو لا إرادى . وللحركة من هذا النوع أثر هو أن تترك فى الذاكرة صورة ذهنية . وقد يرغب هذا الفرد فى أداء هذه الحركة مرة أخرى وقد يحلوه أن يكررها ، وحينئذ يكون فعله لها فعلاً إرادياً — ولكن كيف أريد هذا الفعل فى المرة الأولى سؤال من المحال الأجابة عليه (٢) .

James : Psychology : A Briefer Course. p. 415. (١)

Ibid : p. 416. (٢)

عرفنا الآن أن عنصرى الفعل الإرادى : فكرة يتبناها حركة . ونريد الآن أن نسأل كيف تصدر الحركة عن فكرة ما ؟ وجواب جيمس هو أننا نحتاج إلى فكرة ما لتنشأ عنها الحركة ، ونحتاج أيضاً إلى فكرة عن كمية النشاط العصبي اللازمة للتنبيه العيضي .

ويسمى جيمس الفكرة القائمة في العقل والسابقة على الشحنة الحركية دليل الحركة Motor-cue <sup>(١)</sup> . ويرى أن ميزة هذه الفكرة التي ستتحول إلى حركة هي أن ينشأ معها توقع الآثار الحسية للحركة . فإذا لم يصاحب الفكرة هذا التوقع فلن تتحول إلى حركة أبداً .

وقد يكون تحويل الفكرة إلى عمل أمراً سهلاً مباشراً ، وقد يكون أمراً صعباً يستلزم جهداً . إن الفكرة تصبح فعلاً على نحو سهل إذا توفر شرطان . الشرط الأول : أن تكون الفكرة ممثلة لموضوع من موضوعات الشهوة أو الانفعال ، أو تم الفكرة عن لذة أو تعود .

الشرط الثاني : ألا يوجد بالعقل أفكار أخرى تعارض الفكرة التي نحن بصددّها إذ يضعف سلطان فكرتنا لو أحاطت بها أفكار معارضة لها تخفف من أهميتها وقد تجعلها عديمة التأثير <sup>(٢)</sup> . يهتم جيمس كثيراً بالوصول إلى قوة الفكرة وسلطانها على العقل .

ومن الواضح أن هذين الشرطين إذا لم يتوفرا كان تحويل الفكرة إلى عمل أمراً صعباً . وهذا هو ما يحاول جيمس تحليله ليصل إلى حل لهذه الصعوبة . ستصبح الفكرة هزيلة في العقل إذا كانت ممثلة لتصورات مجردة أو لأشياء غير متعودة أو إذا كانت توجد إلى جوارها أفكار أخرى تضارعها وتنافسها .

في مثل هذه الحالة تحيط بالفكرة بعض الصعوبات :

Ibid : p. 420. ( ١ )

Ibid : p. 424. ( ٢ )



حل الصعوبة - في نظر جيمس - هو أن يصاحب الفكرة عنصر القبول Consent أو عنصر الاقتناع Resolve . يقول : « . . . لا بد من عنصر القبول أو الاقتناع لكي يحدث الفعل ، وهذا يكون ماهية الإرادة في الفعل <sup>(١)</sup> » .

ولكن يتم قبول الفكرة في العقل واقتناعه بها يلزم أن تكون قوية لها سلطة وتأثير . متى يكون للفكرة هذه القوة ؟ يرى جيمس أن الفكرة تكتسب قوتها حين يشعر الفرد أنها ضرورة ملحة . ما مظاهر هذا الشعور ؟ هي أن تسيطر على العقل وأن تصبح في مركز انتباهه أو اهتمامه ، وأن تطرد الأفكار الأخرى من مكانها في هذا المركز <sup>(٢)</sup> . ويظهر أن السؤال لا زال قائماً أي كيف تكون الفكرة لها قوة الضرورة والإلحاح ؟ يجيب جيمس بكلمة واحدة هي « الجهد » Effort . إن هذه الكلمة مفتاح نظرية جيمس في الإرادة . لكي تكون الفكرة قوية مؤثرة لها سلطانها على الأفكار الأخرى وموضع قبول ورضا ، يلزم أن يصاحبها جهد ليعينها على ذلك .

إن وظيفة الجهد أن يعوق قوة الميول الدافعة القوية مثل المنبهات الغريزية والتعودية . ووظيفته أيضاً أن يعمل على طرد كل الأفكار المناهضة للفكرة المطلوب تحويلها إلى عمل . ووظيفته الثالثة أن يحافظ على الفكرة من أن تضطرب وسط الأفكار الأخرى وأن تتشتت : ويتم ذلك عن طريق استدعاء الجهد للأفكار التي تسندها ، ويربطها فتكون مصدر قوة حقيقية <sup>(٣)</sup> .

فإن وصل الجهد إلى هذه الوظائف وأداها ، أصبحت الفكرة موضوع العقل الأساسي وهنا ينتهي عمل النفس أو العقل في الفعل الإرادي . لأن ما يتبع ذلك هو الحركة ذاتها وقد قلت إنها من شأن الفسيولوجيا أو ستصبح الحركة عملاً آلياً لا جهد فيه .

James : Ibid : p. 419. ( ١ )

Ibid : p. 448. ( ٢ )

Ibid : p. 453. ( ٣ )

وتتضح قيمة الجهد أكثر من ذلك لو سألنا جيمس ما هو الجهد ؟  
 إنه يقول إن جهد الإرادة إنما هو جهد انتباه أو بمعنى آخر : « إن ما  
 يثير الانتباه يحدد السلوك . إن ما يثير انتباهنا وما يتبر اهتمامنا حدان مترادفان<sup>(١)</sup>  
 What-we-attend-to and what-interests-us are synonymous terms.  
 إن المجهود الذى يبذله الإنسان فى الانتباه إلى الفكرة والاهتمام بها يحقق  
 ماها من قوة وسيطرة على العقل .

### ( ب ) هل الفعل الإرادى حر أو مجبر ؟

يجيب جيمس أنه يبدو أن الجهد ليس رد فعل ثابت وإنما هو « المتغير  
 المستقل » independent Variable من بين المعطيات الثابتة . ومن أمثلة هذه  
 المعطيات ما لدينا من دوافع وطباع . فإذا كان ذلك كذلك فإن كمية الجهد  
 ليست دالة محددة لهذه المعطيات . ومن هنا نقول إن إرادتنا حرة<sup>(٢)</sup> .  
 يستند جيمس فى القول بالحرية إلى أن كمية الجهد المطلوبة لقوة الفكرة  
 ليست كمية محددة . وأنكر أن تكون هذه الكمية محددة ثابتة لأن ذلك معناه  
 أن الجهد المحدود بالمعنى الدقيق يترتب عليه أن يجعل الفكرة مسيطرة على شعورنا  
 فى أى زمن وفى أى ظرف . ويدافع عن ذلك بقوله من المستحيل أن نعطي  
 كمية محددة من الجهد لفكرة ما ؛ لأن ذلك يستلزم منا أن نعرف أنواع  
 المجهودات التى سبقت هذا الجهد ، وأن نحددها تحديداً رياضياً ، وأن نثبت  
 بقوانين — ليس لدينا عنها شئ حتى الآن — أن الكمية الوحيدة للجهد التابع  
 لما سبقه من جهود ، واللازم عنها كمية دقيقة . ويقول جيمس إن هذا المقياس  
 سواء كان نفسياً أو عصبياً ثم هذه الاستنباطات المسلسلة لن تكون فى متناول  
 الإنسان<sup>(٣)</sup> .

ما الغاية من هذه النتيجة التى وصل إليها جيمس ؟

( ١ ) Ibid : p. 448.

( ٢ ) Ibid : p. 456.

( ٣ ) Ibid : p. 457.

لقد أعلن أن « السؤال عن حرية الإرادة لا حل له على أسس سيكولوجية . . ولذا يتحول هذا السؤال إلى الميتافيزيقا »<sup>(١)</sup>.

### الحل العملي لمشكلة الإرادة :

أرى أن جيمس لم يحول مشكلة الإرادة إلى الميتافيزيقا على نحو دقيق : لأنه لا يتقن الخوض في الأبحاث الميتافيزيقية . وهو يعترف بذلك . وقد سبق له أن أعياه الحديث في مشكلة الشر حديثاً ميتافيزيقياً أى حديثاً قائماً على منطق الاستنباط أو منطق الجدل كما تحدث هيجل ، أو منطق العلم كما تحدث بيرس . وقد سبق له أيضاً أن أعياه الحديث في مشكلة العالم غير المنظور فافترضه افتراضاً . وكذلك فعل في حرية الإرادة . إن كل الميتافيزيقا التي أقامها جيمس هي التجريبية الأصيلة وهي شقان :

العلاقات بين أجزاء العالم خارجية وعنصر الإمكان في العالم عنصر ضروري أي نظريته في التعدد . وإذا كان حله لمشكلة الإرادة حلاً ميتافيزيقياً — كما يقول — فإنه قائم على فكرة الإمكان .

يرى جيمس أن البحث في حرية الإرادة قائم على البحث في التفرقة بين الجبر والاختبار وجوهر المشكلة بين الجبر والاختبار هو الإمكان . وليس له معنى عنده سوى أن الصدفة قائمة . يرى أن الجبر هو القول بأنه ليس للمستقبل إمكانيات غامضة ، وأن من المحال أن يوجد مستقبل جديد عما هو ثابت منذ الآن<sup>(٢)</sup>.

ويرى أن الاختيار هو أن الإمكانيات في تحقق مستمر وأن العالم ليس وحدة متماسكة تماسكاً ضرورياً وإنما هو تعدد . ولكنه تعدد غير مطلق أى أن الرباط بين الأشياء ممكن وأن الانفصال بينها ممكن أيضاً : ليس ضروريا ولا مستحيلاً . إن العالم — في تصور جيمس — مليء بالممكنات يتحقق بعضها

(١) Ibid : p. 458.

(٢) James : Essay in Pragmatism. p. 40.

الآن ، وينتظر البعض الآخر تحقيقه في المستقبل<sup>(١)</sup> .

إلى هذا الحد يقف التفسير الميتافيزيقي — إن صح ذلك — لحرية الإرادة .  
أى اعتقد جيمس أنه أقامها على أساس إقامة الإمكان في العالم ، وعلى أساس  
إنكار الوصول إلى كم ثابت للجهد المبذول من الطاقة البشرية . لا ننس أن  
جيمس لم يستطع إثبات أن الكم متغير . إنه أثبتته عن طريق برهان الخلف  
فحسب .

الواقع أن حل جيمس لمشكلة حرية الإرادة حل عملي لا ميتافيزيقي .  
استمع إليه :

« أنا أرى أن الإمكان شيء يصادر على وجوده الرجل الذى يريد التصور  
المقبول لدى العقل ، والتصور الملبي لحاجاته الطبيعية ، لأنه على أساس تلك  
المصادرة سيصبح الكون مقبولا وملبياً لحاجات الإنسان<sup>(٢)</sup> .

ويقول أيضاً : « إذا قلتُ إن للصدفة وجوداً حقيقياً فلست جادا في  
ذلك . لسنا متأكدين من أننا في عالم به صدفة أو ليست به . ولكن يبدو  
لى أنه كذلك : وأنا أعيد ما كررته من قبل وهو أن هذا السؤال ( الصدفة  
في الكون ) لا حل له من الناحية النظرية البحتة<sup>(٣)</sup> » ويقول جيمس أخيراً :

« أنا أريد عالم الصدفة . قل فيها ما تشاء لكنى أرى أن الصدفة لا تعنى  
أكثر من التعدد . . فإذا تشبثت بعالم كامل فإنى لا أزال أعتقد أن عالماً به  
صدفة أفضل وأحسن من عالم ليست به<sup>(٤)</sup> .

Ibid : p. 41. ( ١ )

Ibid : p. 42. ( ٢ )

Ibid : p. 47. ( ٣ )

Ibid : p. 61. ( ٤ )



## الفصل السادس

### التيار البرجماتي بعد وليم جيمس

إن صح أن أطلق اسم (مدرسة هارفارد) على الحركة البرجماتية التي قادها بيرس وتبعه فيها جيمس ، فإن لها آثاراً هامة على مدرستين أخريين إحداهما مدرسة أكسفورد في إنجلترا وقادها الفيلسوف فرديناند كاننج سكوت شلر F.C.S. Schiller .

والمدرسة الأخرى هي مدرسة شيكاغو في أمريكا وقادها الفيلسوف الشهير جون ديوى .

#### ١ - فرديناند شلر (١٨٦٤ - ١٩٣٧)

اتفق فرديناند شلر مع وليم جيمس في اتجاهاته الفلسفية ، وكانت بينها مشاركة في الآراء ؛ كما كانت بينه وبين ديوى صداقة وود . ولشار مذهب

( ١ ) ينبغي ألا نخلط بين فرديناند شلر الفيلسوف الإنجليزي الذي أتحدث عنه هنا ، وجان فردريك شلر J.F. Schiller ( ١٧٥٦ - ١٨٠٥ ) الألماني صديق جوته ، وماكس شلر M. Schiller ( ١٨٧٤ - ١٩٢٨ ) العالم في النفس والأخلاق والمفكر اللاهوتي على أساس فنومنولوجي حيث كان تلميذاً لإيكن Humanis وهو سرل ؛ ولقد وفق ماكس شلر بين الفنومنولوجيا واللاهوت الكاثوليكي ؛ كما اتخذ أيضاً موقفاً إنسانياً بين الواقعية والمثالية كما يجب ألا نخلط بين المذهب الإنساني Humanism كما قال به شلر الإنجليزي في مطلع هذا القرن ، والمذهب الإنساني الذي ساد أوروبا بعد عصر النهضة والذي وقف يعارض الأفكار الدينية في القرون الوسطى ويخرج عليها .

أما فرديناند شلر فكان أستاذاً للفلسفة بأكسفورد ، وهو المتزعم للحركة البرجماتية في إنجلترا . والسبب الذي من أجله لم يصب شهرة في المذهب البرجماتي مثل ما أصاب وليم جيمس شيئان : جفاف أسلوبه وذلك أدى بـجيمس إلى الدفاع عن زميله شلر بأسلوبه الجذاب الأدبي المقنع ، كما أن شلر لم يقل بأفكار فلسفية لم يقل بها جيمس بل إن جيمس يزيد عليه في الأصالة كثيراً : إذ بالرغم من أنه أساس فلسفة شلر البرجماتية سيكولوجي إلا أنه لم يكتب كتاباً منظماً واحداً في علم النفس مثل ( مبادئ علم النفس ) الخالد لجيمس .

فلسفى كبير خاض فيه شتى المشاكل : فتكلم فى منهج فلسفى ، ونظرية للمعرفة ونظرية تعددية فى الميتافيزيقا ، وآراء فى الأخلاق والدين ، كما بحث فى المنطق الصورى بحثاً أدى به إلى رفضه حيث استبدل به منطقاً عملياً للاستعمال وساقه ذلك إلى أن البديهيات ليست ضرورية وإنما هى مصادرات إنسانية : ولقد أعلن شيلر اسم فلسفته ( المذهب الإنسانى ) Humanism ، وأعلن اسماً آخر لها وهو « المثالية الذاتية » Personal Id. . ولكن جوهر فلسفته — بوجه عام — ثورة على المطلق والمذهب الواحدى ودفاع عن أن الإنسان عنصر ضرورى فى بناء الصديق بل وبناء الواقع .

والمذهب الإنسانى عند شار شديد القرب من المذهب البرجماتى عند جيمس . بل إنى أرى أن هذين المفكرين عبرا عن اتجاه واحد بمعنى الكلمة ، وليساً مذهبين مختلفين . وينكر شار ذلك الرأى إذ يرى أن المذهب البرجماتى ليس إلا فرعاً بسيطاً أو ليس إلا تطبيقاً للمذهب الإنسانى . ولقد استخدم جيمس مرة المذهب الإنسانى مرادفاً لمذهبه البرجماتى ، ولكن حذره شيلر من ذلك ورد عليه بقوله إن المذهب البرجماتى أضيق نطاقاً من المذهب الإنسانى لأن الأول فى جوهره نظرية فى المعرفة ، أما الثانى فيضيف إلى هذه النظريات نظريات أخرى من الميتافيزيقا والأخلاق والجمال والدين<sup>(١)</sup> .

وبحثى فى مذهب وليم جيمس البرجماتى يدحض هذا الرأى إذ بينت أن مذهب جيمس نظرية معرفة ، ثم اتخذ أساساً لميتافيزيقا ولنظرية فى الأخلاق والدين وسرى أن آراء شار فى الميتافيزيقا والأخلاق والدين لا تختلف — حتى فى دقائقها — عن آراء جيمس فى هذه الفروع . ومن هنا أمكننى القول بأن المذهب الإنسانى فى أكسفورد والمذهب البرجماتى فى هارفارد يعبران عن تيار واحد وحقيقة واحدة .

( ١ ) من مقدمة كتاب F.G.S. Schiller : Studies In Hamanism, 2d. ed., 1912  
Macmillan, London.

### صلة شلر بـجيمس :

وإذا أردت أن أجقق أى المفكرين أسبق من الآخر إلى إذاعة التيار البرجماتى أجد التحقيق صعباً . بالإضافة إلى عدم جدواه فى البحث . كل ما أستطيع أن أقوله إن جيمس وشلر كانا على اتصال شخصى ومشاركة فكرية ، وكأنهما كانا على عقد فيما بينهما يقضى أن يشتركا فى صياغة مذهب واحد وكل يدافع عنه فى وطنه . وأستطيع أن أقول أيضاً أنه كان أحدهما يقتبس من الآخر دون حرج ودون ادعاء السرقة .

ولقد أشار شلر فى كتبه إلى إعجابه الشديد ( بمبادئ علم النفس ) وإرادة الاعتقاد لجيمس وكان يستغل أفكارهما فى نظرياته الإنسانية . ولقد أشار جيمس بالمثل فى كتابه ( برجماتزم ) إلى اتفاقه مع شلر فى نظرية المعرفة . بل وعقد فصلاً خاصاً فى كتابه ذاك بعنوان « دفاع برجماتى عن المذهب الإنسانى فى مسألة أنطولوجية ، وكان دفاعاً عن مذهب التعدد الميتافيزيقى . ونجد فى كتاب جيمس عن ( معنى الصدق ) فصلاً بعنوان ( المذهب الإنسانى والصدق ) يشرح فيه نظرية الإنسانية ويعلن أنها نفس وجهة نظره . ونجد أيضاً فى كتاب التجريبية الأصيلة فصلاً بعنوان ( ماهية المذهب الإنسانى ) .

ولدى نص يشير إلى الأسباب التى دفعت جيمس إلى موافقة شلر فى كل ما يقول . يقول جيمس : « .. إن السبب الأول الذى دفعنى إلى الدفاع عن المذهب الإنسانى هو أنه اقتصاد فكرى : إذ يتخلص المذهب من المشاكل التى يثيرها المذهب الواحدى كمشاكل الحرية والشر وما إليهما . ويتخلص أيضاً من بعض المشاكل الميتافيزيقية فمثلاً يتخلص من المذهب اللاأدرى حين ينكر افتراض وجود وقائع فائقة على التجربة ، ويتخلص المذهب الإنسانى أيضاً من المطلق كما عرضه برادلى . كما ينكر المطلق عند رويس »<sup>(١)</sup> . ولدى نص آخر ينطوى على قيمة كبرى إذ اتخذ جيمس مبدأ إنسانياً

أساساً لنظرية المعرفة البرجماتية كما اتخذها أساساً لميتافيزيقا التعدد . يقول جيمس : « إذا كانت النظرية الإنسانية ( ولو أن جزءاً ما من التجربة يمكن أن يعتمد على جزء آخر من التجربة لكي يكون جزءاً له وجود بوجه من الوجوه التي نقيم لها وزناً ، إلا أن التجربة بوجه عام تعتمد على ذاتها ولا تعتمد على شيء ) مقبولة فإنه ينتج عنها — إذا كنا نتحدث في باب المعرفة — أن الذات العارفة والشيء المعروف يجب أن يكونا جزءين من أجزاء التجربة ؛ إن جزءاً ما من التجربة يعرف جزءاً آخر منها أو أن الأجزاء يمثل بعضها بعضاً ، وينوب بعضها عن بعض ، بدلاً من أن يمثل الشعور وقائع خارجية عنه . . إن الفيلسوف الإنساني ينظر إلى المسافة الكائنة بين الذات والموضوع نظرة برجماتية . ويرى أنها تتكون من تجارب واصله إن لم تكن فعليه فممكنة<sup>(١)</sup> .

ويمكنني أن أقف في التحقيق على أسبقية فكر جيمس أو شلر يقول إن جيمس سبق شلر في رأيه في الدين والاعتقاد وتبريره بحوالى تسع سنوات<sup>(٢)</sup> وأن شلر سبق جيمس في القول بمادة أولى أو تجربة أصيلة بسنة واحدة<sup>(٣)</sup> وإن كان جيمس أخذ التجربة الأصيلة وسار بها إلى طريق جد مختلف كما رأينا .

## المذهب البرجماتي والإنساني عند شلر

### ما الصدق ؟

يستخدم شلر كلمة (برجماتزم) كثيراً وبصراحة وفي مواطن متعددة

(١) Ibid., p. 196.

(٢) كتب جيمس إرادة الاعتقاد سنة ١٨٩٧ ، وكتب شلر رأيه في (الإيمان والعقل والدين) في سنة ١٩٠٦ في Hibbert Journal ونشرت كفصل من فصول كتابه (دراسات في المذهب الإنساني) الذي صدر في سنة ١٩٠٧ .

(٣) قال شلر رأيه في المادة الأولى في كتابه (المذهب الإنساني) الذي نشر في سنة ١٩٠٣ وقال جيمس رأيه في (هل للشعور وجود) ، و (عالم التجربة الأصيلة) (وهما أساس التجريبية الأصيلة) في سنة ١٩٠٤ .



من كتبه . ولا يرى خلافاً بين الاتجاهين البرجماتي والإنساني من حيث إنهما منهجان أو نظريتان في المعرفة ، واعتبرهما مترادفين على هذا الأساس .

إن القارئ لشار ليلحظ مدى اهتمامه الشديد بنظرية المعرفة فراه يتساءل دائماً : ما القضية الصادقة ؟ وكيف نحكم على قضية بأنها صادقة ؟ وكيف نميز بين الحقائق الصحيحة ومجرد الدعاوى التي قد تصبح خاطئة ؟ ويجب شار بقوله : « متى أعلنت قضية عن نفسها بأنها صادقة فإن نتائجها يجب أن تستخدم دائماً في اختيار دعاوها ، وبمعنى آخر ما يتبع عن صدق القضية في المجال الإنساني هو هو صدقها الحقيقي وقوتها المنطقية<sup>(١)</sup> وهو لا ينسى أن يشير إلى مبدأ بيرس البرجماتي ويعلن أنه المسلمة الكبرى .

وإذا جاء شار ليعرّف الصدق عرفه التعريف البرجماتي الذي قال به جيمس لكنه يضيف إليه العنصر الإنساني . يرى شار أن القضية صادقة إذا كان لصدقها نتائج عملية . ومعنى النتائج العملية أن يكون للصدق مقام ومركز وقيمة لصالح الإنسان ومنافعه ، والميدان الذي يجد فيه الإنسان نتائج عملية للأفكار مما يحقق مصالحه ومنافعه ميدان التجربة . و ل « شار » رأى في معنى التجربة أذكره في حينه . يرى شار أن الصدق والتجربة شيان متضايقان أي أن معيار الصدق لفكرة ما هو إلا محاولة عملية يقوم بها الإنسان في عالم التجربة وقد تنتهي بفوز أو بفشل وفي كلتا الحالتين يكون للتجريب العملي قيمة كبرى .

وإن كان الصدق متضايفاً مع التجربة عند شار فإنه مرادف للتحقيق . إذ تثبت الفكرة صدقها إذا أمكن تحقيقها تحقيقاً تجريبياً . أما إذا ادعيت أن قضية صادقة ، ولم تخضع للتحقيق تجريبى فإنك كاذب في ادعائك وليست صادقة بحال . « قل إن صدقها صدق بالقوة ، أن أنه لا معنى لها ، أو أن صدقها معتمد على شرط لم يوجد بعد »<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) Schiller, Studies in Humanism p. 5.

( ٢ ) Ibid : p. 8.

والتحقيق عند شلر معناه التطبيق، ومجال التحقيق أو التطبيق أى مجال الوصول إلى نتائج عملية من وراء صدق الفكرة هو مجال التجربة . ومغزى تطبيق الفكرة هو أن العمليات الحسية التى يبذلها الإنسان لاختبار صدق الفكرة تزيل ما بها من لبس وتظهر ما فيها من دلالة<sup>(١)</sup> .

ولكن لا زال معيار الصدق عند شلر غامضاً إذ لم تفهم بعد ما هى النتائج العملية أو النتائج المحققة بالتجربة أو النتائج التى وجدت لها تطبيقاً عملياً ؟ يجب علينا شلر بأن الصادق بالنسبة لإنسان هو ما يؤثر عليه فى سلوكه . وينبغى أن تسوقنى الفكرة إلى غرض ما . ينبغى أن يرتبط التطبيق بغرض ما . ولقد تعلم شلر من سيكولوجية جيمس أن كل الحياة العقلية موجهة لغرض . فقال من بعده إن النتائج العملية لفكرة ما هى نتائج لإنسان ما عن مسألة ما لغرض ما . — لا يقصد شلر أى نتائج ولكنه يريد أن تكون النتائج محددة وموجهة لغرض محدد<sup>(٢)</sup> .

والمعنى الدقيق لفكرة ما قائم على الاهتمام والغرض والرغبة والانفعال والهدف ونحو ذلك .

وكما أساء الناس فهم النتائج العملية للفكرة عند جيمس أساءوا فهمها عند شلر بحيث اعتبروا شلر موجهاً للأفكار نحو غايات نفعية فى حياة الإنسان اليومية . لا أبرئ شلر من ذلك لكنه لم يكن كل قصده . وإنما كان يقصد أولاً وضع منهج للتفكير الفلسفى والعلمى . يقول شلر :  
« إن الصدق قيمة وله علاقة بغرض . . . أى غرض لأى إنسان يهتم ، بأنه عملية عقلية »<sup>(٣)</sup> .

ويقول أيضاً : « الصدق ما كان نافعاً فى بناء العلم والبطلان ما كان عديم

( ١ ) قارن ذلك بما قاله بيرس فى معيار وضوح الفكر عن طريق العمليات الحسية لأنها بذلك ستجعل تحقيق الفكرة عاماً ممكناً لأى إنسان .

( ٢ ) قارن ذلك بتفسير جيمس لكلمة عملى Practical وأعلن أنها مرادفة لكلمة محدد Particular

( ٣ ) Schiller, Studies in Humanism p. 152.

النفع لهذا الغرض . والعلم صحيح إذا أمكن استخدامه لكى يلائم حياتنا وإلا فليس علماً»<sup>(١)</sup>.

ويقول : « لكى نحدد الجواب الصادق أو الخاطئ لأى سؤال يكفيننا أن نلاحظ أثره على البحث الذى نحن مشغولون به ونلاحظ علاقة ذلك بما ينشأ عن ذلك البحث . فإذا كانت هذه الآثار نافعة كان الجواب صادقاً وحسناً لغرضنا ومفيداً كوسيلة لهدف ننشده »<sup>(٢)</sup>.

تبين مما سبق أن معنى الصدق واحد عند جيمس وشرل وأنه يعنى النتائج العملية للفكرة واتفقا فى تصور ( العملية ) ولكنهما اختلفا فى العرض والألفاظ التى رآها كل منهما وافية بمقصده . كانت فكرة قابلية الفكرة للعدل والتطبيق أقنوم الصدق عند جيمس بينما كانت فكرة الأغراض الإنسانية أقنوم الصدق عند شرل .

### المذهب الإنسانى :

ضرورة إدخال عنصر الغرض الإنسانى فى الصدق يمهّد السبيل لفهم ( المذهب الإنسانى ) عند شرل أو المذهب البرجماتى عنده حيث هما منهجان أو نظريتان فى المعرفة كما نقلت .

يعرّف شرل المذهب الإنسانى بأنه إدراك أن المشاكل الفلسفية تهتم بالإنسان الذى يهتم بدوره بإدراك عالم التجربة الإنسانية<sup>(٣)</sup> . ومعنى التعريف أن الفلسفة الكاملة هى التى تهتم بطبيعة الإنسان المتكاملة ، وأن هذه الطبيعة الإنسانية هى المقدمة الكبرى التى يجب أن يهدف إليها الفلسفة . أولى المشاكل الفلسفية ينبغى أن تكون مشاكل الإنسان وبذا تصبح المعرفة موجهة نحو تحقيق أغراض الإنسان وقد بينت أن المقصود بأغراض الإنسان هو أن تكون هدف الأفكار .

Ibid., p. 154. ( ١ )

Ibid. ( ٢ )

Ibid : p. 12. ( ٣ )

لا تصبح الأفكار تأملات وإنما موجهة نحو منفعة محددة سواء في بناء العلم والمعرفة النظرية أو في تلبية رغبات الإنسان وتحقيق أهدافه .

ولن ينقلب شلر ذاتياً في المعرفة . إنه لا يرى مانعاً أن تبدأ المعرفة ذاتية ، وإذا كانت هذه المعرفة صادقة بالمعيار الذي ارتآه ، فإنها ستنتشر بين الناس ، وتعم على أنها حقائق ؛ فإن عمت ارتفعت على ما بها من ذاتية وأصبحت موضوعية<sup>(١)</sup> .

ولقد دافع وليم جيمس عن شلر في مسائل كثيرة منها اتهامه بالذاتية . يقول جيمس :

« . . . يقول فيلسوف المطلق [رداً على شلر] : ما الذي يجعلك تتحمس للصدق الذي تخلقه أنت؟ لو أتبعنا المنهج البرجماتي وتساءلنا ؛ ما الحقيقة التي يمكن معرفتها ؟ وكيف تتصل الحقيقة بأشياء محسوسة ؟ سنجد الجواب : الصادق ما هو ثابت راسخ ، وما هو مفيد نافع ، وما يوثق به ويعتمد عليه ، وما يُعول عليه ويقبل التحقق ، وما هو حقيقي بمعنى ماله قيمة عملية . وليس غير ذلك . فالذي لا أساس له وما هو معرض للفشل ، وما هو غث ولا يقف أمام التحقيق يستبعده المذهب البرجماتي . .

ومن يعترض علينا حين نقول : (الصدق هو ما أشعر أنه صدق) نقول له : سنوافق على هذا التعريف إذا أصررت . سنشعر بأن الصدق كذلك ، وسنريدك على القول بذلك أيضاً ، وسنظل نقول حتى تقبلوه جميعاً . فما التناقض في هذا ؟ إن هذا يدل على أن المذهب الإنساني لا يهمل الصفة الموضوعية في الصدق<sup>(٢)</sup> .

(١) نفس المصدر ص ١٥٥ . وهذه الفكرة هي جوهر دفاع شلر عن بروتاجوراس ورده على ما يقال إن (الإنسان معيار الإنسان) مبدأ ذاتي .

(٢) جيمس : معنى الصدق ص ٧٤ - ٧٦ .



### ميثافيزيقا التعدد عند شلر :

ونظرية شلر الإنسانية في الصدق قائمة على نظرية إنسانية أخرى في تصور الوجود . يرى شلر أن الإنسان هو صانع الصدق وأنه كذلك صانع الوجود ونظرية الميثافيزيقية تعددية مثل نظرية جيمس . ولقد استهزأ الناس بشلر حين قال إن الإنسان صانع الوجود ونخالقه وكان استهزاؤهم له سوء فهم لمذهبه . ومن غير المعقول أن يعتقد شلر أن الإنسان خالق الوجود . بل إنه سلم بالمذهب الواقعي في المعرفة وهو أن العالم المادى مستقل عن الإنسان سابق في وجوده عليه . ثم يقول إن الوجود كما نعرفه ناقص يحتاج منا إلى فعل لإتمام ما به من نقص — هذا ما عني به شلر في فكرة خلق الإنسان للعالم . — وهذا يسوقنا إلى تصور شلر للعالم أو تصوره للتجربة .

يقول شلر إن الواقعة — بأوسع معانيها — هي ما يقع تحت التجربة وبذلك يشمل هذا التعريف الخيالات والأوهام والأخطاء والتخليط . ومن هنا كانت الواقعة سابقة على التمييز بين ما هو ظاهر وما هو حقيقة . ولكي نفهم الواقعة ينبغي أن نسميها الوجود الأول Primary Reality <sup>(١)</sup> وهو السابق على كل وجود جزئي . إن هذا العالم الذى نعيش فيه أشبه شئ بالوجود الأول ويجب علينا أن نغيره وأن نعدل ما به وأن ندخل عليه إضافات من صنعنا حتى نستطيع الحياة فيه . يقول شلر : « لم نصنع الوجود لكننا وجدناه وحين رأيناه وجدناه غير كاف وبدأنا نعمل فيه . إن الوجود كما هو أمامنا عماء لادلالة له . وهو المادة الخام فى الكون » <sup>(٢)</sup> ويتصور شلر أن هذا العالم محتاج إلى مجهود منا وبدون هذا المجهود لن توجد وقائع بالنسبة لنا . ويعتقد أننا بإضافاتنا هذه ، نصنع العالم وبصناعتنا هذه نصنع الصدق . ومعنى ذلك أن المعرفة الإنسانية موجهة لأغراض الإنسان ويجب أن يكون العالم مجال تحقق هذه الأغراض

( ١ ) الوجود الأول عند شلر هو التجربة الأصيلة عند جيمس ولكن بينما جعل شلر فكرته بداية لصناعة ما يخدم الإنسان فى الكون ترى جيمس يجعلها نقطة بداية لرفع التمييز بين الشعور والعالم .

( ٢ ) شلر : دراسات فى المذهب الإنسانى ص ١٨٧ .

وذلك بأن نجعله موضع اهتمامنا ورغباتنا وأهدافنا . وإذن فمعرفتنا له معناها البحث فيه للوصول إلى وقائع تحقق ما لنا من رغبات وأغراض . وبذا نكون خالقين لمعرفتنا ولوجودنا .

### تبرير الاعتقاد الديني عند شلر :

أعجب شلر بإرادة الاعتقاد لوليم جيمس ، واعتقد بالمصادرة القائلة بأن من الممكن الاعتقاد بأشياء لم نستطع أن نبرهن بالعقل على صدقها ، ولكن طبيعة الإنسان تقبلها . واتخذها وسيلة لتبرير الإيمان . ولكن شلر بحث في الإيمان بحثاً جديداً أضاف إضافات إلى أفكار جيمس الاعتقادية .

أعلن شلر أن العقل ليس ملكة ، وإنما يقوم مقام عادات اكتسبها الناس من قديم ، ووجدوا لها نفعاً أكيداً في سلوكهم الناجح في الحياة : فكان الأحكام أو الأفكار ما هي إلا حيلة صناعية أقامها الإنسان للتكيف مع التجربة . وينتقل شلر من ذلك إلى القول بأن الفكر ينطوي على استخدام تصورات ومبادئ مثل الذاتية وعدم التناقض . وكان ينظر إليها على أنها بديهيات ضرورية ولكنه يرى أنها مصادرات : بمعنى أن الفكر وصل إليها لا بطريق قبلي ، وإنما وصل إليها بحكم تكيفه مع البيئة وبفضلها . وهذا يتضمن أن مصدرها التجربة . وإذن فلا توجد بديهيات وإنما توجد مصادرات . وبمعنى آخر لا توجد ضروريات وإنما توجد فروض أوحى بها التجربة وقبلناها ولكن لم نستطع أن نبرهن على صدقها . وبالرغم من ذلك فلها قيمة عملية في سلوكنا .

إن التفكير إذن قائم على مصادرات . والمصادرات لم تخضع لبرهان وإنما موضوع إيمان . ومن هنا أصل إلى تعريف شلر للإيمان الديني . يقول : « الإيمان اعتقاد بشيء أنت تعلم أنه غير صادق ، أو الإيمان موقف عقلي يمكننا من الاعتقاد بأشياء مرغوب فيها قبل أن نبرهن عليها ، مع وجود الأمل في أن هذا الموقف قد يمكننا من تحقيقها . . . إن الإيمان موقف للإرادة وليس كل العقل ؛ وبذا يتضمن المخاطر . ويلزمنا أن نحقق الإيمان ، ويكون ذلك بالوصول

إلى نتائج عملية<sup>(١)</sup> ويفسر شلر ذلك بأن واجب الإنسان افتراض صدق الإيمان والسلوك بمقتضى هذه الفروض والمصادرات .

ويتخذ شلر نفس طريقة جيمس في الثورة على أعداء الدين بقوله إن فروض الدين كفروض العلم : إن العالم يسلك كما لو كان فرضه صحيحاً انتظاراً لتحقيقه . والمؤمن لم يفعل أكثر من ذلك إذ يسلم بفروضه وينتظر نتائجها العملية . وكل الخلاف بين العالم والمؤمن هو أن تحقيق الغرض العلمى يتم في وقت أقصر من تحقيق الغرض الدينى<sup>(٢)</sup> .

### المذهب الإنساني في أمريكا :

وكما تلقى جيمس مبدأ پيرس البرجماتي ، وحوله لأغراض خلقية ودينية وتربوية كذلك تلقى الأمريكان المذهب الإنساني وجعلوه اتجاها دينيا فقط على نسق ( ديانة الإنسانية ) لأوجست كونت لدرجة آذت شلر وجعلته يقول إن مذهبه الإنساني نظرية في المعرفة فقط .

ولقد صيغ المذهب الإنساني في أمريكافى (بيان الإنسانيين) A Humanist Manifesto ونشر في سنة ١٩٣٣ وأمضاه كثيرون<sup>(٣)</sup> وتضمن البيان نقطا كثيرة أذكر أهمها .

- ١ - الكون موجود بذاته وليس مخلوقاً .
- ٢ - الإنسان جزء من الطبيعة وهو نتيجة عمليات مستمرة فيها .
- ٣ - لاثنائية بين العقل والبدن وأن النظرة العضوية إلى الحياة نظرة صادقة .
- ٤ - ثقافة الإنسان الدينية ليست إلا نتاج التطور التدريجى الناشئ من التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية والوراثة الاجتماعية .
- ٥ - لا تقبل طبيعة الكون أى ضامن فائق على الطبيعة للقيم الإنسانية .
- ٦ - لقد ولى الزمن الذى كان يعتقد الناس فيه بالدين وبالله .
- ٧ - يتركب الدين من الأفعال والتجارب والأهداف التى لها دلالات

( ١ ) Schiller, Studies in Humanism pp. 35-8.

( ٢ ) Ibid : pp. 358-364.

( ٣ ) أمضى البيان E.A. Burt و جون ديوى و J.H. Randall و Sellars وغيرهم .

في نظر الإنسان ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادى .

٨ — أن التحقيق التام للشخصية الإنسانية هدف الإنسان .

٩ — يُعبر عن الانفعالات الدينية بالإحساسات الشخصية والجهود الجماعية التي تحقق الرفاهية الاجتماعية .

١٠ — لا توجد إذن انفعالات دينية ومواقف للناس تربطهم بوجود خارق للطبيعة<sup>(١)</sup> .

### ب — جون ديوى<sup>(٢)</sup>

جون ديوى عملاق من عمالقة الفلسفة المعاصرة بلا نزاع . وتشهد بذلك مؤلفاته التي قد لا تدخل تحت حصر سواء في عددها وفي تنوع الموضوعات التي خاضتها . وإن مقارنة بسيطة بينه وبين زميله برتراند رسل الذي يقال إنه ضرب الرقم القياسي في كثرة التأليف ، تجعلنا نحكم أن ديوى أكثر تأليفاً ، بل أشد عمقاً وأصالة في بعض الموضوعات<sup>(٣)</sup> .

W.H. Werkmeister : A History of Philosophical Ideas In America. (١)

Ronald Press. Co. N.Y. 1949. pp. 5800-1.

(٢) ولد ديوى في برلنجتون Burlington بولاية فرمونت Vermont سنة ١٨٥٩ ( تلك السنة التي ظهر فيها أصل الأنواع لدارون ، وتلك السنة التي كان يناهز وليم جيمس العشرين من عمره ؛ وكان يضع تشارلز بيرس في هذه السنة النتائج الميتافيزيقية والمنطقية لنظرية التطور في الوقت الذي كان كل العلماء عاكفين فقط على النتائج الطبيعية والبيولوجية للنظرية ) . ودخل ديوى جامعة فرمونت وهو في السادسة عشرة . ولما أخذ إجازتها درس في المدارس الثانوية ثلاث سنين ، دخل بعدها جامعة جونز هوبكنز كمعيد للفلسفة حيث كان بيرس أستاذاً هناك . ونال الدكتوراه في الفلسفة من هذه الجامعة سنة ١٨٨٤ . وأصبح ديوى أستاذاً للفلسفة في جامعة شيكاغو سنة ١٨٩٤ . واستطاع أن يؤسس في شيكاغو مدرسته التجريبية المشهورة التي كان لها الفضل في خلق آرائه التربوية الأصيلة . وأصبح ديوى أستاذاً للفلسفة في جامعة كولومبيا سنة ١٩٠٤ وظل هناك حتى اعتزل الخدمة في سنة ١٩٣٠ . ومات ديوى في أول يونيو سنة ١٩٥٢ .

(٣) كتب رسل في موضوعات التربية والتعليم هاوياً معتمداً على قراءاته في علم النفس وخبرته العملية . أما ديوى فكتب في التربية محترفاً واضعاً لها مبادئها وأصولها وأفكارها الجديدة التي ترتبط دائماً باسمه .



وجون ديوى عملاق أيضاً لأنك تجد من العسير صياغة فلسفته فى قضايا قصيرة موجزة : لقد كتب وألف مدة خمسين عاماً أو تزيد<sup>(١)</sup>. واقتضى ذلك منه أن تتطور أفكاره على مر الزمن ، بالإضافة إلى أنك قد تقف أحياناً على تفسيرات متعددة لاتجاه بعينه وتتردد أى التفسيرات يعبر عن الرجل . كان ديوى قد بدأ حياته متشيعاً لمذهب هيغل مدافعاً عنه ؛ ولكنه عاد فأنكره بعد حين ، أو وجهه وجهة أخرجه من محتواه الأصيل . وكذلك أعلن أول مرة إنكاره لكل ميتافيزيقا ، ثم عاد فأثبتها على نحو معين . ولقد تكلم ديوى كثيراً عن أصالة الفكر الإنسانى ووظيفته الأساسية الخالقة فى المعرفة كما تكلم كثيراً أيضاً فى أصالة الواقع واعتباره المصدر الوحيد للمعرفة بحيث نتردد أيهما جوهر فلسفته . وهكذا .

أما إذا حددت نفسى بالاتجاه البرجماتى عند ديوى دون العناية بالنظريات الفلسفية الأخرى له ، فيمكن التمهيد لهذا الاتجاه بقضايا موجزة .  
بمن تأثر ديوى ؟

قلتُ إن ديوى آمن بأفكار هيغل الميتافيزيقية فى بداية حياته الفلسفية ، علمه هيغل أن الواقع عملية Process تنتهى إلى غاية هى الوصول إلى الوجود المطلق ، وأن مطلب الإنسان وسعيه نحو الحقيقة جزءٌ من أداء هذه العملية ، وعلمه أيضاً أن الحقيقة التى يبحث عنها الإنسان فى تطور ونمو ، وأن غايته الوصول إلى المطلق أى مطابقة الفكر لعقل خالد منذ البداية .

ولكن ديوى كان - بالإضافة إلى ميوله المطلقة - ذا روح علمية تجريبية إذ كان يعتقد أن مناهج العلوم الوضعية ينبغى أن تكون أساس البحث الفلسفى ولذلك ثار على فلسفة هيغل المطلقة أولاً بين ما فيها من أسس وما وصل العلم إليه من نتائج : أخذ من هيغل أن الواقع عملية وأن الحقيقة التى يهدف إليها الإنسان متطورة . وأنكر عليه أن الواقع يتجه إلى مطلق وأن الحقيقة

(١) أول كتب ديوى هو Psychology ونشر سنة ١٨٨٧ وآخر كتبه The Theory of

الإنسانية تطابق حقيقة مطلقة خالدة — بل أعلن ما هو أكثر من ذلك إذ يقول إن الوجود ليس نسقاً ثابتاً وليس نسقاً على الإطلاق وإنما هو جملة من الأشياء المتغيرة التي تنمو وتتطور على الدوام .

وتأثر ديوى بدارون ونظريته التطورية في البيولوجيا كما تأثر بمذهب هيغل . اقتنع ديوى أن البيولوجيا ينبغي أن تكون أساس العلوم والبحث الفلسفي ، فبدلاً من النظر إلى أساس رياضي أو ميتافيزيقي للمعرفة يجب اتخاذ البيولوجيا أساساً لنظرية المعرفة ؛ ولم يعد الإنسان — في رأيه — كائناً مفكراً ، بقدر ما هو كائن بيولوجي وظيفته التكيف بل هو هدفه . ومقولات هذا الهدف ينبغي أن تكون التفكير الكائن العضوي والبيئة والتطور والملاءمة .

ولقد انتفع ديوى بنظرية التطور لدارون وبمبادئ علم النفس لوليم جيمس في الوصول إلى نظرية تطورية للعقل الإنساني حين رأى أن العقل ليس جوهرًا ممايزاً للبدن ، وإنما العقل وظيفة ، أو موجة لغرض ، ومحقق لهدف هو تحقيق التكيف البيولوجي ، وأنه وسيلة للإنسان في الملاءمة بينه وبين ما حوله من بيئات . فإذا أضفت إلى تأثير هيغل ودارون وجيمس معاصرتة لپيرس<sup>(١)</sup> وقبوله للمعيار البرجماتي في الصدق أمكنني أن أرى تلك المؤثرات مدخلا لفهم فلسفة ديوى .

### مذهب الوسائليّة Instrumentalism عند ديوى :

عدل ديوى عن استخدام الكلمة براجماتزم واضعاً كلمة أخرى هي ( مذهب الوسلية ) ليشير إلى اتجاه برجماتي خاص به .

والحق أن مذهب الوسلية ليس مذهباً بقدر ما هو منهج ارتآه ديوى أساساً للمعرفة الصحيحة . ومن الملاحظ أن ديوى يمتاز على جيمس وشار بأنه وجه اهتماماً كبيراً للمنطق ، وصرح كثيراً بأنه يؤسس قواعد منطق تجريبي وأن

( ١ ) كان ديوى تلميذاً لپيرس في جامعة جونز هوبكنز وكان عضواً عاملاً في النادي الميتافيزيقي الذي ولدت فيه البراجماتزم . ويقال إن ديوى لم يأخذ فلسفة پيرس مباشرة من صاحبه . وإنما بدأ حياته الفكرية بالرجوع إلى فلسفة جيمس ، ثم الوصول إلى فلسفة پيرس من أستاذ آخر هو J.S. Morris وبعد ذلك رجع إلى كتب پيرس نفسه .

بداية عمله هي إنكار أى قاعدة أو أى مبدأ قبلى وينبغى أن تشتق كل القواعد والمبادئ المنطقية من التجربة ، أو من تفاعل الإنسان مع البيئة .

وبهذا يمكننا فهم مقصد ديوى الوسلى . يقول ديوى : « الوسلية محاولة لتأليف نظرية منطقية دقيقة فى التصورات والأحكام والاستدلالات فى صورها المتنوعة ، بالانتباه أولاً إلى وظيفة الفكر فى تحديد النتائج المستقبلية تحديداً تجريبياً . ومعنى ذلك . . أن المذهب الوسلى ليس نظرية فى هذا الحكم أو ذاك الجزئى المرتبط بمادته الخاصة ولا بما يتضمنان من أشياء جزئية ، وإنما هو تأسيس نظرية فى الصور العامة للأفكار والاستدلالات (١) .

ومن هذا يمكن فهم مذهب ديوى البرجماتى وهو مذهب منطقى يهدف إلى تحديد تحديد النتائج المستقبلية للأفكار .

ولكى يمكن فهم هذا المذهب يصح أن أمهد له بأشياء :

#### ما البحث ؟ What is Inquiry

يعرف ديوى البحث بأنه التحويل الموجه فى تمييزاته وعلاقاته الأساسية لتحويل عناصر الموقف فى كل موحد . وبمعنى آخر « يهتم البحث بالتغيرات الموضوعية للأشياء الموضوعية » .

إن البحث عند ديوى ينشأ نتيجة تفاعل الإنسان مع البيئة — هذا التفاعل يمكن الإنسان من الوصول إلى مبادئ وقواعد من التجربة على أساسها يعمل . وظيفة هذه العملية التى يقوم بها العقل يسميها ديوى بالبحث . وبمعنى أوضح هو تلك العلاقة المتبادلة بين الكائن العضوى والبيئة .

#### ما العقل عند ديوى ؟

يعتقد ديوى أن الإنسان كائن بيولوجى متطور عن مراحل متدرجة من التكيف مع البيئة . واشتق ديوى من هذا الاعتقاد طبيعة المعرفة فرأى أنها ما

يكيف الإنسان للبقاء . وبذا يصبح التفكير وسيلة بيولوجية لتحقيق التكيف أو يصبح العقل هو القدرة على التكيف في المواقف الجديدة<sup>(١)</sup> — هذا ما تعلمه ديوى من دارون . وتعلم ديوى من جيمس أن العقل ليس مجرد متفرج Passive Spectator عما يدور بالكون وإنما هو خالق نتائج معينة في هذا الكون — وهذه النتائج موضوعية وثابتة ومستمرة يمكن دراستها كسائر الوقائع التاريخية الموضوعية . بل لعل هذه النتائج أكثر دقة وبقينا وعن طريقها يعمل العقل<sup>(٢)</sup> .

وإذا أردنا أن نمتبع منشأ المذهب الواسلي عند ديوى رأيناها كامناً في فكرتين : فكرة قال بها وليم جيمس ، وأخرى نادى بها كثيرون . وعلى رأسهم بر دجمان P.W. Bridgman

أخذ ديوى من جيمس أن الأفكار الصادقة هي ما لها أثر على السلوك واستخدم جيمس هذا الأساس في حل مشاكل الدين والأخلاق فرأى أن الفكرة التي يؤدي الاعتقاد بها إلى تكيف الإنسان في حياته الدينية والعاطفية فكرة صحيحة . عتب ديوى على جيمس أنه حصر هذا الأساس في المجال الانفعالي فحسب — وأراد ديوى أن يسير بأساس جيمس إلى نهايته من وجهة منطقية .

يقول ديوى : « . . نرى أن جيمس كان ينظر إلى الأفكار والنظريات على أنها وسائل نافعة في تكوين الوقائع المقبلة بطريقة معينة . ولكن اتجه جيمس برأيه إلى المظاهر الخلقية لهذه النظرية — تلك التي سماها بالمليورزم Meliorism أو المثالية الخلقية . . . ولم يحاول أن يتقدم بنظرية كاملة في الصور والتراكيب للعمليات المنطقية المؤسسة على الأفكار<sup>(٣)</sup> .

(١) Bahm : Philosophy; An Introduction, Wiley, N.Y. 1953. p. 159.

(٢) Classic American Philosophers. Edited by M., Fisch.

Y. Appleton. Century Profit. p. 332.

(٣) ديوى : ( تطور البرجماتزم الأمريكية ) ص ٤٦٣ .



أما أخذ ديوى من الأستاذ بردهمان فهو المذهب الإجرائى <sup>(١)</sup> Operationism  
 وخلاصته أن معنى أى تصور قائم فى مجموعة من عمليات أو أن التصور ما  
 هو إلا مجموعة متسقة من الإجراءات .

هاتان الفكرتان وجهتا ديوى نحو القول بالمذهب الوسلى . أراد أن يجعل  
 الأفكار والنظريات وسيلة لمعرفة منطقية لا لعقائد عاطفية ، وأراد كذلك أن  
 يجعل كل قيمة الأفكار فيما وراءها من عمليات جزئية حسية ؛ وبمعنى آخر  
 أراد ديوى أن يجعل للفكرة نتائج عملية هى مجموعة من العمليات الجزئية ولذا  
 قال : « طبيعة الأفكار قائمة فى صورة عمليات تقوم بها وأن صحة الأفكار  
 تقاس بنتائج هذه العمليات <sup>(٢)</sup> » .

ومن هنا يمكن فهم نظرية الوسلية عند ديوى إذا ربطنا بين كل المؤثرات  
 السابقة :

الإنسان كائن يريد التكيف مع البيئة ، وأن عقله وأفكاره وسائل لتحقيق  
 هذا التكيف ، ولن يكون للفكر قيمة إلا إذا كان له نتيجة عملية ، ومعنى  
 النتيجة العملية أن تظهر عن صدق الفكرة عمليات جزئية حسية . وإذن فمقياس  
 الصدق فى الفكرة أو القضية — عند ديوى — هو أن تكون لها نتائج فى صورة  
 عمليات جزئية — أما هل يرى ديوى أن تلك العمليات ينبغى أن تكون فعلية

---

( ١ ) المذهب الإجرائى معناه القول بأن معنى أى تصور قائم فى مجموعة من العمليات الجزئية  
 والحسية وأن دلالة أى قضية كائنة فيها إذا كان يمكن اختبارها عن طريق عمليات جزئية تنطوى عليها .  
 من هنا يقول المذهب إن دلالة القضايا لا بد وأن تكون دلالة تجريبية دائماً . ويميز المذهب إذن بين  
 القضايا الصورية والتجريبية فالأولى تنقصها دلالات تجريبية وأن القضايا الثانية تكون صحيحة إذا  
 وجدت لها نتائج فى صورة عمليات حسية .

ولهذا المذهب ناحيتان : ناحية فى علم الطبيعة إذ يطيح بتصوير الزمان أو المكان على أنهما مطلقان  
 وإنه استغل نظرية النسبية فى إمكان تحديد عمليات حسية يمكن على أساسها قياس الزمان والمكان .  
 ولقد كتب بردهمان كتاباً عن صلة المذهب بالفيزياء الحديثة وعنه أخذ ديوى آراءه .

ومذهب الإجراء هذا له صلة بعلم النفس بل يوجد فرع فى علم النفس اسمه بعلم النفس الإجرائى  
 Operational Psy. وهو مرتبط ارتباطاً شديداً بعلم النفس السلوكى لواطسن .

في الحاضر أو ممكنة في المستقبل فأمر جدير بالبحث لأنه مصدر سوء فهم هذا المذهب عند ديوى وقبل ذلك يصح أن أمهد له .

لا يرى ديوى الفكرة التي لها نتائج عملية صادقة والتي ليست لها نتائج عملية كاذبة وإنما يسمى الأولى فكرة مرضية Satisfactory ، والثانية غير مرضية . أو فكرة حسنة وفكرة رديئة .

ويفسر ديوى كلامه هذا بقوله إن الأفكار وسائل لغايات — هي تحقيق تكيف الإنسان مع البيئة ؛ ويفهم ديوى البيئة بنوعها : الطبيعية والاجتماعية . يجب أن تكون الأفكار وسائل تكيفنا مع الطبيعة بمعنى إدراكها وفهمها وتوجيهها والتحكم فيها والسيطرة عليها .

أما معنى أن الأفكار وسيلة لتكيفنا مع البيئة الاجتماعية فهو أنها تؤدي إلى القيام بأهداف معينة والاستفادة منها ، وإذا نظرنا نظرة فاحصة سنجد أن تلك الأهداف صادرة عن المجتمع ذاته . فإذا حققت الأفكار هذه الغايات كانت مرضية وإلا كانت غير مرضية .

كأن ديوى يقول إن الفكرة مرضية إذا كانت نتائجها ملبية لحاجات الإنسان وغير مرضية إذا لم تحقق هذه الحاجات . وديوى لا يعترض على هذا التفسير ولكنه كان مثار اعتراضات كثيرة . أذكر اعتراض رسل على هذه النظرية لديوى في الصديق .

يقول رسل : « افرض أنك قلت لى : ( هل شربت القهوة مع طعام الافطار صباح اليوم ؟ لو كنتُ شخصاً عادياً سأحاول أن أتذكر . ولكن لو كنتُ تلميذاً لديوى فسأقول : انتظر لحظة يجب أن أحاول تجربتين قبل أن أخبرك . سأحاول أولاً أن أعتقد أنى شربت القهوة وألاحظ النتائج ثم أحاول أن أعتقد إنى لم أشربها وألاحظ النتائج . ثم أقارن بين المجموعتين من النتائج لأرى ما هي النتائج التي أجدها مرضية . فإذا فضلت مجموعة على الأخرى سأقرر الجواب . وإلا سأعترف أنه لا يمكن الإجابة على السؤال »<sup>(١)</sup> .

### سوء فهم مذهب الوسيلة :

ولقد كانت نظرية الوسيلة مثار سوء فهم من كثيرين إذ ربط الناس بين نتائج الفكرة العملية وبين التكيف وفهموا أن الوسيلة إذن هي أن الأفكار وسيلة لتكيف الإنسان مع الحياة اليومية .

وحين علم ديوى بذلك أعلن أن هذا التفسير سوء فهم لنظريته . إنه لم يكن يقصد أن الفكرة وسيلة لرضى أو تكيف ، وإنما يقصد أن تكون الفكرة وسيلة لأفكار أخرى فمذهب الوسيلة ينطوي في أساسه على النتائج المستقبلية للفكرة<sup>(١)</sup> — لا النتائج الراهنة .

« إن المذهب الوسلي نظرية لا عن الكفاية الشخصية وإنما عن موضوع العلم الحقيقي كما نجده في تعريفات الفيزياء<sup>(٢)</sup> . أو أن للمعاني قيمة دلالة بقدر ما لها آثار ونتائج على بعضها بعضاً ويؤيد ذلك أن ديوى حين يذكر كلمة (عملى Ptactical) يعنى بها أي نتائج دون أن يحددها بالنتائج البيولوجية أو الاجتماعية — أي نتائج تملكها الفكرة . كأن معنى (عملى) هو الإشارة إلى المستقبل فقط<sup>(٣)</sup> .

وهنا اختلف تفسير الفلاسفة للمذهب الوسلي : رأى البعض أن معناه أن الأفكار وسائل لتحقيق تكيف الإنسان مع البيئة ، وكتب ديوى نفسه مليئة بالنصوص المؤيدة لذلك . ورأى البعض أن معنى المذهب أن الأفكار والنظريات وسائل لأفكار ونظريات أخرى وذلك لكي يتم بناء العلم . ونصوص ديوى ناطقة بهذا المعنى أيضاً .

أرى أن حل الإشكال هو في الفحص عن مدى اعتقاد ديوى بنظرية

(١) قارن ذلك بقول بيرس : « ليس من الضروري أن يوجد المفسر (الدلالة) حالا وفي الوقت الحاضر وإنما يكفي أن يفسر يتم في المستقبل » . « *osmny m* » . ج ٢٠٢٠ . ٩٢٠

(٢) Werkmeister : A History of Philosophical Ideas In America p.555 .

Ibid. (٣)

الإجراء فإنه إذا كان ديوى معتقداً بها على نحو مطلق فإن ذلك يؤدي إلى الاعتقاد بأن مذهب الوسيلة مذهب يرى للأفكار نتائج جزئية حسية فعلية حاضرة لا مستقبلية لأن معنى العمليات الجزئية قائم في الوقت الحاضر ولا معنى للعمليات الجزئية في وقت مستقبل. أما إذا كان إيمان ديوى بنظرية الإجراء للعمليات الجزئية في وقت مستقبل . أما إذا كان إيمان ديوى بنظرية الإجراء ضعيفاً فإن معنى مذهبه الوسلي هو أن الأفكار عبارة عن بناء نسق العلم بعضها فوق بعض وأن بعضها وسيلة لبعض. وأن النتائج العملية للفكرة مترادف النتائج المحددة الجزئية التي يمكن أن ينشأ عنها بحث في المستقبل . وهنا يصل إلى اتفاق مع بيرس .





## مختارات من كتب وليم جيمس

ترجمة النص الأول :

### المنهج البرجماتي

إن المنهج البرجماتي - في أساسه - منهج يضع حدا للمناقشات الميتافيزيقية التي قد لا تنتهي بدونه . هل العالم واحد أم كثير ؟ مسير أم به حرية ؟ مادي أم روي ؟ إن أيا من هذه الأفكار تقال على العالم ، وقد لا تنتهي المناقشة في أمثال تلك الأفكار . يحاول المنهج البرجماتي في مثل تلك الحالات أن يفسر كل فكرة بمتابعة نتائجها العملية ؛ فمثلا ما الاختلافات العملية التي تحدث لفرد ما في حالة صدق هذه الفكرة أو تلك الفكرة ؟ فإذا لم يتمكن من الوصول إلى اختلاف عملي ، فالفكرتان تعنيان شيئاً واحداً من الناحية العملية ، وتصير كل مناقشة إذن عقيمة . حين نكون في مناقشة جادة ينبغي أن نكشف عن خلاف عملي لابد أن ينشأ عن صدق هذا الجانب أو ذاك .

وإن نظرة إلى تاريخ الفكرة لتظهرنا تماماً على معنى براجماتزم ؛ فاللفظ مشتق من كلمة يونانية بمعنى العمل ، ومن هذه الكلمة استخرجنا كلمات مثل « مران » و ( عملي ) . ولقد كان الأستاذ بيرس أول من استخدمها في الفلسفة عام ١٨٧٨ . فقد أشار في مقال عنوانه « كيف نوضح أفكارنا » إلى أن معتقداتنا إنما هي في الحقيقة قواعد للعمل ؛ ثم قال إنه لكي تتضح دلالة الفكر فإننا محتاجون فحسب إلى تحديد السلوك الملائم الذي ينشأ : إن السلوك هو الدلالة الوحيدة لدينا . إن الواقعة الواضحة في أعماق تمييزنا بين الأفكار - مهما كانت تلك الأفكار خفية المعنى - هي أنه لا يوجد تمييز فكري أدق وأوفى من أن يتألف من اختلاف ممكن في العمل . وللحصول على الوضوح

التام في أفكارنا عن موضوع فإننا محتاجون إلى الاهتمام فحسب بالآثار العملية الممكن تصور أن هذا الموضوع يتضمنها - أى ما الاحساسات التى نتوقعها منه ، وما الإستجابات التى يجب أن نجهز أنفسنا لها . إن فكرتنا عن هذه الآثار - سواء منها ما كان مباشراً أو بعيداً - هى بالنسبة لنا كل فكرتنا عن هذا الموضوع .

هذا مبدأ بيرس وهو المبدأ البرجماتى .

### النص الأول : من كتاب Pragmatism ص ٤٢-٤٣ . Pragmatic Method.

The pragmatic method is primarily a method of settling metaphysical disputes that otherwise might be interminable. Is the world one or many ? fated or free ? material or spiritual ? here are notions either of which may or may not hold good for the world; and disputes over such notions are unending. The pragmatic method in such cases is to try to interpret each notion by tracing its respective practical consequences. What differences would it practically make to anyone if this notion rather than that notion were true ? If no practical difference whatever can be traced, then the alternatives mean practically the same thing, and all dispute is idle. Whenever a dispute is serious, we ought to be able to show some practical difference that must follow from one side or the other's being right.

A glance at the history of the idea will show you still better what pragmatism means. The term is derived from the same greek word  $\pi\rho\alpha\gamma\mu\alpha$ , meaning action, from which our words practice and practical come. It was first introduced into philosophy by Mr. Peirce in 1878. In an article entitled 'How to make our ideas clear', Mr. Peirce, after pointing out that our beliefs are really rules for action, said that, to develop a thought's meaning, we need only determine what conduct it is fitted to produce : that conduct is for us its sole significance. And the tangible fact at the root of all our thought distinctions, however subtle, is that there is no one of them so fine as to consist in anything but a possible difference in Practice To attain perfect clearness in our thoughts of an object, then, we need only consider what conceivable effects of a practical kind the object may involve, what sensations we are to expect from it, and what reactions we must prepare. Our

Conception of these effects, whether immediate or remote, is then for us the whole of our conception of the object.

This is the principle of Peirce, the principle of Pragmatism.

## ترجمة النص الثاني :

### الاتجاه البرجماتى

يمثل المنهج البرجماتى إتجاهاً معروفاً فى الفلسفة تمثيلاً تاماً هو الاتجاه التجريبي . . . يتجاهل البرجماتى دائماً وبإصرار مجموعة من عادات راسخة لدى الفلاسفة المتخصصين عزيزة عليهم . إنه يبعد نفسه عن التجريد ، والنقص ، والحلول اللفظية ، والأسباب القبلية الرديئة ، والمبادئ الثابتة ، والمذاهب المغلقة ، وإدعاء مطلق أو مصادر أولى . ويتجه البرجماتى نحو ما هو فى متناول الحس ، ونحو الدقة ، والوقائع ، والفعل ، والقوة . إن ذلك يعنى أن للمزاج التجريبي نفوذه وسلطانه ، وأن المزاج العقلى قد ضعف وخارت قواه . . .

إننا نجد أن المنهج البرجماتى فى نفس الوقت لا يقدم نتائج معينة ؛ إنه منهج فحسب . . ليست له عقائد يقررها تقريراً حاسماً ، وليست له نظريات وليس غير منهج . إنه يقف وسط نظرياتنا — كما قال عنه الفيلسوف الإيطالى الشاب باپيني — كالممر وسط الفندق إذ يطل على عدد كبير من الحجرات قد تجد فى حجرة رجلاً يؤلف كتاباً فى الالحاد ، وتجد فى حجرة أخرى رجلاً راکعاً يطلب الإيمان والقوة ، وتجد فى حجرة ثالثة عالماً كيمائياً يبحث فى خصائص الأجسام ، وتجد فى حجرة رابعة من يعكف على مذهب فى الميتافيزيقا المثالية ، وفى خامسة من يكشف استحالة الميتافيزيقا . ولكل أولئك ذلك الممر ، ويجب أن يسيروا فيه جميعاً إذا أرادوا سبيلاً عملياً للدخول إلى حجراتهم أو الخروج منها .



لا يعنى المنهج البرجمائى إذن نتيجة خاصة ، لكنه مجرد اتجاه نتجه به : اتجاه بعيد عن الأشياء الأولى والمبادئ والمقولات ، وافترض الضرورة ؛ واتجاه إلى الأشياء القريبة ، والثمرات ، والنتائج ، والوقائع .

النص الثانى : من كتاب :

### **Pragmatic Attitude.**

Pragmatism represents a perfectly familiar attitude in philosophy, the empiricist attitude... A pragmatist turns his back resolutely and once for all upon a lot of inveterate habits dear to professional philosophers. He turns away from abstraction and insufficiency, from verbal solutions, from bad a priori reasons, from fixed principles, closed systems and pretended absolutes and origins. He turns towards concreteness and Adequacy, towards facts, action and power. That means the empiricist temper regnant and the rationalist temper sincerely given up...

At the same time it does not stand for any special results. It is a method only... It has no dogmas and no doctrines, save its method. As the young Italian pragmatist Papini has well said, it lies in the middle of our theories, like a corridor in a hotel. Innumerable chambers open out of it. In one you may find a man writing an atheistic volume; in the next some one on his knees praying for faith and strength; in a third a chemist investigating a body's propertieess In a fourth a system of idealistic metaphysies is being excogitated; in a fifth the impossibility of metaphysics is being shown. But they all own the coridor, and all must pass through it if they want a practicable way of getting into or out of their respective rooms.

No particular result then, but only an attitude of orientation, is what the pragmatic method means. The attitude of looking away from first things, principle, categories, supposed necessities; and of looking towards last things, fruits, consequences, facts.

ترجمة النص الثالث :

### التصور البرجماتي للصدق

الصدق خاصة لبعض أفكارنا كما يخبرك به أي معجم . ويعنى الصدق مطابقة تلك الأفكار للواقع ، كما يعنى الكذب عدم مطابقتها له . . . .  
ويتساءل المذهب البرجماتي تساؤله المألوف : « افرض أن فكرة ما أو اعتقاداً ما صادق ، فما الاختلاف المحسوس الذى يتركه صدقه فى الحياة الراهنة لإنسان ما ؟ وكيف نحقق هذا الصدق ؟ وما الخبرات التى قد تختلف عن تلك التى نحصل عليها فى حالة كذب الاعتقاد ؟ وباختصار ما القيمة الفورية التعاملية للصدق بالفاظ تجريبية ؟ » .

وحين يسأل المذهب البرجماتي هذا السؤال ، يكون جوابه أن الأفكار الصادقة هى ما يمكننا أن نتمثله ، ونثبت صحته ، وندعمه ، ثم نحققه . والأفكار الكاذبة هى ما لا يمكننا تمثله ولا إثبات صحته ولا تدعيمه وتحقيقه . ذلك هو الفرق العملى الذى تمنحه إيانا الأفكار الصادقة ، ولذلك فهو معنى الصدق ، إذ أنه كل ما نعرفه عنه . . .

وليس الصدق فى الفكرة خاصة راكدة ساكنة فيها ، ولكنه شىء يحدث للفكرة ، أى تصبح الفكرة صادقة : تصبح صادقة بعدد من الحوادث . إن صدقها فى الحقيقة حادثة أو عملية : عملية تحقيق ذاتها — عملية تحقيقها .

وللواقع معان فأما أن يكون المقصود به الوقائع المحسوسة ، أو أنواع الأشياء والعلاقات المدركة بين تلك الأشياء إدراكاً حدسياً ، ويقصد به فوق ذلك ثالثاً هيكل الحقائق الأخرى التى حصلنا عليها من قبل ، وهو مالا يكون اهتمامنا به أقل من اهتمامنا بأفكارنا الجديدة عن الأشياء . . . .

وجعل الفكرة نسخة ثانية من الواقع سبيل هام جداً لمطابقتها له ، ولكن

ليس ذلك هو الشيء الأساسي . إن الشيء الأساسي هو عملية تقودنا بها الفكرة . إن أى فكرة تعيننا على أن نتناول الواقع أو ما يحيط به — سواء كان ذلك عملياً أو ذهنياً — ولا تقف عائقاً في سبيل تقدمنا ، وتلائم حياتنا ، وتحقق تكيفنا مع تركيب الواقع كله — إن هذه الفكرة تطابق مطابقة مقنعة حاجاتنا وتلبها . ونسميها صادقة على الواقع .

من كتاب Pragmatism ص ١٣٢ — ١٤٠

### النص الثالث : Pragmatism's Conception of Truth. (I)

Truth, as any dictionary will tell you, is a property of certain of our ideas. It means their agreement, as falsity means their disagreement, with reality...

Pragmatism asks its usual question. "Grant an idea or belief to be true", it says, "what concrete difference will its being true make in any one's actual life ? How will the truth be realized ? What experiences will be different from those which would obtain if the belief were false ? What, in short, is the truth's cash-value in experiential terms ?"

The moment pragmatism asks this question, it sees the answer : True ideas are those that we can assimilate, validate, corroborate and verify. False ideas are those that we cannot. That is the practical difference it makes to us to have true ideas ; that, therefore, is the meaning of truth, for it is all that truth is known-as.

The truth of an idea is not a stagnant property inherent in it. Truth happens to an idea. It becomes true, is made true by events. Its verity is in fact an event, a process : the process of its verifying itself, its verification...

Realities mean either concrete facts, or abstract kinds of things and relations perceived intuitively between them. They furthermore and thirdly mean, as things that new ideas of ours must no less take account of, the whole body of other truths already in our possession.

... To copy a reality is one very important way of agreeing with it, but it is far from being essential. The essential thing is the process of being guided. Any idea that helps us to deal, whether practically or

intellectually, with either the reality or its belongings, that doesn't entangle our progress in frustration, that fits and adapts our life to the reality's whole setting, will agree sufficiently to meet the requirement. It will hold true with that reality.

### ترجمة النص الرابع :

#### التصور البرجماني للصدق ( ٢ )

نظريتي هي أن تم المعرفة بالتنقل خلال الخبرات المتوسطة ( التي تتوسط بين الذات والموضوع ) ، فإذا لم تؤد بنا الفكرة إلى شيء ما ، أو وجهتنا بعيداً عنه بدلاً من توجيهنا إليه فكيف يمكن أن نتحدث بأي حال عن حصولنا على أى صفة معرفية ؟ لا بكل تأكيد ، إذ أن الفكرة ترتبط بالموضوع الجزئي أكثر من صلتها بأي جزء آخر في العالم الطبيعي حين ترتبط بسلسلة الخبرات المتوسطة . تحدد هذه الحدود المتوسطة ما تسعى إليه وظيفة المعرفة المحدودة . إن الحدود النهائية — التي تقودنا إليها الأفكار والتي نخبرنا بمعنى موضوعها وبما تمنحنا إياه من نتائج — تحقق تلك الأفكار أو ترفضها . إن الخبرات المتوسطة إنما هي أساس لا غنى عنه لعلاقة محسوسة معرفية ، كلزوم المكان وسيطاً في علاقة المسافة ( بين الأشياء ) . وتعني المعرفة — حين نتناولها تناولاً حسيّاً — التنقل المحدد بين الوسائط : من حد أول نبدأ منه ( الفكرة ) إلى حد آخر ( الموضوع الجزئي ) تنتهي إليه . وكما أن الوسائط الجزئية مباينة للحددين الأول والأخير وترتبط بينهما بعلاقات رابطة مألوفة ( قد تكون تلك العلاقات خارجية وقد تكون منطقية كعلاقة التصنيف ) فإنه لا يبدو أن هنالك عنصراً فريداً في عمليات المعرفة . تقع كل تلك العلاقات في الخبرة .

وأنا مضطر إلى القول — مع ديوي وشر — بأن صدق الفكرة يحدده رضانا عنها وقبولنا لها . لكن الرضا والقبول لفظان ذاتيان ، كالفكرة ذاتها ، وينظر إلى الصدق عامة على أنه موضوعي . إن القراء الذين قبلوا أن الرضا



والقبول علامة وحيدة على الصدق قد لا يزالون يقولون أنى لم أهتم أبداً بالعلاقة الموضوعية القائمة بين الفكرة وموضوعها ، تلك التى تشير إليها كلمة الصدق . . . وأبدأ بأن أسأل المعارضين أن يحددوا بدقة ما يفهمونه حين يتحدثون عن حقيقة كاملة مطلقة موضوعية ، وسأتحدثهم إذن أن يكشفوا لى عن أى وضع يمكن تصوره لهذا النوع من الحقيقة يخرج عما وصفته . ستقع تلك الحقيقة تماماً فى مجال ما قلت من تحليل . . .

يجب أن يتم الصدق بين فكرة وواقع هو موضوع تلك الفكرة ؛ كما يجب أن يكون الصدق محمولا يطابق الفكرة ، لا موضوعها ؛ إذ أن الوقائع الموضوعية ليست صادقة ، أو فى مجال حديثنا الذى نقيده به أنفسنا الآن على الأقل . تلك الوقائع موجودات فحسب ، بينما الأفكار هى التى توصف بصدقها لتلك الموجودات . . . يبدو أعلى درجات الصدق المتصور قائماً فيما يؤدى بنا إلى ملاصقة وتداخل بيننا والموضوع ، أو قائماً فى تبادل الملاقاة والهوية . وهذا ما نفترض أنه يتخذ صورة الإدراك الحسى فى مجال الاعتقاد بما يقوله الذوق الفطرى . . . أنا أصادر هنا بطبيعة الحال على قيام واقع مستقل عن الفكرة الى تعرفه . وأصادر كذلك على أن الرضا والقبول ينشآن – على قدم المساواة – من قربنا من هذا الواقع واتصالنا به ؛ فإذا ما اعترض النقاد على الفرض الثانى فإنى أواجههم بالفرض الأول .

النص الرابع :

### Pragmatism's Conception of Truth (2)

My thesis is that the knowing here<sup>1</sup> is made by the ambulation through the intervening experiences. If the idea led us nowhere, or from that object instead of towards it, could we talk at all of its having any cognitive quality ? Surely not, for it is only when taken in conjunction with the intermediate experiences that it gets related to that particular object rather than to any other part of nature. Those intermediaries

determine what particular knowing function it exerts. The terminus they guide us to tell us what object it means, the results they enrich us which verify or refute. Intervening experiences are thus as indispensable foundation for a concrete relation of cognition as intervening space is for a relation of distance. Cognition, whenever we take it concretely, means determinate ambulation through intermediaries, from a terminus ad quo to, or towards, a terminus ad quem. As the intermediaries are other than the termini, and connected with them by the usual associative bonds (be these external or be they logical, i.e., classificatory, in character) there would appear to be nothing especially unique about the processes of knowing. They fall wholly within experience...

Like Dewey and Schiller, I have had to say that the truth of an idea is determined by its satisfactoriness. But satisfactoriness is a subjective term, just as idea is; and truth is generally regarded as objective. Readers who admit that satisfactoriness is our only mark of truth, the only sign that we possess the precious article, will still say that the objective relation between idea and object which the word truth points to is left out of my account altogether...

First, I will ask my objectors to define exactly what sort of thing it is they have in mind when they speak of a truth that shall be absolute, complete and objective; and then I will defy them to show me any conceivable standing-room for such a kind of truth outside the terms of my own description. It will fall, as I contend, entirely within the field of my analysis...

To begin with, it must obtain between an idea and a reality that is the idea's object; and, as a predicate, it must apply to the idea and not to the object, for objective realities are not true, at least not in the universe of discourse to which we are not confining ourselves, for there they are taken as simply being, while the ideas are true of them... The maximal conceivable truth in an idea would seem to be that it should lead to an actual merging of ourselves with the object, to an utter mutual confluence and identification. On the common-sense level of belief this is what is supposed really to take place in sense perception...

I am, of course, postulating here a standing reality independent of the idea that knows it. I am also postulating that satisfactions grows *pari passu* with our approximation to such reality. If my critics challenge this latter assumption, I retort upon them with the former.

(Meaning of truth pp. 141-159)

ترجمة النص الخامس :

### الخبرة الأصيلة

نظرتي هي أننا إذا بدأنا بافتراض أنه ليس هنالك سوى مادة أولية في العالم ، تتألف منها كل الأشياء ، وإذا سمينا هذه المادة الأولية بالخبرة الأصيلة – فمن اليسير إذن أن نفسر المعرفة على أنها علاقة محددة يمكن أن تنتمي إليها كل من عناصر تلك الخبرة . إن العلاقة ذاتها جانب من جوانب الخبرة الأصيلة ؛ ويصبح أحد طرفي تلك العلاقة الذات ، أو الذات العارفة ، حاملة المعرفة ، وطرفها الآخر الشيء المعروف . يحتاج ذلك منا إلى مزيد من التفسير حتى يكون مفهوماً .

. . . سيدرك القارئ ما أعنيه إذا استعان بخبراته الخاصة ، وليبدأ بخبرة الإدراك الحسى ، أو « مثول » شيء طبيعي في ميدان رؤيته الفعلية : أعني الحجرة التي يجلس فيها ، وهو يقرأ كتاباً أخذ عليه شعوره وانتباهه ؛ واجعله يتناول باديئ ذي بدء هذا الموضوع المعقد على طريقة الفهم المشترك ، أو كما يبدو ذلك الموضوع في الواقع – أقصد مجموعة من الأشياء الطبيعية اقتطعت من العالم المحيط بنا ، الحاوى على أشياء طبيعية أخرى ترتبط بتلك المجموعة بعلاقات فعلية أو ممكنة . ويتألف هذا الموضوع في نفس الوقت من تلك الأشياء عينا التي يدركها العقل إدراكاً حسياً .

. . . إن مأزق إمكان قيام حجرة واحدة بعينها في مكانين إنما هو نفس مأزق قيام نقطة واحدة على خطين ؛ ذلك ممكن ، إذا وضعت على نقطة تقاطعهما . كذلك إذا كانت الخبرة الأصيلة للحجرة مكان تقاطع عمليتين يربط بينهما ومجموعة الأشياء المتباينة المتصلة بها ، تعتبرها إذن حجرتين ، تنتمي كل منهما إلى مجموعتها ، ويمكن الحديث عن وجودها في المكانين بدقة ،

بالرغم من أنها ستبقى دائماً شيئاً واحداً في الكم .

للشيء الواحد علاقات كثيرة ببقية الخبرة التي نحيط فيها بنماذج مسئلة من الأشياء ، والتي نتناولها كما لو كانت ترتبط بنظم متقابلة متميزة . إن هذا الشيء يكون في ميدان شعورك في نظام ما ، ويكون الحجرة التي تجلس فيها في نظام آخر ؛ تدخل تلك الحجرة في شعورك في النظامين معاً ، ولا زعم هنالك بأنها تتصل بالشعور في جزء أو مظهر منها ، وتتصل بالواقع الخارجى بجزء آخر .

النص الخامس :

### Pure Experience

My thesis is that if we start with the supposition that there is only one primal stuff or material in the world, a stuff of which everything is composed, and if we call that stuff pure experience, the knowing can easily be explained as a particular sort of relation towards one another into which portions of pure experience may enter. The relation itself is a part of pure experience; one of its terms becomes the subject, or bearer of knowledge, the knower, the other becomes the object known. This will need much explanation before it can be understood.

... If the reader will take his own experiences, he will see what I mean. Let him begin with a perceptual experience, the presentation so called, of a physical object, his actual field of vision, the room he sits in, with the book he is reading as its centre; and let him for the present, treat this complex object in the common-sense way as being really what it seems to be, namely, a collection of physical things cut out from an environing world of other physical things with which these physical things have actual or potential relations. Now at the same time it is just those self-same things which his mind perceives.

... The puzzle of how the one identical room can be in two places is at bottom just the puzzle of how one identical point can be on two lines. It can, if it be situated at their intersection; and similarly, if the pure experience of the room were a place of intersection of two processes,



which connected it with different groups of associates respectively, it could be counted twice over, as belonging to either group, and spoken of loosely as existing in two places, although it would remain all the time a numerically single thing.

The one self-identical thing has so many relations to the rest of experience that you can take it in desparate systems of association, and treat it as belonging with opposite contexts. In one of these contexts it is your field of consciousness, in another it is the room in which you sit, and it enters both contexts in its wholeness, giving no pretext for being said to attach itself to consciousness by one of its parts or aspects, and to outer reality by another.

(Essays in Radical Empiricism, pp. 4-13)

### ترجمة النص السادس :

#### الوحدة والتعدد

إن فسرنا مذهب التعدد تفسيراً برجماتياً — وهو المذهب القائل بأن الوجود كثرة — فإن المقصود به أن الأجزاء المختلفة في الوجود قد ترتبط فيما بينها ارتباطاً خارجياً . إن لكل شيء يمكنك التفكير فيه — مهما كان هذا الشيء واسعاً شاملاً — مجالا خارجياً أصيلاً من نوع ما أو كم ما من زاوية التعدد ؛ إذ ترتبط بعض الأشياء ببعضها الآخر برابط المعية وبطرق عديدة ، لكن ليس هنالك من شيء يتضمن كل الأشياء أو يشملها ويستوعبها جميعاً ؛ إن كلمة « الإضافة » تلحق كل عبارة وتطاردها ، وقد تختفي بعض الأشياء دائماً . . . ولذلك يكون العالم التعددي أكثر شهاً بالجمهورية الاتحادية منه بامبراطورية أو مملكة . ومهما التفت أشياء عديدة بعضها ببعض ، ومهما قيل إن شيئاً ما حاضر في أى موقف من مواقف الشعور أو السلوك له أثره وأهميته فإنه لا تزال هنالك أشياء أخرى مستقلة ، وأشياء أخرى غائبة ولا يمكن ردها إلى الوحدة . . .

إن كل ما نبغى قبوله في تركيب الوجود — على أساس التعدد — ما نجده بأنفسنا متحققاً تحقيقاً تجريبياً في كل جزء صغير من أجزاء الحياة المتناهية . وباختصار لا شيء في الواقع بسيط البساطة المطلقة ، بل يرتبط كل جزء من أجزاء التجربة — مهما تنهى صغره — ارتباطاً متعددياً ، ويمكننا اعتبار كل علاقة على أنها مظهر أوسمة أو وظيفة أو سبيل — سبيل نتناول به أى شيء .

أما مذهب الواحدية فإنه على العكس من ذلك يجر كل شيء سواء نتحقق من وجوده أو لم نتحقق — كل الكون في ثناياه ، ولا يترك شيئاً مطلقاً : فإذا ما كان هنالك شيء غير مرتبط بآخر مرة ، فلن يرتبط به أبداً كما ترى الواحدية .

... ولن يبلغ الخلاف الذي أحاول أن أصفه — كما ترون — أكثر من خلاف بين ما سميته بصورة « الوجود كأشياء » ، وصورة « الوجود ككل » . يرى مذهب التعدد أن الأشياء في حقيقة الأمر إنما توجد في صورة الأجزاء أى توجد موزعة منفصلة متباعدة ، بينما ترى الواحدية أن الصورة الوحيدة المعقولة صورة الكل ، صورة الكل على أنه وحدة مجتمعة ، ولا تسمح هذه الصورة الكلية بالتقاط علاقة أو إسقاط أخرى ، لأن الأجزاء في الكل يتضمن بعضها بعضاً على نحو أساسى خالداً . أما في الصورة الجزئية للوجود فقد يكون الشيء مرتبطاً بشيء آخر ، من خلال أشياء متوسطة ، وليس ذلك الرباط أساسياً أو مباشراً ومن ثم يكون بين أجزاء الوجود علاقات ممكنة عديدة في كل وقت لم تتحقق في اللحظة الراهنة بالضرورة . إن تلك العلاقات تتوقف على الطريق الفعلى الذى تتبعه الوقائع الرابطة ، والذى توجهه فيه وظيفته : إن للكلمة « أو » وجوداً أصيلاً .

## Unity and Plurality

Pragmatically interpreted, pluralism or the doctrine that it is many means only that the sundry parts of reality may be externally related. Everything you can think of, however vast or inclusive, has on the pluralistic view a genuinely external environment of some sort or amount. Things are "with" one another in many ways, but nothing includes everything, or dominates over everything. The word "and" trails along after every sentence. Something always escapes... The Pluralistic world is thus more like a federal republic than like an empire or a kingdom. However much may be collected, however much may report itself as present at any effective centre of consciousness or action, something else is self governed and absent and unreduced to unity...

For pluralism, all that we are required to admit as the constitution of reality is what we ourselves find empirically realised in every minium of finite life. Briefly it is this, that nothing real is absolutely simple, that every smallest bit of experience is plurally related, that each relation is one aspect, character, or function, way of its being taken, or way of its taking something else.

For Monism, on the contrary, everything, whether we realize it or not, drags the whole universe along with itself and drops nothing. If a thing were once disconnected, it could never be connected again, according to monism.

... The difference I try to describe amounts, you see, to nothing more than the difference between what I called the eachform and the all-form of reality. Pluralism lets things really exist in the each-form or distributively. Monism thinks that the all-form or collective-unit form is the only form that is rational. The all-form allows of no taking up and dropping of connections, for in the all the parts are essentially and eternally co-implicated. In the each-form, on the contrary, a thing may be connected by intermediary things, with a thing with which it has no immediate or essential connection. It is thus at all times in many possible connexions which are not necessarily actualized at the moment. They depend on which actual path of intermediation it may functionally strike into : The word "or" names a genuine reality.

(A Pluralistic Universe, pp. 321-324)

## ترجمة النص السابع :

## « العاطفة الدينية »

نوجه اهتمامنا إلى العاطفة الدينية التي نرى أن كتباً كثيرة تشير إليها كما لو كان لها وجود من نوع خاص في الذهن ،

إننا نجد المؤلفين في سيكولوجية الدين ، وفلسفته ، يحاولون تحديد هذا الوجود على نحو دقيق . يوحد أحدهم بين العاطفة الدينية ووجدان الاتكال ، ويرى آخر أنها مشتقة من الخوف ، ويربط آخرون بينها والحياة الجنسية ، ولا يزال يرى فريق منهم أنها الوجدان باللانهاي ، وهكذا . إن مثل هذه الطرق المختلفة لتصوير تلك العاطفة ينبغي أن يثير الشك في مجرد إمكان قيام هذا الوجود الخاص . ونحن نريد فهم كلمة العاطفة الدينية على أنها « اسم مجموع » لعدد من العواطف التي قد تثيرها موضوعات دينية تتعاقب عليها ، نرى حينئذ أن المحتمل ألا تنطوي العاطفة الدينية على شيء أبداً ذي طبيعة نفسية معينة . هنالك الخوف الديني ، والحب الديني ، والرغبة الدينية ، والبهجة الدينية ونحو ذلك . ولكن الحب الديني ليس إلا انفعال الحب الطبيعي متجهاً من إنسان لموضوع معين ؛ وما الخوف الديني سوى الخوف المألوف — تلك الانتفاضة المعروفة في قلب الإنسان ، طالما تثيرها فكرة العقاب الإلهي . وما الرغبة الدينية إلا تلك الرغبة العصبوية التي نحس بها في غابة في سواد الليل ، أو في منحدر الجبل ؛ وتسيطر علينا حينئذ فكرة العلاقة الحارقة للطبيعة ؛ ويقال مثل ذلك على كل العواطف المختلفة التي قد تلعب دورها في حياة رجال الدين . إن الانفعالات الدينية أمور نفسية لها وجودها ، وتتميز عن بقية الانفعالات المحسوسة الأخرى — وهي جميعاً حالات محسوسة للعقل قائمة على الوجدان ، يضاف إليه موضوع معين . ولكن لا أساس لافتراض



وجود انفعال بسيط مجرد كوجدان عقلي أولى متميز بذاته ، قائم في كل خبرة دينية بلا استثناء .

وكما يبدو أنه ليس هنالك إنفعال ديني أولى ، وإنما مخزن عام من الانفعالات قد تستدعيها موضوعات دينية — كذلك لا نتصور إمكان إثبات وجود أى سلوك ديني أولى معين .

### النص السابع :

#### **Religions Sentiment.**

... Consider the religions sentiment which we see referred to in so many books, as if it were a single sort of mental entity.

In the psychologies and in the philosophies of religion, we find the authors attempting to specify just what entity it is. One man allies it to the feeling of dependence; one makes it a derivative from fear; others connect it with the sexual life; others still identify it with the feeling of the infinite; and so on. Such different ways of conceiving it ought of themselves to arouse doubt as to whether it possibly can be one specific thing; and the moment we are willing to treat the term "religious sentiment" as a collective name for the many sentiments which religious objects may arouse in alternation, we see that it probably contains nothing whatever of a psychologically specific nature. There is religions fear, religions love, religions awe, religions joy, and so forth. But religious love is only man's natural emotion of love directed to a religious object; religious fear is only the ordinary fear of commerce, the common quaking of the human breast, in so far as the notion of divine retribution may arouse it; religions awe is the same organic thrill which we feel in a forest at twilight, or in a mountain gorge; only this time it comes over us at the thought of our supernatural relation; and similarly of all the various sentiments which may be called into play in the lives of religious persons. As concrete states of mind, made up of a feeling plus a specific sort of object, religious emotions are psychic entities distinguishable from other concrete emotions; but there is no ground for assuming a simple abstract religious emotion to exist as a distinct elementary

mental affection by itself, present in every religions experience without exception.

As there thus seems to be no one elementary religions emotion, but only a common storehouse of emotions upon which religious objects may draw, so there might conceivably also prove to be no one specific and essential kind of religious act.

(Varieties of Religious Experience pp. 28 29)

ترجمة النص الثامن :

### الدين والسعادة

إذا ألقينا هذا السؤال : بم يهتم الإنسان في حياته اهتماماً أساسياً ؟ كانت إحدى الإجابات التي نتلقاها أنها السعادة . إن الدافع الخفي لكل ما يعمل أغلب الناس ، وما يرغبون في قبوله في كل زمن وعصر هو كيفية حصولهم على السعادة ، وسبيل المحافظة عليها ، وسبيل استعادتها . ولقد استخرجت مدرسة السعادة النفسية في الأخلاق الحياة الخلقية كلها من خبرات السعادة والشقاء التي تكشف عنها أنواع السلوك المختلفة . ويبدو أن السعادة والشقاء هما القطبان اللذان تدور حولهما رغبتنا واهتمامنا ، في الحياة الدينية أكثر منها في الحياة الخلقية . . . . .

وليس من الغريب أن يهتم الناس بالسعادة التي يقدمها لنا الاعتقاد الديني في ضوء تلك العلاقات القائمة بين الدين والسعادة ، كبرهان على صدقه . إذا شعر الإنسان بسعادة من وراء اعتقاد ما فهو مصدق لهذا الاعتقاد لا محالة ؛ وينبغي أن يكون هذا الاعتقاد صادقاً . ولذلك فإن صدقه — سواء كان حقاً أو باطلاً — من الاستدلالات المباشرة لمنطق الدين ، التي يستخدمها العوام . وتصم "السعادة أذنيها" ، كأى حالة انفعالية أخرى — عن الوقائع المناهضة كسلاح طبيعي تحمى به ذاتها من العبث بها ، وحين يشعر المصاب بالملنخوليا

بسعادته ، فلن يكون لفكرة الشر وجود ، ، أكثر من وجود فكرة الخير .  
وليس للشر وجود عند الرجل السعيد حقاً — كيفما كان سبب سعادته — ولا  
يعتقد به أبداً : إنه يتجاهل الشر ، بل ويبدو لمن يراه إنه يغمض عينيه عنه  
ويزدرية . . .

ويرجع أغلب ما نسميه شراً إلى السبيل الذي يأخذ به الناس الظواهر ؛  
فإنه يمكن لهذا الشر أن ينقلب خيراً قوياً بهيجاً ، حين يغير الإنسان اتجاهه  
النفسي تغيير بسيطاً من حالة الخوف منه ، إلى حالة كفاح ونضاله . سيزول  
ما في الشر من ألم ، وينقلب لذة حين نجتمع على مواجهته وأن نتحمله  
مسرورين ، بعد ما يكون من العبث أن نتجنبه . بل يزداد الإنسان شرفاً  
ومجداً حين يكون ذلك سبيل هربه من وقائع كثيرة بدت له أول الأمر باعثة  
الاضطراب في أمنه وسلامته . لا تعتقد أن بتلك الوقائع سوءاً ، واحتقر أن  
لها سلطاناً ، بل تجاهل وجودها ، ولا تعرها انتباهك ؛ فإن كان ذلك موضع  
اهتمامك على أى حال ، فإنه على الرغم من أن تلك الوقائع لا تزال قائمة ،  
غير أنك لا تجد صفة الشر فيها . ولما كان الشر شراً ، والخير خيراً ، بأفكارك  
الخاصة عنهما ، فإن اتجاه أفكارك هو الذى يثبت اهتمامك الأساسى

### النص الثامن :

#### Religion and Happiness

If we were to ask the question : What is human life's chief concern ? one of the answers we should receive would be : It is happiness. How to gain, how to keep, how to recover happiness, is in fact for most men at all times the secret motive of all they do, and of all they are willing to endure. The hedonistic school in ethics deduces the moral life wholly from the experiences of happiness and unhappiness which different kinds of conduct bring; and, even more in the religious life than in the moral life, happiness and unhappiness seem to be the poles round which the interest revolves...

With such relations between religion and happiness, it is perhaps not surprising that men come to regard the happiness which a religions

belief affords as proof of its truth. If a creed makes a man feel happy, he almost inevitably adopts it. Such a belief ought to be true; therefore it is true — such, rightly or wrongly, is one of the immediate inferences of the religious logic used by ordinary men...

Happiness, like every other emotional state, has blindness and insensibility to opposing facts given it as its instinctive weapon for self-protection against disturbance. When happiness is actually in possession, the thought of evil can no more acquire the feeling of reality than the thought of good can gain reality when melancholy rules. To the man actively happy, from whatever cause, evil simply cannot then and there be believed in. He must ignore it; and to the bystander he may then seem perversely to shut his eyes to it and hush it up...

Much of what we call evil is due entirely to the way men take the phenomenon. It can so often be converted into a bracing and tonic good by a simple change of the sufferer's inner attitude from one of fear to one of fight; its sting so often departs and turns into a relish when, after vainly seeking to shun it, we agree to face about and bear it cheerfully, that a man is simply bound in honor, with reference to many of the facts that seem at first to disconcert his peace, to adopt this way of escape. Refuse to admit their badness; despise, their power; ignore their presence; turn your attention the other way; and so far as you yourself are concerned at any rate, though the facts may still exist, their evil character exist no longer. Since you make them evil or good by your own thoughts about them, it is the ruling of your thoughts which proves to be your principal concern.

(Varieties of Religious Experience pp. 77-87)

### ترجمة النص التاسع :

#### تفسير جديد للعلاقة بين الإنسان والله

... الفكر والوجدان كلاهما محددان للسلوك ، فقد يحدد سلوكاً واحداً ووجداناً أو فكر . وحين نشغل بميدان الدين نجد صنوفاً كثيرة من الفكر عمت وشاعت ، لكن الوجدانات من ناحية والسلوك من ناحية أخرى شيء واحد دائماً ، حيث لا يمكن التمييز بين الحياة التي كان يحياها فلاسفة الرواقين



والقديسين المسيحيين والبوذيين من الناحية العمالية . ولما كانت النظريات التي تنشأ عن الدين متباينة ، فهي إذن ثانوية وفي المرتبة الثانية ، وإذا أردت أن تحيط بماهية الدين فينبغي أن تتجه صوب الوجدان والسلوك على أنها العناصر الأكثر ثباتاً ؛ وبين هذين العنصرين يقوم المحيط الذي يباشر فيه الدين عمله الأساسي ، بينما تكون الأفكار والزموز والتعاليم الأخرى . قد كونت شبه هيكل ما هو إلا تكملة وإدخال تحسينات ، وقد تأتلف يوماً ما في نسق متسق ، ولكن لا يمكن أن ننظر إليها كعناصر لا نستغنى عن وظيفتها ، وأنها ضرورية في كل وقت لاستمرار الحياة الدينية .

يبدو لي أن هذه أولى النتائج التي استنبطناها من الظاهرات التي مرت بنا فيما استعرضناه . . .

. . . يجب أن ننفذ بعد ذلك إلى ما وراء مجرد المنفعة الذاتية ، وأن نبحث في المضمون الذهني ذاته . ولنتساءل أولاً : هل هنالك عنصر عام في العقائد تتفق فيه اتفاقاً إجماعياً ، رغم ما بها من تباين ؟ وأجيب مباشرة عن ذلك بالإيجاب . إن الآلهة المتنازعين يبطل أحدهم أوامر الآخر ، كما يلغي دين صيغة الدين الآخر المختلف عنه ؛ لكن هنالك شيئاً متسقاً معيناً يبدو أن جميع الأديان تلتقي عنده :

١ - قلق واضطراب :

٢ - علاجه :

١ - يعني القلق والاضطراب - حين نرده إلى أبسط معانيه - أن فينا جزءاً خاطئاً إن نظرنا إلى أنفسنا نظرة طبيعية .

٢ - ويعني العلاج أننا ننقد أنفسنا من هذا الخطأ بأن نعقد صلة تقوم بيننا وقوى عليا . ويتخذ هذا الخطأ سمته الخلقية - عند تلك العقليات المتطورة التي ندرسها - كما يتخذ الخلاص صبغته الصوفية ؛ وأظن أننا نكون في موقف سليم في حدود ما تتفق فيه تلك العقليات جميعاً ؛ إذا وصفنا ماهية خبرتهم الدينية في الصيغة الآتية :

يشعر الفرد — من حيث أنه يعاني — كثيراً من خطئه ويعترض عليه — بأنه مجاوز لهذا الخطأ ، وأن في إمكانه أن تكون بينه وبينه شيء سام صلة ما ، إن كان هنالك شيء سام . وطالما أن هنالك جزء خاطئ في الإنسان ، ففيه إذن جزء طيب ، وإن لم يكن سوى عنصر قاصر عاجز ؛ وليس من الواضح في هذه المرحلة ( مرحلة القلق والاضطراب ) تحديد أيّ هذين الجزئين هو الوجود الحقيقي للإنسان ؛ ولكن حين نصل إلى المرحلة الثانية نجد أن الوجود الحقيقي إنما هو ذلك الجزء السامي الأساسي فيه . ويقيم ذلك على النحو التالي :

يبدأ الإنسان بشعوره أن جزءه السامي متحد متصل بشيء كبير من نفس طبيعته ، وله فعله وتأثيره في البكون خارجه . وأنه يمكن لهذا الجزء السامي أن يحفظ هذا الاتصال قائماً ، وأن يتسق مع هذا الشيء الكبير بطريقة ما ، وأن ينقذ نفسه في حالة ما يهلك الجزء الخاطئ ويصير حطاماً . . . . . هيا نقترح — كفرض — أن هذا الشيء الكبير — من هذا الجانب ، مهما كان من شأن جوانبه الأخرى — الذي نشعر في خبرتنا الدينية أننا مرتبطون به ، إنما هو استمرار لا شعوري لحياتنا الشعورية . . . . . ويبدو لي أن الحدود البعيدة من حياتنا إنما تنغمر في بعد آخر من أبعاد الوجود ، مباناً للعالم المحسوس الذي نفهمه . سم هذا الشيء الكبير المجال الصوفي أو المجال الحارق للطبيعة . إننا نتعلق به تعلقاً أوثق من تعلقنا بالعالم المحسوس — لأننا نتعلق التعلق الوثيق بما نتعلق به مثلنا العليا — طالما أن الدوافع المثالية فينا تصدر عن ذلك المجال .

النص التاسع :

#### **New Interpretation of the relation between man and god.**

Both thought and feeling are determinants of conduct, and the same conduct may be determined either by feeling or by thought. When we survey the whole field of religion, we find a great variety in the thought that have prevailed there; but the feelings on the one hand and the conduct on the other are almost always the same, for Stoic,

Christian, and Buddhist saints are practically indistinguishable in their lives. The theories which Religion generates, being thus variable, are secondary, and if you wish to grasp her essence, you must look to the feelings and the conduct as being the more constant elements. It is between these two elements that the short circuit exists on which she carries on her principal business, while the ideas and symbols and other institutions form loop-lines which may be perfections and improvements, and may even some day all be united into one harmonious system, but which are not to be regarded as organs with an indispensable function, necessary at all times for religious life to go on. This seems to me the first conclusion which we are entitled to draw from the phenomena we have passed in review...

We must next pass beyond the point of view of merely subjective utility, and make inquiry into the intellectual content itself.

First, is there, under all the discrepancies of the creeds, a common nucleus to which they bear their testimony unanimously ?... I answer it immediately in the affirmative. The warring gods and formulas of the various religions do indeed cancel each other, but there is a certain uniform deliverance in which religions all appear to meet. It consists of two parts :

1. An uneasiness; and
2. Its solution.

1. The uneasiness, reduced to its simplest terms, is a sense that there is something wrong about us as we naturally stand.

2. The solution is a sense that we are saved from the wrongness by making proper connection with the higher powers.

In those more developed minds which alone we are studying, the wrongness takes a moral character, and the salvation takes a mystical tinge. I think we shall keep well within the limits of what is common to all such minds if we formulate the essence of their religious experience in terms like these : —

The individual, so far as he suffers from his wrongness and criticises it, is to that extent consciously beyond it, and in at least possible touch with something higher, if anything higher exist. Along with the wrong part, there is thus a better part of him, even though it may be but a most helpless germ. With which part he should identify his real being is by no means obvious at this stage; but when stage 2 arrives, the man identifies his real being with the germinal higher part of himself; and does so in the following way : He becomes conscious that his higher part is conterminous and continuous with a More of the same quality,

which is operative in the universe outside of him, and which he can keep in working touch with, and in a fashion get on board of and save himself when all his lower being has gone to pieces in the wreck...

Let me then propose, as an hypothesis, that whatever it may be on its farther side, the More with which in religious experience we feel ourselves connected is on its hither side the subconscious continuation of our conscious life... The further limits of our being plunge, it seems to me, into an altogether other dimension of existence from the sensible and understandable world. Name it the mystical region or the supernatural region. So far as our ideal impulses originate in this region, we belong to it in a more intimate sense than in which we belong to the visible world, for we belong in the most intimate sense wherever our ideals belong.

(Varieties of Religious Experience pp. 494-506)





## قائمة بأهم المصطلحات الفلسفية الواردة في الكتاب

Transcendentalism	المذهب العقلي المتطرف	Effect	أثر
		Charity	إحسان
Epistemology	المعرفة	Indeterminism	اختيار
Automton-Theory	النظرية الآلية	Cognition	إدراك
Voluntarism	النظرية الإرادية	Concatenation	إرتباط
Realism	الواقعية	Will	إرادة
Instrumentalism	الوسيلة (ديوى)	Belief	إعتقاد
Faith	إيمان	Possibility	إمكان
Design	تدبير الكون	Revelation, Inspiration	إلهام
Telepathy	تجاوب الارواح	God	الله
Experience	خبرة	Agnosticism	اللا إرادية
Empiricism	تجريبية	Passive-Spectator	العقل مجرد ناقل
Radical Empiricism	تجريبية أصيلة	Independent Variable	المتغير المستقل
Verification	تحقيق	Idealism	المثالية
Mysticism	تصوف	Theism	المذهب المؤلة
Optimism	تفاؤل	Operationism	المذهب الاجرائي
Meliorism	تفاؤل خلقي	Intellectualism	المذهب الذهني
Application	تطبيق	Humanism	المذهب الإنساني
Plura'ism	تعددية	Spiritualism	المذهب الروحي
Dualism	ثنائية	Rationalism	المذهب العقلي

Theoretical	(فلسفة) نظرية	Determinism	جبرية
Practical	(فلسفة) عملية	Psychical Research Society	جمعية البحوث النفسانية
Common-Sense	فهم مشترك	Noetic quality	حالة إدراكية
Satisfaction	بول ورضا	Terminate	حد نهائي
Holiness, Saintliness	قداسة	Freedom	حرية
Uneasiness	قلق	Free-will	حرية الإرادة
Cash-Value	قيمة فورية تعاملية	Error	خطأ
Unseen Reality	عالم غير منظور	Impulse	دافع
Reason, Mind	عقل	Institutional Religion	دين سماوي
Practical	عملي	Motor-cue	دليل الحركة
Process	عملية	Intellect	ذهن
Relation-internal	علاقة — داخلية	Asceticism	زهد
-external	خارجية	Evil	شر
-conjunctive	واصلة	Consciousness	شعور
-disjunctive	فاصلة	Cosmic Consciousness	شعور كوني
Operational Psychology	علم النفس الإجرائي	Passion	شهوة
Theology	علم اللاهوت	Truth	صدق
Subconscious	ما وراء الشعور	Purity	صفاء
Materialism	ماديه	Prayer—	صلاة
Utility	منفعة أو فائدة	Activity	فاعلية (العقل)
Method	منهج	Speculative philosophy	فلسفة تأملية
Absolute	مطلق		

Reality	واقع	Working	نافع ( فرض )
Fact	واقعة	propensity	نزعة
Feeling	وجدان	Self	نفس
Transitions, Intermediaries	وسائط	Social	نفس اجتماعية
Work	ينجح	Spiritual	روحية
Pay	يفيد أو ينتج	Subliminal Self	النفس الكامنة
		Monism	واحدية





## مراجع الكتاب

### مراجع خاصة :

- Collected Papers of Ch. S. Peirce Edited by : Ch. Hart & horne & P. Weiss. Cambridge, Harward University Press. 1931-1935.  
Exact Logic Vol. III.  
Pragmatism and Pragmaticism .vol. V.  
Scientific Metaphysic Vol. VI.  
James, W., Psychology : A Briefer Course. London, Macmillan.  
Pragmatism, Longmans Green. N.Y.  
Meaning of Truth, Longmans Green, N.Y. 1914.  
Will to Believe and other essays in Papular Philos. Longmans, N.Y.t  
1927. 21st. ed.  
A Pluralistic Universe, Longman, 1909.  
Essays in Radical Empiricism, Longmans, 1912.  
Varieties of Religions Experience :  
A Study in Human Nature, Longmans, 1952.  
Essays in Pragmatism, edited withan introduction by A., Castell.  
Hafner, 1948.  
Schiller, F., C., S., Studies In Humanism, Macm. London. 1912 2ed.  
Dewey. J., Essays in Experimental Logic, 1916.  
Feibleman. J., An Introduction to Peirce's Philosophy. Interpreted as  
a system. Harper. N.Y. 1946.  
Feibleman. J., Reviral of Realism : A Critical Study in Contemporary-  
Philos. Chepel Hill. North Carolina, 1946.  
Buchler, J., Charles Peisce's Empiricism, Kegan Paul, 1940.  
Buchler, The Philosophy of Ch. Peirce (Selected Writings). Kegan  
Paul, 1939.  
gallie. W., B., Peirce and Pragmatism. Aplicaned. Edenberg, 1952.  
Kneale, W., Probability and Induction, Oxford. 1949.  
Meulder & Sears : The Development of American Philosophy  
Cambrige, U.S.A. 1940.  
Classic American Philosophers — ,edited by. Fisch. M., N.Y. 1951.  
Perry. R., B., The Thoughts & Character of W. James. Oxford Univ.  
Press. London. 1935. 2. vol.

- Wiener, P., *Evolution and Founders of Pragmatism*. Harvard Univ. Press. 1949.
- Werkmeister. W., H., *A History of Philosophical Ideas In America*. Ronald Press. N.Y. 1949.
- Kallen, H., *The Philosophy of W. James*. Modern Library N.Y.
- Knight. M., *William James*. 1950.
- Adams & Montague. *Contemporary American Philosophy*. Vol. I. Mac. N.Y. 1930.
- Gilbert Maire : James. W., et *Le Pragmatisme Religieux* Denoël et Steele. Paris, 1933.
- Wahl. J., *The Philosopher's Way*. Oxford. N.Y. 1948.
- Wahl. J., *Les philosophies Pluralistes d'Angleterre et d'Amerique*. Paris, 1920.
- Wahl. J., *Vers Le Concret*.
- Caldwell. W., *Pragmatism and Idealism*. London, Adam. & Ch. Black, 1913.
- Thayer, A., *Logic of Pragmatism*.
- Mouy. P., *Logique*. Hachette, Paris, 1944.
- British Philosophers*. edited by. Ayer. J., and Winch. Kegan Paul, London, 1952.
- Woozley. A., D., *Theory of Knowledge, An Introduction*. London. 1949.
- Ewing. A., C., *Idealism : A Critical Survey*. Mechnen, London, 1934.
- Thilly. F., & Wood. L., *A History of Philosophy*. Allen London 1932.
- Bahm. A., J., *Philosophy : An Introduction*. Wiley, London, 1952.
- Brehier, E., *Histoire de la philosophie Moderne* P.U.F. Paris.
- Rivaud. A., *Histoire de la philosophie*. P.U.F. 1950.
- Barrett. C., *Philosophy*. Macm. N.Y. 1936.
- Twentieth Century Philosophy*. Edited by Runes. 1946.

#### ٤١ — مادة برجماتزم في

*Encyclopeddia Britannica*. Vol. 18. University of Chicago. U.S.A. 1946.

#### ٤٢ — مادة برجماتزم في

*Encyclopeddia in Modern Education* edited by, H.N. Rivlin & Schueler. N.Y.

٤٣ — الدكتور زكي نجيب محمود : المنطق الوضعي . الطبعة الأولى .

مكتبة الأنجلو سنة ١٩٥١ .

٤٤ - الأستاذ يوسف كرم ؛ تاريخ الفلسفة اليونانية والوسطى والحديثة .  
سنة ١٩٤٦ .

٤٥ - يعقوب فام : مذهب الذرائع . دار التأليف والترجمة والنشر  
سنة ١٩٣٦ .

Lalande. A., Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie.  
P.U.F. Paris 1947.  
Runes. D., The Dictionary of Philosophy. Rontledge & Sons. N.Y. 1945.



تم طبع هذا الكتاب على مطابع  
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨









## مجموعة نوابغ الفكر الغربى

النبوغ مثل العلم لا وطن له وإنما هو موهبة لدنية أولا وكسبية ثانياً يمتاز بها فريق من الناس وينسحب أثرها وفخارها على البلد أو العصر أو القارة التى ينتمون إليها . وما أجدر أن تكون آثار أولئك النوابغ ومجالى عظمتهم فى الفن والأدب والعلم مثالا يحتذى وأثراً يؤثر .

إن مقومات الفكر فى الشرق العربى كافية لخلق العالم والإديب فيه ولكنها تؤق أعظم أكلها إذا امتزجت فيها مقومات الفكر الغربى وهذا ما تتوخاه هذه المجموعة .

إنها معرض فكرى حافل سوف يلتقى القراء فيه بجبارة الفكر من رجال الغرب قديمهم وحديثهم أولئك الذين كانوا للعالم مصابيح هدى فأنازوا له سبل العلم والمعرفة .

يمتاز كل كتاب من هذه المجموعة بترجمة وافية لحياة العبقري الذى أفرد له ذلك الكتاب وبدراسة مفصلة عن أدبه وعلمه ومذهبه الفكرى كما يمتاز بصفوة مختارة من آثاره الموضحة لمنهج البحث منقولة إلى اللغة العربية ومنشورة إلى جانب الأصل الإفرنجى المنقولة عنه .

فعمى أن يحمد قراء العربية لهذه النافذة المظلة على الغرب ما تطالعهم به من رياض الفكر وجناته .

### ظهر منها

- |                   |                        |
|-------------------|------------------------|
| ١ — نيتشه         | للأستاذ فؤاد زكريا     |
| ٢ — برتراند رسل   | للدكتور زكى نجيب محمود |
| ٣ — برجسون        | » زكريا إبراهيم        |
| ٤ — بسكال         | » نجيب بلدى            |
| ٥ — أفلاطون       | » أحمد فؤاد الأهوانى   |
| ٦ — جون ستيورت مل | » توفيق الطويل         |
| ٧ — ديقدهيوم      | » زكى نجيب محمود       |
| ٨ — شيلر          | » عثمان أمين           |
| ٩ — تايلور        | » أحمد أبو زيد         |
| ١٠ — وليم جيمس    | » محمود زيدان          |

